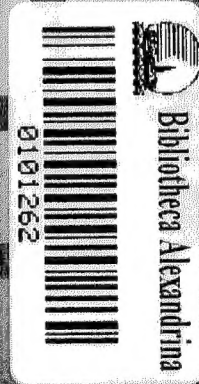
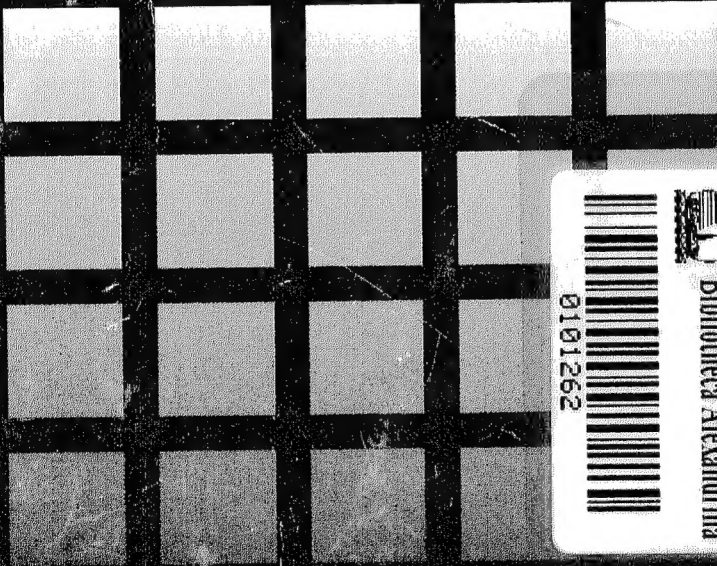


أدبيات

الملائح النبوية

الدكتور محمود علي مكي



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجان



مكتبة الإسكندرية

آديپاڤ

الملائح النبوية

إشراف الدكتور محمود علي مكي
أستاذ الأدب الأندلسي - كلية الآداب بجامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

- ١- الملائح النبوية
- ٢- الدريج
- ٣- السهم الوثيق
- ٤- الادب العربي "١" "٢" "٣"



أدبيات

الملائح النبوية

تأليف : الدكتور محمود علي مكي



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان



مكتبة لبنان

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ، ١٩٩١

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأي وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩١

رقم الإيداع : ٤٨٤٢ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ٤ - ٠٠٢١ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

رقم الكمبيوتر 01 R 160351

طبع في دار نوبل للطباعة - روض الفرج - شبرا - القاهرة

إلى أستاذي

الدكتور شوقي ضيف

من مُريدٍ له ، مُعْتَرِفٍ من عِلْمِهِ ، مُعْتَرِفٍ بِفَضْلِهِ .

محمود علي مكّي

المحتويات

الصفحة	
١	تمهيد
٧	الفصل الأول : الرسول في شعر معاصريه
٧	أبو طالب وشعره في مدح الرسول
١١	شعراء الرسول في المدينة
١٢	حسان بن ثابت
٢٧	كعب بن مالك
٣٢	عبد الله بن رواحة
٣٥	شعراء آخرون
٣٨	الأعشى والنابغة الجعدي
٤٤	كعب بن زهير
٥٩	الفصل الثاني : المداخل النبوية في شعر الشيعة
٦١	الكميت بن زيد
٦٨	السيد الحميري
٧٣	دعبل الخزاعي
٧٨	الشريف الرضي
٨٣	مهيار الديلمي

الصفحة	
٩٠	شعراء آخرون
٩٠	محمد بن المستنير « قطرب »
٩٣	أبو العتاهية
٩٤	القاسم بن يوسف
٩٦	الفصل الثالث : المولد النبوي والمولديات
٩٨	المولديات في المشرق
١٠٧	البوصيري
١١٩	المدائح النبوية في المغرب العربي
١٢٥	المولد النبوي والمولديات في المغرب
١٤١	الفصل الرابع : المدائح النبوية في العصر الحديث
١٤١	البارودي
١٤٥	أحمد شوقي
١٥٢	خاتمة
١٥٦	المصادر والمراجع :
١٥٦	أولا - المصادر
١٦٣	ثانيا - المراجع العربية والمترجمة

تمهيد :

عاش محمد بن عبد الله ﷺ بعد فترة من انقطاع رسالات السماء تبلغ نحو ستة قرون منذ ظهور دعوة المسيح بن مريم عليه السلام ، وكانت دعوة الإسلام التي بُعث بها محمد هي آخر رسالات السماء ، جاءت متممة لما سبقها ؛ ولهذا فقد كانت رسالة محمد موجهة للبشرية كلها « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (سورة سبأ ، آية ٢٨) .

ولم تمتد الحياة كثيراً برسول الإسلام ﷺ إذ لم تكد تتجاوز اثنتين وستين سنة (بين سنتي ٥٧٠ و ٦٣٢ ميلاد المسيح) . وكانت السنوات التي انقضت بين بعثته ﷺ و وفاته لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة قمرية ، قضى منها ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو « عشيرته الأقربين » من قريش ومن خالطهم من القبائل المجاورة ، فلم يستجب له إلا عدد قليل . أما السنوات العشر التي قضاه الرسول في المدينة فهي التي شهدت انتشار دعوة الإسلام السريع ودخول الناس في دين الله أفواجا ، وإنه لتبدو من المعجزات قدرة الرسول ﷺ على تحويل هذا المجمع البدوي ، الذي كانت تمرقه العصبية القبلية إلى « أمة » موحدة واعية بمكانها من التاريخ ، وبرسالته التي قدّر لها أن تغير مسار البشرية . كل ذلك في عشر سنوات فحسب ، وهي حقبة لا تكاد تُعدّ في تواريخ الأمم .

ولا شك في أن هذا التغير الهائل يرجع إلى ما قامت عليه الدعوة الإسلامية من مبادئ ومفاهيم جديدة لم يكن للعالم « المتحضر » آنذاك عهد بها . ولكن علينا أن نذكر أن جانباً كبيراً من نجاح الدعوة الإسلامية كان يرجع إلى شخصية المبعوث بتلك الرسالة الجديدة ، الذي اصطفته الإرادة الإلهية لكي يكون آخر من يحمل كلمة السماء إلى الأرض ؛ ذلك أن محمداً ﷺ لم يدع لنفسه أكثر مما وهبه الله : كان عبداً لله يبدل كل ما وسعته طاقته البشرية لهداية قومه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويتعرض في سبيل ذلك لأذى المعرضين عنه الكافرين برسالاته ، فيتحمل منهم ذلك في إنابة ورضاً بقضاء الله ، فيهدف مناجياً ربه في تواضع المقرّ بعبوديته : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني : إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . »^(١)

والقرآن الكريم نفسه يحث الرسول ﷺ على أن يؤكد هذه الصفة البشرية فيه « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » (سورة الإسراء ، آية ٩٣) ، « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما ألهمكم إله واحد » (سورة فصلت ، آية ٦) ، وذلك حتى يُخلص المؤمنون بدعوة الإسلام عبادتهم لله وحده ، ولا يقعوا فيما وقع فيه بعض أهل الديانات السابقة من عبادة أنبيائهم دون الله : « ما كان لبشر أن يُؤتيه الله الكتاب والحكم والنُبوّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله » (سورة آل عمران ، آية ٧٩) . وقد كان ذلك شيئاً جديداً استغربه أبناء جيله ممن رأوه يخالطهم ولا يترفع عليهم ، وكأن الرسول في نظرهم لا يكون رسولاً إلا إذا أتى لهم بما يخرق نوااميس الطبيعة ، مع أن

(١) هذه هي كلمات الرسول حينما توجه إلى الطائف ساعياً إلى قبيلة ثقيف لكي يقبلوا دعوة الإسلام ، فأذره أذى شديداً وأغروا به سقاهم . انظر سيرة ابن هشام ، طبعة القاهرة ، ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص ٤٢ .

الرُّسل من قبله كانوا بشرًا مثله » وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطَّعام ويمشون في الأسواق » (سورة الفرقان ، آية ٢٠) .

لقد أتت الرِّسالة المحمَّديَّة مُبَشِّرَةً بعصر جديد وفكر جديد فيما يتعلَّق بالنُّبوة ، عصر يعتدُّ بالعقل ، وفكر لا يحاول أن يبهر الأبصار بخوارق الطَّبيعة وإنَّما يحتاجُ بالكلمة الطَّيبة المُفَنِّعة ، والكلمة هي أرفع ما وهبه الله الإنسان مميزًا له عن سائر ضروب الحيوان . ولهذا فإننا نجد الإسلام أقلُّ الأديان استنادًا إلى تلك المعجزات والخوارق ، التي كانت آياتٍ لمن سبق محمدًا من الرُّسل ، فهو لم يحوِّل العصا إلى حيَّة تسعى ، ولم يُخيِّ الموتى ولم يبرئ الأكمه أو الأبرص ، وإنَّما كانت معجزته الكبرى تتمثَّل في الكلمة ؛ في ذلك الكتاب الذي أنزل عليه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الذي تحدَّى به أهل عصره وهم أهل اللُّسنِ والفصاحة « قل لمن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا » (سورة الإسراء ، آية ٨٨) .

صحيح أن كُتِبَ السِّيرة نَسَبَتْ إلى الرُّسول ﷺ معجزاتٍ ظَلَّت تتزايد وتتضخَّم بعد ذلك على مرِّ العصور ، وأضاف إليها الخيال الشعبيُّ كثيرًا من التفصيل ، غيرَ أن الاعتقاد في أكثر هذه المعجزات ليس شرطًا من شروط الإيمان الصَّحيح . ثم إن المعجزات التي ظهرت على أيدي الرُّسل السَّابقين لم تُفلح في جذب المعاندين المُصرِّين على كفرهم إلى حظيرة الإيمان ، إلا على نحوٍ مؤقتٍ محدود ، بل كثيرًا ما كان هؤلاء يتمادون في غيِّهم على الرُّغم مما شهدوه من آيات باهرة . وفي أحداث سيرة الرُّسول ﷺ ما يدلُّ على قِلَّة جدوى هذه المعجزات ، فنحن نرى عبد الله بن أبي أمية (وهو ابن عمَّة الرُّسول) يقول له إنه لن يؤمن له حتَّى يتخذ إلى السَّماء سلَّمًا يرقى فيه ، ثم يأتي بأربعة من الملائكة يشهدون بنبوِّته ، ثم يردف ذلك بقوله : « وأيمُّ الله لو

فعلتَ ذلك ما ظننتُ أنني أصدِّقُك !^(١) . ويعود رؤساء قريش فيطلبون إلى الرسول ﷺ أن يجعل الله له جناتاً وقصوراً وكنوزاً ويبيعت معه ملكاً يصدِّقه ، فينزل الله تعالى على رسوله قوله « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملكٌ فيكون معه نذيراً ؛ أو يلقى إليه كنزاً أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ؛ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً » (سورة الفرقان ، آيات ٧-٩) وينزل فيما قال ابن أبي أمية « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ؛ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ؛ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبلاً ؛ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً »^(٢)

أما ما يتردد ذكره في كتب السيرة وفي المدائح النبوية من معجزات نبوية ، فقد يكون بعضها حدث فعلاً ، وهي ليست مستحيلة الوقوع ، غير أنها ليست في غرابة ما تم على أيدي الأنبياء السابقين . وقد تأملنا أي الذكر الحكيم فلم نجد فيها نصاً صريحاً على وقوع كثرتها الكثيرة ، هذا باستثناء ما يذكر في تفسير أول سورة القمر « اقتربت الساعة وأنشأ القمر ؛ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » (١-٢) فقد ورد في صحيح البخاري وفي سنن الترمذي أن في هاتين الآيتين إشارة إلى ظاهرة كونية وقعت في مكة ؛ إذ يروى عن أنس (رضه) أنه قال : « سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين أو فرقتين . » على أن فريقاً من المفسرين لم يسلّموا بذلك بل قالوا : لم يقع انشقاق القمر وهو منتظر ، أي اقتراب قيام الساعة وانشقاق القمر وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره . وذكر الماوردي

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

(٢) سورة الإسراء ، آيات ٩٠-٩٣ ؛ وانظر سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٩٦-٢٩٧ .

أن هذا قول الجمهور ، وقال : لأنه إذا انشقَّ ما بقي أحد إلا رآه لأنه آية والناس في الآيات سواء . وبهذا قال الحسن البصري . وفسر بعضهم قوله تعالى « وانشقَّ القمر » بأن معناه وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح .^(١)

وعلى كل حال فإنني أرى أن كل ما ينسب للرَّسول ﷺ من معجزات ليس شيئاً بالقياس إلى ما وهبه الله من صفات وشمائل ، فشخصية محمد هي التي تبدو معجزة حقاً ؛ إذ إننا نرى فيها صورة للكمال الإنساني ، وقد أجمال القرآن الكريم وصفه بكلمات قليلة ، فيها جماع للفضائل الإنسانية « وإنك لعلی خلقٍ عظیم » (سورة القلم ، آية ٤) ، ويقول الرَّسول نفسه في حديث له : « أدبني ربي فأحسن تأديبي . »^(٢) وفي حديث آخر : « أنا أكرم من وُئى بدمته . »^(٣) وسيرة الرَّسول وأعماله تشهد بصدق هذا الحكم ، وقد وصفته زوجته السيِّدة عائشة أم المؤمنين (رضه) بأن خلَّقه كان القرآن ، أي أنه النموذج البشري الأعلى لتطبيق المثل والفضائل التي أتت بها رسالة الإسلام . ولعلَّ أبرز ما ميَّز أخلاق الرَّسول هو الرَّحمة ، والقرآن ينصُّ على ذلك نصّاً صريحاً « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » (سورة الأنبياء ، آية ١٠٧) ، وقد وصف الرَّسول نفسه بأنه « نبيُّ التَّوبة ونبِيُّ الرَّحمة »^(٤) وسجَّل القرآن ما تحلَّى به من دماء الخلق ولين الجانب ، وأن ذلك هو ما حُبَّ النَّاس فيه وجمعهم حوله « قِماً رَحمةً من الله لئنَ لهم ، ولو كنت فظاً غليظَ القلب لانفضوا من حولك » (سورة آل عمران ، آية ١٥٩) . وقد كان يحثُّ المحيطين به على أن يقتدوا به في هذه الصفات ، فهو يقول : « أفضل ما أعطي المرء المسلم

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ، ج ١٧ ، ص ١٢٥-١٢٧ .

(٢) جامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

حسن الخلق. «^(١) و « إن أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً في الدنيا. «^(٢)

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

الفصل الأول

الرّسول في شعر معاصريه

كان الشّعْر ديوانَ العرب ، وهو على حدّ قول عمر بن الخطاب (رضه) « علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه . »^(١) ولا نكاد نعرف أمةً من الأمم القديمة اهتمّت بالشّعْر واحتفلت له كما اهتمّ العرب ؛ ولهذا لم يكن من الغريب أن يوظّف الشّعْر في الصّراع الدّائر بين دعوة الإسلام والمُشركين ، سواء في الدّور المكيّ أو المدنيّ من الدّعوة . وكان من الطّبيعيّ أن يتضمّن الشّعْر المناصر للإسلام مديحاً للرّسول ﷺ ، ويعدّ هذا المديح هو البذرة الأولى لفنّ المدائح النّبويّة الذي قدّر له بعد قرون أن يستقلّ بذاته ، ويصبح من أكثر موضوعات الشّعْر حظاً من القبول والدُّيوع .

أبو طالب وشعره في مدح الرّسول

لعلّ أوّل ما نعرفه من الشّعْر الذي قيل في الرّسول ﷺ في الدّور المكيّ من حياته ، هو الشّعْر المنسوب إلى أبي طالب عمّ الرّسول وكافلِه بعد وفاة جدّه عبد المطلب . ويقول ابن سلام إن أبا طالب كان « شاعراً جيّد الكلام » ويعده من أبرع شعراء مكة^(٢) . غير أن معظم الشّعْر المنسوب إليه ورد في سيرة ابن إسحاق (المتوفّى سنة ١٥٠ هـ) وهو الذي يصفه ابن سلام بأنّه « كان ممن أفسد الشّعْر وهجّنه ، وحمل كلّ غثاءٍ منه .. وكان من علماء النّاس بالسّير... وكان أكثر علمه بالمغازي والسّير وغير ذلك ، فقبل النّاس عنه الأشعار ، وكان

(١) العُمّة لابن رُشيق القيروانيّ ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ، السّفر الأول ص ٢٣٣ ، ٢٤٤ .

يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أتينا به فأحمله . ولم يكن ذلك عذرا ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال^(١) .

والواقع أن الشعر المنسوب إلى أبي طالب في سيرة ابن إسحاق كثير كثيرة مفرطة ، وقد أورد بعضه ابن هشام في تهذيبه لتلك السيرة ، وحذف الكثير منه لشكه فيه ، ومع ذلك فما بقي منسوبا إليه بالغ الكثرة حتى لقد جمع في ديوان خاصّ توجد منه نسخ مخطوطة في بعض المكتبات^(٢) . ولكن تأمل ما ورد من هذا الشعر في سيرتي ابن إسحاق وابن هشام يدُلنا على أن كثيرا من هذا الشعر موضوع .

فنحن نجد من هذا الشعر ما زعم ابن إسحاق أن أبا طالب قاله حينما أراد عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله والد الرسول ، وهي ثلاثة وعشرون بيتا من الرجز تبدأ بقوله :

كَلَّا وَرَبَّ الْبَيْتِ ذِي الْأَنْصَابِ وَ رَبَّ مَا أَنْضَى مِنَ الرُّكَابِ
مَا قَتَلُ عَبْدِ اللَّهِ بِاللَّعَابِ مِنْ بَيْنِ رَهْطِ عَصْبَةِ شَبَابِ^(٣)

وهي أبيات يعلق عليها ابن هشام قائلا إن هذا الرجز لم يصح عن أحد من أهل العلم بالشعر^(٤) . وهناك قصيدة أخرى نسبها ابن إسحاق لأبي طالب يذكر فيها لقاء الراهب بحيرا للرسول ﷺ^(٥) وهي أبيات يقول فيها^(٦) :

(١) طبقات فضول الشعراء ، ص ٧-٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ترجمة د. عبد العظيم النجار ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٣) سيرة ابن إسحاق ، تحقيق محمد حميد الله . الرباط ، ١٩٧٦ ، ص ١٣ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٥) خلاصة هذا الخبر المشهور أن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام ومعه الرسول ﷺ وهو آنذاك ابنُ تسع سنين أو اثني عشرة سنة ، فلما وصل الركب إلى بصرى من أرض الشام نزلوا بقرب صومعة بها الراهب بحيرا وكان إليه علم التنبؤية ، فرأى بحيرا الرسول ﷺ وغمامة تظله من بين القوم ، فصنع للركب طعاما ودعاهم إليه . وحينما التقى بالرسول وجهه إليه أسئلة يخبره بها ، ثم رأى خاتم النبوة =

إِنَّ ابْنَ أَمْنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا عندي بمثل منازل الأولاد

.....

وأمرته بالسَّيرِ بينَ عُمُومَةٍ بيضِ الوجوه مَصَالِي أَنْجَادِ
حتى إذا ما القومُ بُصِّرَى عَيْنُوا لاقُوا على شرك من المِرْصَادِ
حَبْرًا فَأَخْبَرَهُمْ حَدِيثًا صَادِقًا عَنْهُ وَرَدَّ مَعَاشِيرَ الحُسَادِ
قَوْمًا يَهُودًا قَدْ رَأَوْا مَا قَدْ رَأَى ظِلَّ الغَمَامِ وَعِزَّ ذِي الأَكْيَادِ

وهي أبيات كان ابن هشام على حق حينما حذفها ؛ إذ إن نسيجها من الهلهلة والركاكة بحيث نكاد نقطع بأنها موضوعة .

ويورد ابن إسحاق بعد ذلك شعراً كثيراً لأبي طالب معظمه بهذه الصفة ، وقد حذف ابن هشام أكثر هذا الشعر وأثبت بعضه ، ولكنه كان يعلّق عليه بما يفيد تشكّكه في صحته . ومن الواضح أنه محاولة لنظم ما يرد في السيرة من أخبار سيقّت ثكراً ، ولكنه في الغالب نظم غثٌ يبدو من عمل القصّاص .

ولا يستوقف نظرنا من الشعر المنسوب لأبي طالب في مدح الرسول إلا قصيدته اللامية الطويلة التي مطلعها :

لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وَدَّ بَيْنَهُمْ وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ

وهي القصيدة الوحيدة التي نصّ محمد بن سلام على أنها « أبرع ما قاله أبو طالب » غير أنه يضيف إلى ذلك قوله : « وقد زيد فيها وطوّلت ، ورأيت في كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة : وقد علمت أن قد

= بين كتفيه ، وفي نهاية اللقاء نصّح أبا طالب بأن يحلّز اليهود على ابن أخيه ؛ لأنه كائن له شأن عظيم . وتفصيل الخبر في سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٨٠-١٨٢ ، وتاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص

٢٧٧-٢٧٨ .

(٦) القصيدة في اثني عشر بيتاً وقد وردت بِجُمْلَتِها في سيرة ابن إسحاق ، ص ٥٥-٥٦ .

زاد الناس فيها ولا أدري أين منتهاها .^(١)

والغريب أن ابن إسحاق لم يورد من هذه القصيدة - على غير عادته - إلا سبعة أبياتٍ فقط ، على حين نراها في سيرة ابن هشام في أربعة وتسعين بيتاً .^(٢) ويعلق ابن هشام بعد روايتها بتمامها قائلاً : « هذا ما صحَّ لي من هذه القصيدة ، وبعضُ أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها » .^(٣)

ويتحدث بروكلمان عن هذه القصيدة أيضاً ، فيرى أن قسماً منها قد يكون صحيحاً لأنه لا يزال يذكر بني هاشم أمة واحدة لم تفرق إلى علوية وعباسية^(٤) . والواقع أن الأمر في هذه القصيدة مُشكِل لأن أكثر أبياتها - على عكس ما نسب من شعر كثير لأبي طالب - جيّد الصنعة تلوح عليه شواهد القِدَم . وفيها يذكر الشاعر ما لقيه الرسول ﷺ من عنت وتكذيب من سائر بطون قريش ، وفي وسط القصيدة البيت المشهور في مدح الرسول ، وهو الذي يعدّه بعض الرواة مطلعها :

وَ أَيْضَ يَسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ
يَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ^(٥)

ومنها في مدح الرسول أيضاً ، وهي ختامُ القصيدة :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَلِفْتُ وَجْداً بِأَحْمَدَ
وإخوته ذَابَ الْحِبُّ الْمَوَاصِلَ
فَلَا زَالٌ فِي الدُّنْيَا جَمَالاً لِأَهْلِهَا
وَزَيْنًا لِمَنْ وَالَاهُ رَبُّ الْمُشَاكِلِ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمِّلٍ
إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ
يُوَالِي إِلَهَا لَيْسَ عَنْهُ بَغَافِلُ

(١) طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٢) سيرة ابن إسحاق ، ص ١٣٧ ، وسيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٧٢-٢٨٠ .

(٣) وقد نقل هذا التعليق أيضاً أبو الريح الكلاعي في كتاب «الاكتفاء» ؛ ولهذا فقد جاءت عنده في ثلاثة وستين بيتاً . انظر ص ٢٨٦-٢٩٣ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٥) يَمَالُ الْيَتَامَى : ملازمهم والقائم بأمرهم .

فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّهُ أَجِيءَ بِسُنَّةٍ	تَجَرُّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
لَكُنَّا أَتْبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ	مِنَ الدَّهْرِ جِدَا غَيْرَ قَوْلِ الْمَهَازِلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبَ	لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدٌ فِي أُرُومَةٍ	تُقَصِّرُ عَنْهَا سُورَةُ الْمُتَطَوَّلِ
حَدَّبَتْ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتُهُ	وَدَافَعَتْ عَنْهُ بِالذُّرَا وَالْكَلاكِ
فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ	وَأَظْهَرَ دِينَنَا حَقَّهُ غَيْرَ بَاطِلِ

غير أننا نلاحظ على هذه الآيات الأخيرة مَسْحَةً من الضَّعْفِ والرَّكَاكَةِ والانحطاط عن مستوى ما سبقها من آيات القصيدة ، مما يجعلنا نتشكك في صحتها .

شِعْرَاءُ الرَّسُولِ فِي الْمَدِينَةِ

هاجر الرَّسُولُ ﷺ إلى يَثْرِبَ بعد أن ظلَّ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الدِّينِ الجديد ، فيلَاقِي هو وأَصْحَابَهُ من تَعُتُّ قُرَيْشٍ وَعِنَادُهُمْ بَلَاءً كَبِيرًا . وكانت هجرته إلى يَثْرِبَ التي أصبحت تدعى « مدينة الرَّسُولِ » مُفْتَتَحَ طُورٍ جَدِيدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ؛ إِذْ التَفَّ حَوْلَهُ أَهْلُهَا ، وَلَمْ يَمُضْ وَقْتُ قَلِيلٍ حَتَّى اعْتَنَقَ مُعْظَمُ أَهْلِهَا الْإِسْلَامَ فِي صِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ . عَلَى أَنَّ الْمَعْرَكَةَ ظَلَّتْ حَامِيَةَ الْوُطَيْسِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جِهَةِ وَقْرِيشٍ وَمِنَ الْإِهَامِ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى . وَكَانَ سِلَاحُ الشُّعْرِ مِنْ أَمْضَى الْأَسْلِحَةِ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ ، فَقَدْ عَمَدَ شِعْرَاءُ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى هِجَاءِ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَمِنَ آوَاهِمِ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَنْصَارِ . وَكَانَ مِنْ أَبْرَزِ هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ (وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الرَّسُولِ) وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَضُرَّارُ بْنُ الْخَطَّابِ الْفَهْرِيُّ وَأَبُو عَزَّةَ الْجُمَحِيُّ وَهَبِيرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ الْمَخْزُومِيُّ ، وَعُمَرُو بْنُ الْعَاصِ السَّهْمِيُّ . فَاسْتَأْذَنَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الرَّسُولَ فِي أَنْ يَنْتَدِبَ

علي بن أبي طالب (رضه) للردّ على هؤلاء ، غير أن الرسول آثر أن يضطلع شعراء الأنصار بهذه المهمة ؛ إذ يؤثر عنه قوله ﷺ : « ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله ﷺ بسلّاحهم أن ينصروه بالسنتهم ؟ » فقال حسان بن ثابت : « أنا لها . »^(١) ومنذ هذه اللحظة أصبح حسان شاعر الرسول الأول وأبرز المدافعين عن الإسلام ومناقضي خصومه ؛ ولهذا فإنه جدير بأن نتأمل شعره في الدفاع عن قضية الإسلام ، وفي نقض ما قاله شعراء قريش في هجاء الرسول وأصحابه ؛ إذ إن هذا الشعر يتضمّن نواة المدائح النبويّة ، والنموذج الذي حاكاه أو عارضه كثير من شعراء تلك المدائح فيما بعد .

حسان بن ثابت

حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجيّ هو الشاعر الوحيد من بين شعراء الرسول ﷺ الذي كانت له شهرة واسعة في الجاهليّة . وكان في شببته يتردّد على ملوك بني غسان في الشام ، وعلى المناذرة في الحيرة ، شأنه في ذلك كشأن الشعراء المحترفين للمدح من أمثال النابغة الذبيانيّ والأعشى . كما كان الناطق بلسان قومه من الخزرج في مساجلاته مع شاعري الأوس الكبيرين قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت . فلما قدّم الرسول ﷺ إلى المدينة أسلم وحسن إسلامه ، فاتّخذ الرسول شاعره المنافع عن جماعة المسلمين بإزاء شعراء قريش ، ويكفيه فخراً أن الرسول دعا له فقال : « اللهمّ أيّده بروح القدس . » وحينما دعاه لهجاء أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو ابن عمّ الرسول ، سأله كيف يهجو ويهجو قومه وهو - أي الرسول - منهم ، فقال : « والله لأسلّنك منهم كما يُسلّ الشعر من العجين ! »^(٢) وهذا دليل على اقتداره وشدة عارضته . وقد امتدّت الحياة بحسان بعد وفاة

(١) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .

(٢) الأغاني ، ج ٤ ، ص ١٣٧-١٣٩ .

الرَّسُولُ ﷺ حَتَّى أَدْرَكَ خِلَافَةَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي سَنَةِ ٥٤ هـ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيبِ (١).

وَلِحَسَّانِ دِيوَانَ كَبِيرِ اِهْتِمَّ الْعُلَمَاءُ بِنَشْرِهِ مِنْ عَرَبٍ وَأَوْرَبِيِّينَ ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعْرِ الْمَوْضُوعِ مِمَّا يَجْعَلُ تَخْلِيصَ شِعْرِهِ الصَّحِيحِ مِمَّا حُمِلَ عَلَيْهِ ، أَمْرًا مِنَ الصُّعُوبَةِ بِمَكَانٍ ، وَفِي هَذَا يَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ : « وَهُوَ كَثِيرُ الشُّعْرِ جَيِّدُهُ ، وَقَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يُحْمَلْ عَلَى أَحَدٍ ، لَمَّا تَعَاضَهَتْ قُرَيْشٌ وَاسْتَبْتَتْ (تَبَادَلَتْ) الْهَجَاءُ وَالسَّبَابُ) وَضَعُوا عَلَيْهِ أَشْعَارًا كَثِيرَةً لَا تُنْقَى » (٢).

وَالْمُلَاحَظَةُ هُوَ أَنَّ مُعْظَمَ شِعْرِ حَسَّانِ الْإِسْلَامِيِّ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ الْمُسَاجِلَاتِ وَالنَّفَائِضِ مَعَ شِعْرَاءِ قُرَيْشٍ ، أَوْ فِي رِثَاءٍ مِنْ يَنَالُ الشَّهَادَةَ مِنَ الصُّحَابَةِ فِي الْمَعَارِكِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ . وَلِهَذَا فَإِنَّ الْمَدِيحَ النَّبَوِيَّ لَيْسَ فِيهَا خَالِصًا ، وَإِنَّمَا يَأْتِي عَرَضًا فِي أَثْنَاءِ تِلْكَ الْقِصَائِدِ ، وَمِنْ أَوْلَى قِصَائِدِهِ فِي ذَلِكَ هَمْزِيَّتُهُ الَّتِي يَهْجُو فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ : (٣)

عَفَتْ ذَاتَ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عَدْرَاءَ مَنَزَلِهَا خَلَاءُ (٤)

وَهِيَ قَبْصِيدَةٌ نُظِمَتْ أَيْبَاتُهَا الْأُولَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؛ إِذْ نَجَدَ حَسَّانًا فِيهَا يَذْكُرُ الْمَوَاضِعَ الَّتِي كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا فِي بِلَادِ الشَّامِ لِيَمْدَحَ أَمْرَاءَ بَنِي غَسَّانٍ ، كَمَا أَنَّهُ يَتَمَدَّحُ بِشُرْبِهِ الْخَمْرَ . وَأَمَّا الْعِزَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فَيَبْدُو أَنَّهُ نَظَّمَ أَيْضًا عَلَى فُتْرَاتٍ ، فَمِنْهَا أَيْبَاتٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا قِيلَتْ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَأَيْبَاتٌ أُخْرَى بِمُنَاسَبَةِ هَذَا

(١) حَوْلَ حَسَّانٍ انْظُرْ كِتَابَ الدُّكْتُورِ شَوْقِي ضَيْفٍ : تَارِيخُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ؛ الْعَصْرُ الْإِسْلَامِيُّ ، ص ٧٧-٨٣ ، وَبِرُوكْلَمَانَ : تَارِيخُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، ج ١ ، ص ١٥٢-١٥٥ .

(٢) طَبَقَاتُ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ ، ص ٢١٥ .

(٣) وَرَدَ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ أَنَّ هَذِهِ الْقَبْصِيدَةَ قِيلَتْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ (فِي سَنَةِ ثَمَانٍ لِلْهِجْرَةِ) (السِّيَرَةُ ج ٢ / ص ٤٢١) ، وَفِي الدِّيَوَانِ (بِتَحْقِيقِ الدُّكْتُورِ سَيِّدِ حَنْفِي ص ٧١) أَنَّهَا قِيلَتْ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ .

(٤) عَفَتْ : بَلَّيَتْ وَتَغَيَّرَتْ ؛ وَذَاتُ الْأَصَابِعِ ، وَالْجَوَاءُ مَوْضِعَانِ بِالشَّامِ ، وَبِالْجَوَاءِ كَانَ مَنَزَلُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمِيرٍ الْغَسَّانِيِّ ؛ وَعَدْرَاءُ قَرْيَةٌ بِالشَّامِ قَرِيبَةً مِنْ دِمَشْقَ .

الفتح . على أن ما يهمنا من هذه القصيدة هو الجزء المتعلق بمديح الرسول ﷺ وفيه يقول :

و قَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا	يَقُولُ الْحَقُّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صِدْقُهُ	فَقُلْتُمْ لَا نُجِيبُ وَلَا نَشَاءُ
وَجِبْرِيلَ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا	و رُوحَ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
أَلَا أَتْلُغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي	مُغْلَقَةً ^(١) فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ
بَأَنَّ سَيُوفَنَا تَرَكْنَاكَ عَبْدًا	و عَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ	و عِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهَجُّوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍ	فَشَرُّكُمْ لِيَخِيرَكُمَا الْفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا	أَمِينَ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ
أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ	وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ ؟
فَإِنَّ أَبِي وَ وَالِدَهُ وَعِرْضِي	لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

ونحن نرى في هذه الأبيات أن المديح لا يحتل منها إلا مكاناً ضئيلاً ؛ صحيح أنه تبدو فيه بعض المعاني الإسلامية ، مثل إشارته إلى جبريل وروح القدس أو إشارته ببعض صفات الرسول ﷺ ، ولكن معظم الأبيات لا تكاد تختلف في معانيها وصياغتها عن الشعر الجاهلي ، ولعلّ لحسان عذراً في ذلك ؛ فقد كان عليه أن يدافع مساجليه من الشعراء بمثل أسلحتهم . ولحسان شعر في وقعة بدر يناقض فيه خصوم الإسلام ؛ من أمثال ضرار بن الخطاب والحرث بن هشام المخزومي (أخي أبي جهل) وكعب بن الأشرف اليهودي وأبي سفيان بن الحرث ؛ ولكنه شعر جاهلي الطابع حافِلٌ بالفخر الجارح والسباب اللاذع ، حتى إن ابن هشام يقول بعد أن أورد قطعة من شعره يعاير فيها الحرث بن هشام لفراره يوم بدر : « تركنا من قصيدة حسان

(١) المغلقة : الرسالة التي تسير من بلد إلى بلد .

ثَلَاثَةُ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا لِأَنَّهُ أَقْدَعَ فِيهَا .^(١)

وَمِنَ الشَّعْرِ الَّذِي قِيلَ فِي يَوْمِ أَحُدَ ، وَهُوَ الْيَوْمَ الَّذِي مَحَّصَ اللَّهُ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ ، قَصِيدَةً قَالَهَا هُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهَبٍ الْمَخْزُومِيُّ يَفْخَرُ فِيهَا بِاتِّتِصَارِ الْمَشْرِكِينَ وَيَشْمُتُ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ :

قَالَتْ كِنَانَةُ أَنَّى تَذْهَبُونَ بَنَا ؟ قُلْنَا النَّخِيلُ فَأُمُوهَا وَمَنْ فِيهَا
نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْجَرِّ مِنْ أَحَدٍ هَابَتْ مَعَدَّ فَقُلْنَا نَحْنُ نَأْتِيهَا^(٢)
فَأَجَابَهُ حَسَّانُ مُذَكَّرًا إِيَّاهُ بِهَزِيمَةِ الْمَشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرَ :

سُقِّتُمْ كِنَانَةُ جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ إِلَى الرَّسُولِ فَجَنَّدَ اللَّهُ مَخْزِيهَا
أُرِّدَتْ ثُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالْقَتْلُ لَاقِيهَا
جَمَعْتُمُوهَا أَحْيَايشًا بِلا حَسَبٍ أَيْمَةُ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا
أَلَا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللَّهِ إِذْ قَتَلْتُمْ أَهْلَ الْقَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا^(٣)

وَهُوَ شَعْرٌ لَا نَكَادُ نَحْسُ فِيهِ بِمَا يَشْهَدُ بِإِسْلَامِهِ إِلَّا حَدِيثُهُ عَنْ « جَنْدِ اللَّهِ » وَتَوَعُّدُهُ قَتْلَى الْمَشْرِكِينَ بِالنَّارِ .^(٤) وَمِثْلُ هَذَا مُجَدِّدُهُ فِي قَصِيدَةِ حَسَّانَ فِي الرَّدِّ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي آيَاتِهِ الَّتِي قَالَهَا فِي الشُّمَاتَةِ بِالْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أَحُدَ ، وَهِيَ آيَاتٌ تَتَوَقَّدُ بِالْحَقِّدِ الْمَسْعُورِ ، وَفِيهَا يَقُولُ :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِيَدِهِ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجَ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ^(٥)
فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بِنَقِيضَةٍ مِنْهَا قَوْلُهُ :

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٢) النخيل : عين بقرب المدينة ، وهو يعني المدينة نفسها ، والجر : هو أصل الجبل .

(٣) ضاحية : بارزة للشمس ، والأحاييش : الفرق ، والطواغي : جمع طاغية ، ويريد بأهل القليب : قتلى موقعة بدر من المشركين .

(٤) راجع شعر هُبَيْرَةَ وَحَسَّانَ فِي السَّيْرَةِ ، ج ٢ ، ص ١٣٠-١٣٢ . (٥) الْأَسَلُ : الرِّمَاحُ .

دَهَبَتْ بِأَبْنِ الزَّبَرَى وَقَعَةً كَانَ مِنَّا الْفَضْلُ فِيهَا لَوْ عَدَلْ
ولقد نِلْتُمْ ونَلْنَا مِنكُمْ وكذلكَ الْحَرْبُ أَحْيَانًا دَوْلٌ^(١)

ومن أجلّ المواقف التي تجلّى فيها حسنّ منافحاً عن الإسلام موقفه حينم
قدّم على الرسول ﷺ وقدّ تميم وفزارة ليفاخروا الرسول على عادتهم في
المنافرات الجاهليّة ، وكان على رأس هذا الوفد عدد من سادات أولئك
الأعراب ؛ منهم قيس بن عاصم المُنْقَرِيّ وعمرو بن الأَهمم المُنْقَرِيّ والأقرع بن
حابس المَجَاشِعِيّ ، وهؤلاء هم رؤساء تميم ، وعيينة بن حصن الفزاري
فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله من وراء حجراته بأصواتٍ عاليةٍ جافية
« اخرج لنا يا محمد فقد جئنا لنفاخرك ، وقد جئنا بخطيبنا وشاعرنا ! » فخرج
الرسول لهم وجلس النَّاسُ ، ولما أذن لهم بالكلام قام خطيبهم عطاردة بن
حاجب الدَّارِمِيّ ؛ فخطب خطبة يفخر فيها بكثرة عديدهم و وفور أموالهم
وقام شاعرهم الزَّيرِقَانُ بْنُ بَدْرِ السَّعْدِيّ فألقى قصيدة يقول فيها :

نَحْنُ الْمُلُوكُ فَلَا حَيَّ يُقَارِبُنَا مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا يُؤْخَذُ الرَّبْعُ
تِلْكَ الْمَكَارِمُ حَزَنَاهَا مَقَارَعَةٌ إِذَا الْكَرَامُ عَلَى أَمْثَالِهَا اقْتَرَعُوا^(٢)

وهي قصيدة لا نجد فيها إلا ما اعتدنا عليه من المفارحات الجاهليّة بالقوّة
والقهر والسيادة والإطعام عند المحلّ .

ونذب الرسول للرّدّ على خطيبهم ثابت بن قيس بن الشَّمس الخزرجيّ
فألقي خطاباً جميلاً تحدّث فيه عن اصطفاء الله تعالى محمداً ﷺ لتبليغ
رسالته ، وعن دعوة الإسلام واستجابة الأنصار لها ودفاعهم عنها . وكاد
حسنّ بن ثابت غائباً فبعث رسول الله ﷺ إليه ، فلما سمع قصيدة الزَّيرِقَانِ

(١) القصيدتان في سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٣٦-١٣٨ .

(٢) قوله « فِينَا يُؤْخَذُ الرَّبْعُ » يشير به إلى أنه كان من عادة العرب في الجاهلية إذا غزوا وغنموا أن يأخذ
الرئيس ربع الغنيمة خالصاً له . وقوله مُقَارَعَةٌ : أي غلبة وقهر .

قال معارضاً لها :

إِنَّ الدَّوَائِبَ مِنْ فِيهِمْ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيْنُوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ
يَرْضَى بِهِمْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ سِرِّيَّتُهُ تَقْوَى إِلَهِهِ وَالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَارَبُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَائِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةَ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرَ مُحَدَّثَةٍ إِنَّ الْخَلَائِقَ - فَاعَلَمَ - شَرُّهَا الْبِدْعُ
أَعِقَّةٌ ذُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عِفَّتُهُمْ لَا يَطْبَعُونَ وَ لَا يُرِيدُهُمْ طَمَعُ
لَا يَخْلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ وَلَا يَمَسُّهُمْ مِنْ مَطْمَعٍ طَبِيعُ^(١)

وختمها بقوله :

أَكْرَمَ بِقَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ شَيْعَتُهُمْ إِذَا تَفَاوَتَ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحَتِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ فِيمَا أَحَبَّ لِسَانَ حَائِكَ صَنَعُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلُّهُمْ إِنَّ جَدَّ النَّاسِ جَدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا^(٢)

وفي هذا الخبر ما يُصَوِّرُ التَّنَاقُضَ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ الْبَدَوِيَّةِ الْخَشَنَةِ الْجَافِيَةِ الَّتِي أَتَى بِهَا هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ لِيُفَاحِرُوا الرَّسُولَ بِعُلُوِّ أَصْوَاتِهِمْ ، وَبُعْدِهِمْ عَنِ التَّأْدِبِ ، وَطَبِيعَةِ مَجْتَمَعِ الْمَدِينَةِ الَّذِي هَدَّبَ الْإِسْلَامُ خُلُقَ أَهْلِهِ ، وَجَعَلَهُمْ يَعْتَدُونَ لَا بِالْمَالِ وَلَا بِالسُّطُورَةِ وَالْغَلْبَةِ ، وَإِنَّمَا بِالْحَقِّ وَالْهَدَايَةِ . وَفِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ نَزَلَتْ آيَةُ سُورَةِ الْحَجَرَاتِ « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (سورة الحجرات ، آية ٤) . وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا نَذَكِرُهُ مِنْ ذَلِكَ الْجَفَاءِ الْبَدَوِيِّ الَّذِي قَدِمَ بِهِ هَذَا الْوَفْدُ مِنْ سَادَةِ تَمِيمٍ وَفَزَارَةَ ، فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ لَا يَخْلُونَ مِنْ ذِكَاةٍ وَرَجَاحَةِ عَقْلِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَعْلِيْقُ أَحَدِ زَعَمَائِهِمْ ؛ وَهُوَ الْأَقْرَعُ بْنُ

(١) الدَّوَائِبُ : الرُّعُوسُ وَالسَّادَةُ ، وَيَعْنِي بِفِيهِمْ قَرِيبًا ، وَلَا يَطْبَعُونَ : لَا يَلْتَمِسُونَ ، وَيُرِيدُهُمْ : يَهْلِكُهُمْ ، وَالطَّبِيعُ : الدَّنَسُ .

(٢) يَعْنِي بِاللِّسَانِ الصَّنْعَ : الَّذِي يَحْسِنُ الْقَوْلَ وَيُجِيدُهُ ، وَشَمَعُوا : هَزَلُوا .

حابس : « والله إن هذا الرجل لمؤتّى له (أي ميسّر له) ! والله لشاعره أشعر من شاعرنا ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا ! » فهذا الاعتراف لا يصدر إلا عن طبيعة سليمة منصّفة بعيدة عن التعصب الأعمى ولهذا فقد انتهى المجلس بإسلام أفراد هذا الوفد جميعهم ورجبتهم في تعلّم القرآن والتفقه في الدين ^(١).

ولعلّ هذه القصيدة من أكثر شعر حسن تشبّعاً بالقيم الإسلامية الجديدة : وإن لم تخلُ أيضاً من تمدّح بالقوّة على ما يقتضيه مخاطبة هؤلاء الأعراب بالمنطق الذي يفهمونه وينقادون له ، ولهذا فإننا نرى فيها توازناً بين التقاليد الجاهليّة الموروثة والثقافة الجديدة التي هدّب بها الإسلام ذلك المجتمع الوليد .

وتبدو هذه الروح الإسلاميّة جليّة حينما نقارن بين فخره الجاهليّ وفخره الإسلاميّ : أمّا في الجاهليّة فقد كان يتمدّح بما جرى الشعراء الجاهليون على التّبجّح به من مفاخر في مثل قوله :

متى ما تَرَنّا من مَعَدٍّ بِعُصْبَةٍ وَغَسَّانَ نَمْنَعُ حَوْضَنَا أَنْ يَهْدَمَا
بِكُلِّ قَتَى عَارِي الْأَشْجَاعِ لَاحَهُ قِرَاعُ الْكُمَاةِ يَرْشَحُ الْمِسْكَ وَالْدَمَا
وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّقٍ فَأَكْرِمُ بَنَا خَالاً وَأَكْرِمُ بَنَا ابْنَمَا
نُسُودٌ ذَا الْمَالِ الْقَلِيلِ إِذَا بَدَتْ مُرُوءَتُهُ فِينَا وَإِنْ كَانَ مُصْرِمَا
لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَفْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا ^(٢)

(١) خير هذه المفارقة في سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٥٦٠ - ٥٦٧ ، والأغاني ، ج ٤ ، ص ١٤٦-١٥١ ، وديوان حسان ، ص ٢٢٣-٢٤٠ .

(٢) ديوان حسان ، ص ١٣٠-١٣١ ، والأشاجع : عروق في ظاهر الكف ، وهو يعني به الضمور ؛ ولاحه : غير لونه ؛ والكُمَاة : جمع كَأَمٍ ، وهو البطل الشجاع ؛ وبنو العنقاء : هم بنو ثعلبة بن عمرو مزقياء ، وهم أجداد للناصرة ملوك الحيرة ، ومُحَرَّقٌ هو عمرو بن هند ملك الحيرة ؛ ونُسُودٌ : أي نجعله سيدي ، والمصرم : الفقير القليل للمال .

فنحن نراه هنا يفتخر بالعلبة والسُّطوة ، ويزعم أن من يقتل من قبيلته فإن دمه يسيل بعطير كأنه المسك ، فقد كان الجاهليُّون يعتقدون أن دم الملوك طيب الرائحة . ويفخر بأجداده الذين وُلد من أصلايهم ملوك الحيرة ، ويقول إنهم يعترفون بالسيادة لذوي المروءة منهم وإن كانوا فقراء ، ثم يصف قومه بالكرم وقرى الضيف وبشدة السُّطوة والبأس ، وهذه هي جماع القيم والمثل الجاهلية . أما في ظل الإسلام فقد أخذ فخره نهجاً آخر مختلفاً عن ذلك إذ يقول (١) :

كُنَّا مُلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ	فَلَمَّا أَتَى الْإِسْلَامُ كَانَ لَنَا الْفَضْلُ
وَأَكْرَمَنَا اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ	إِلَهَ بَأْيَامٍ مَضَتْ مَا لَهَا شَكْلُ
يَنْصُرُ الْإِلَهِ وَالرَّسُولَ وَدِينَهُ	وَالْبَسْتَاهُ اسْمًا مَضَى مَا لَهُ مِثْلُ
أُولَئِكَ قَوْمِي خَيْرٌ قَوْمٍ بِأَسْرِهِمْ	فَمَا عُدَّ مِنْ خَيْرٍ قَوْمِي لَهُ أَهْلُ
يُرَبُّونَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفَ مَنْ مَضَى	وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ دُونَ مَعْرُوفِهِمْ قُفْلُ
إِذَا اخْتَبَطُوا لَمْ يُفْحِشُوا فِي نَدِيهِمْ	وَلَيْسَ عَلَى سَوَالِهِمْ عِنْدَهُمْ بَخْلُ
وَإِنْ حَارَبُوا أَوْ سَالَمُوا لَمْ يُشَبِّهُوا	فَحَرَبَهُمْ حَتْفَ وَسَلَمَهُمْ سَهْلُ
وَجَارَهُمْ مُوفٍ بَعْلِيَاءِ بَيْتِهِ	لَهُ مَا نَوَى فِينَا : الْكَرَامَةُ وَالْبَدْلُ
وَحَامِلُهُمْ مُوفٍ بِكُلِّ حِمَالَةٍ	تَحْمَلُ لَا غَرَمَ عَلَيْهَا وَلَا خَدْلُ
وَقَائِلُهُمْ بِالْحَقِّ إِنْ قَالَ قَائِلُ	وَحِلْمُهُمْ عَوْدَ وَحُكْمُهُمْ عَدْلُ
وَمَنَا أَمِينُ الْمُسْلِمِينَ حَيَاتُهُ	وَمَنْ غَسَلَتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرَّسُلُ (٢)

فنحن نرى كيف تغيّرت المثل والقيم في فخر حسان الإسلام ، وإن كان قد بقي من قيم الجاهلية ما استبقاه الإسلام ، فهو يمدح قومه بالسبق

(١) ديوان حسان ، ص ١٤١ .

(٢) ما لها شكل : ما لها مثل ؛ يربون : يصلحون ؛ واختبطوا : قصدوا في مجلسهم ؛ والبغايا : الموضع المرتفع ؛ والحماله : ما يتحملة الرجل من غرم في الدنيا ؛ والطم العود : القنيم المتكرر ؛ والإشارة في البيت الأخير بقوله : أمين المسلمين ، إلى سعد بن معاذ الأوسي ، ومن غسلته الرسل ويعني الملائكة : حنظلة بن أبي عامر الذي استشهد في أحد وهو على جنابة فغسلته للملائكة .

إلى الإسلام ، وينصرة الرسول ﷺ ، وباللقب الذي أطلقه عليهم الرسول : « الأنصار » ، وبإسداء المعروف ، وبذل المال للفقير والسائل ، وعِفَّة القول والبعد عن الفُحش ، وبالشجاعة في الحرب وإن كانوا يؤثرون السَّلَم دائماً ، وبحفظ الجار ، واحتمال الديات والوفاء بأدائها ، وبالعدل في الحكومة ، والحلم عن الإساءة ؛ وأخيراً يذكر علميّن من أعلام الأنصار : سعد بن معاذ الأوسي وحنظلة (غسيل الملائكة) .

و نحسُّ بهذه السكينة التي يُضفيها الإيمان في قصيدةٍ أخرى يفخر فيها بقومه :

وَبِنَا أَقَامَ دَعَائِمَ الْإِسْلَامِ	اللَّهُ أَكْرَمَنَا بَنَصْرٍ نَبِيٍّ
وَأَعَزَّنَا بِالضَّرْبِ وَالْإِقْدَامِ	وَبِنَا أَعَزَّ نَبِيُّهُ وَكِتَابُهُ
يَفْرِاضُ الْإِسْلَامِ وَالْأَحْكَامِ	يَنْتَابُنَا جَبْرِيلُ فِي أَيْمَانِنَا
قَسَمًا لَعَمْرُكَ لَيْسَ كَالْأَقْسَامِ	يَتْلُو عَلَيْنَا التَّوْرَ فِيهَا مُحْكَمًا
وَمُحَرَّمٌ لِلَّهِ كُلُّ حَرَامٍ ^(١)	فَنَكُونُ أَوَّلَ مُسْتَحِلٍّ خَلَالِهِ

على أن أقرب شعر حسان إلى المدائح النبوية هي مراثيه للرسول ﷺ . ونحن نجد في ديوانه مما يدخل في هذا الباب أربع قصائد قصار ، وقصيدة خامسة طويلة وردت في سيرة ابن هشام وألحقت بالديوان . أمّا قصائد الديوان فقد شكَّ راويه في صحة اثنتين منها ، وهما اللتان تبدآن بهذين المطلعين :

نَبِّ الْمَسَاكِينِ أَنَّ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ مَعَ الرَّسُولِ تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحَرًا

.....

يَا عَيْنُ جُودِي بَدَمْعُ مِنْكِ إِسْبَالٍ وَلَا تَمْلِكَنَّ مِنْ سَحٍّ وَإِعْوَالٍ^(٢)

والحقُّ أن نسج هاتين القصيدتين من الضَّعْف والركاكة بحيث يبدو من

المستبعد أن يكون حَسَنًا قائلهما . وتبقى بعد ذلك اثنتان أخريان يقول في أولاهما :

أَلَيْتُ حِلْفَةً بَرٌّ غَيْرِ ذِي دَخَلٍ مَنِي أَلِيَّةَ بَرٌّ غَيْرِ إِفْنَادٍ
بِاللَّهِ مَا حَمَلْتُ أَنْثَى وَلَا وَضَعْتُ مِثْلَ النَّبِيِّ رَسُولِ الرَّحْمَةِ الْهَادِي
وَلَا مَشَى فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ أَحَدٍ أَوْفَى بِذِمَّةِ جَارٍ أَوْ بِمِيعَادِ
مَنْ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ مَبَارَكَ الْأَمْرِ ذَا حَزْمٍ وَلِإِشَادِ
مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأَكْبَى سَلَفُوا وَأَبْدَلَ النَّاسَ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِي
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهَرٍ جَارٍ فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الْمَفْرَدِ الصَّادِي^(١)

والحق أن نسيج هذه القصيدة ليس خيراً من القصيدتين السابقتين على الرغم من ورودها في الديوان بغير تشكيك في نسبتها ، ومن ورودها في مصادر قديمة أخرى^(٢) . ونحن نحس فيها حرارة التفجع والألم ، غير أن فيها لنا يجعلها أقرب إلى مراثي النساء .

والقصيدة الرابعة ، وهي أطول قليلاً ؛ إذ تقع في سبعة عشر بيتاً تبدأ بقوله :^(٣)

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا كُحِلْتُ مَا قِيَهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ
جَزَعًا عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِيًا يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى : لَا تَبْعَدِ
جَنِّي يَاقِيكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِي عُيِّتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيعِ الْغَرَقَدِ
أُقِيمُ بَعْدَكَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ يَا لَهْفَ نَفْسِي لَيْتَنِي لَمْ أُولَدِ

(١) أَلَيْتُ : حلفت ، والألية القسم والحلف ؛ والدخل : النفاق ؛ والإفناد : الكذب ، والصادي : الظمان .

(٢) ديوان حسان ، ص ٢٠٧-٢٠٨ ، وسيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٧١ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

(٣) ديوان حسان ، ص ٢٠٨-٢٠٩ ، وسيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٦٩-٦٧٠ ، والطبقات الكبرى ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبي المهدي
 فظللْتُ بعد وفاته مُتَبَلِّداً يا ليتني صُبَحْتُ سَمَّ الْأَسْوَدِ
 أو حلَّ أمرُ الله فينا عاجلاً في رَوْحَةٍ من يَوْمِنا أو في غَدِ
 فتقومُ ساعتنا فنلقَى طيِّباً مَحْضاً ضرائبه كريمَ المَحْدِ^(١)

ثم يقول في تأيين النبي ﷺ وتعداد صفاته وتمني لقائه :

نور أضاء على البرية كلها من يهد للنور المبارك يهد
 يارب فاجمعنا معاً ونبيِّنا في جنة تنني عيون الحسد
 في جنة الفردوس واكتبها لنا يا ذا الجلال وذا العلا والسود
 والله أسمع ما حيت بهالك إلا بكيت على النبي محمد

والغريب أن أحداً لم يشكك في نسبة هذه المراثية لحسان ، مع أن هذه الأبيات الأخيرة أشبه بابتهالات الصوفية المتأخرين ودعواتهم ، ولسنا نستبعد أن يكون هذا الجزء قد أضيف إلى القصيدة في زمن متأخر .

ونأتي إلى المراثية الأخيرة التي لم ترد في روايات الديوان ولا في طبقات ابن سعد ، ولكن ابن هشام أثبتها نقلاً عن أبي زيد الأنصاري^(٢) ، وهي أطول مرثي حسن للرسول ﷺ ؛ إذ تبلغ ستة وأربعين بيتاً . وهي تبدأ بوقوف الشاعر على حَجَرَاتِ الرسول ومسجده ثم على قبره ، وما أثاره ذلك في نفسه من ذكريات :

بطيبة رَسَمَ للرسول ومعهده منير وقد تغفو الرسوم وتهمد
 ولا تمحي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد
 و واضح آثار وياقي معالم وربع له فيه مصلى ومسجد

(١) الماتى : مجاري الدموع من العين ، والأرمد : الذي يشتكى وجع العين ، بقيع القرد : مقبرة أهل المدينة ؛

وصبحت : سقيت صباحاً ، والأسود : نوع من الحيات الخبيثة ؛ والضرائب : الطابع ؛ والمجد : الأصل .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٦٦٦-٦٩٩ ، وملحقات الديوان ، ص ٣٧٧-٣٨٠ .

بها حُجَرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا
معارفٌ لم تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيَهَا
عَرَفْتُ بِهَا رَسَمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ
ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدْتُ
يَذْكُرْنَ آلَاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى
مُفَجَّعَةً قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدِ
فَبُورِكَتْ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ
وَبُورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضَمَنَ طَيِّبًا
تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبَ أَيْدٍ وَأَعْيُنَ
من اللّهِ نورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ
أَتَاهَا الْبَلَى فَلَآئِي مِنْهَا تَجَدُّدُ
وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ
عَيُونَ وَمِثْلَاهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ
لَهَا مُحْصِيًا نَفْسِي فَنَفْسِي تَبْلُدُ
فَظَلْتُ لآلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدُّ
بِلَادَ نَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدُ
عليه وقد غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ (١)

ونلاحظ في هذه الأبيات - فضلاً عما نلمسه فيها من حرارة التّفجّع وحرقة الألم - كيف وظّف الشاعر المقدّمة الطلّليّة المعتادة عند الشعراء توظيفاً جديداً ؛ فكما كان الشاعر الجاهليّ يقف على آثار المحبوبة البالية فيشير فيه ذلك مشاعرَ من الحزن والحنين ، نرى حسّانَ هنا يقف على المعاهد التي كان الرسول ﷺ يتنقّل بينها : مصلاه في مسجده ، وحجراته التي كان يقيم فيها ، ومجالسه في رحاب طيبة (المدينة المنورة) ؛ فيشير ذلك في نفس الشاعر أيضاً من الألم المتجدّد لفراق الرسول . ويستحضر صورة الرسول بعد وفاته ، وكيف أودعه أصحابه قبره الشريف يهيلون عليه التراب ، ويغطّونه باللواح الحجارة ، فلا يملك إلا البكاء ، وكأنّ الدنيا قد أظلمت بعده حتى غارت نجوم السماء .

(١) طيبة : هو اسم مدينة الرسول ﷺ ؛ تهمد : تيلي وتندثر ؛ الملحد : الذي يضع الميت في قبره ؛ تسعد : تعين ؛ الآلاء : النعم ؛ شَفَّها : أضعفها ؛ الصّفيح : الحجارة العريضة ؛ المنضد : الذي نظم بعضه فوق بعض ؛ الأسعد : النجوم .

ويتحدث الشاعر عن فجعية المسلمين في الرسول ، بل فجعية الكون
حتى إن السماوات والأرضين تشارك المسلمين في البكاء عليه . و
ذلك إلى تعدد صفات الرسول وشمائله ، وما كان يُفيضه على أم
وحرص على الهداية ؛ غير أنه يؤثر جوار الله ، فيفارق هذه الحياة
بالملا الأعلى تاركاً دياره موحشة تبكي لفقده :

لقد غَيَّبُوا جِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً عَشِيَّةً عَلَوَتْ الثَّرَى لَا
وَرَأَوْا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ وَقَدْ وَهَّتْ مِنْهُمْ ظُهُورُ وَ
يَكُونُ مِنْ تَبْكِي السَّمَوَاتِ يَوْمَهُ وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالْنَّاسُ
وَهَلْ عَدَلْتُ يَوْمًا رَزِيَّةً هَالِكِ رَزِيَّةً يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّ
تَقَطَّعَ فِيهِ مَنَزَلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَلِدِي بِهِ وَيُنْقِلُ مِنْ هَوْلِ الْحَزَايَا
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا مُعَلِّمٌ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَ
عَفُوٌّ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُدْرَتَهُمْ وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحِمْلِهِ فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرٌ مَا
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهُدَى حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَ
فَيَبْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ عَدَا إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ
فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلَى اللَّهِ رَاجِعًا يُبَكِّيه حَقُّ الْمُرْسَلَاتِ وَ
وَأُسْتُ بِلَادُ الْحَرَمِ وَخَشَا بِقَاعَهَا لَغِيَّةٌ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ
قِفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا فَقَبِدَ يُبَكِّيه بِلَاطُ
وَمَسْجِدُهُ فَالْمَوْحِشَاتُ لِفَقْدِهِ خَلَاءٌ لَهُ فِيهَا مَقَامُ
فَبِكِّي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةٍ وَلَا أَعْرِفَنَّكَ الدَّهْرُ دَمْعُكَ
وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِقُ

فَجُودِي عَلَيْهِ بِالْذُّمِّ وَأَعُولِي لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ^(١)

ويعود الشاعر لتعداد فضائل الرسول ومكارم أخلاقه فيقول :

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ
أَعْفَ وَ أَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يَنْكَدُ
وَأَبْدَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءَ بِمَا كَانَ يَتَلَدُ
وَأَكْرَمَ صَيْتًا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيَا يُسَوِّدُ
وَأَمْنَعَ ذُرُوَاتٍ وَاثَبَتْ فِي الْعُلَا دَعَائِمَ عِزِّ شَاهِقَاتٍ تُشِيدُ
رَبَاهُ وَلَيْدًا فَاسْتَتَمَّ تَمَامَهُ عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبُّ مُمَجَّدُ^(٢)

ونرى في تأبين حسان للرسول ﷺ وفي ذكر فضائله كيف يبدو متشبعاً بالمفاهيم الإسلامية ، وكيف تتخلل نسيج هذه الأبيات عبارات من أي الذكر الحكيم ، أو من أحاديث الرسول صائغاً إياها صياغة شعرية جميلة . فهو في وصفه لشمائل النبي يضمّن أبياته معنى الآية القرآنية « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (سورة التوبة ، آية ١٢٨) وحديثه عن التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم يبدو مستوحى من حديث للرسول ، وقد أكثر الناس عليه قائلين : « أعلينا حرج في كذا ؟ » فقال : « أيها الناس ، إن دين الله يسير . » يقولها ثلاثاً^(٣) . والبيت الأخير كأنه مأخوذ من قول الرسول ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي . »

(١) أكمد : أكثر حزناً ، يفور : يبلغ الغور ، أي ما انخفض من الأرض ، وينجد : يبلغ النجد وهو المرتفع منها ، مُقَصَّد : مصيب ، المرسلات : يعني بهم الملائكة ، بلاد الحرم : مكة وما اتصل بها من البقاع المقدسة ، ضافها : حل بها ، البلاط : ما استوى من الأرض ، الغرقد : شجر ، سابق : كثير تام ، يتنمّد : يشمل ويعم .

(٢) لا ينكد : لا يكدر بالذنن والأذى ، الطريف : هو المال المستحدث ، والتالد : هو القديم الموروث ، ويتلد : يكتبس قديماً ، الأبطحي : المنسوب إلى أبطح مكة ، يشير بذلك إلى شرف نسب الرسول في قريش ، ويسود : يعترف له بالميادة . (٣) طبقات ابن سعد ، ج ٧ ، ص ٦٨ .

ويختتم حسان مرثيته بتمني لقاء الرسول في الجنة ، وهو غاية ما تصبو إليه نفسه :

وليس هَوَايَ نازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَلِكَ جِوَارَهُ وَفِي نَيْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

وقد درس الدكتور زكي مبارك هذه القصيدة فرآها لينة من حيث النسيج ، مما جعله يتشكك في صحة نسبتها ، كما أنه رآها ضعيفة من الوجهة الشعرية .^(١) على أن رأينا يختلف حولها عما أعرب عنه أدينا وباحثنا الكبير رحمه الله ؛ فإننا نراها من خير ما رثي به الرسول ﷺ ، سواء من حيث حرارة العاطفة أو جودة الصياغة أو التشبع بالمعاني الإسلامية . وإذا صح أن الوضع قد لحق بعض أبياتها ، فإننا نرى أن جلها صحيح النسبة لحسان . على أن الدكتور زكي مبارك ربما كان على حق حينما رأى أن هذه المرثية لم تقل عقب وفاة الرسول ﷺ ، وإنما قيلت بعد موته بزمان ، وأن هذا قد يفسر ما نلاحظه فيها من نزعة شبه صوفية .^(٢) ونضيف إلى ذلك أنها اشتملت من وصف خلق الرسول ومناقبه على ما لم تشتمله مدائحه التي عرضنا لها من قبل ، كما أن فيها حقاً من الرقة واللين ما لم نره في شعر حسان السابق من عنفٍ وشدةٍ ، وتمثل لكثير من القيم الجاهلية ، ولا سيما في نقائضه وأهاجيه لخصوم الدعوة الإسلامية . غير أن ذلك يفسره ما تقتضيه طبيعة الرثاء نفسها من حزن وانكسار ، ولعل هذه المرثية هي أقرب شعر معاصري الرسول ﷺ إلى فن المديح النبوي الذي ازدهر بعد ذلك بقرون ؛ ولهذا فقد اهتم شعراء المدائح النبوية بمعارضتها وتخمينها فيما بعد .

(١) المدائح النبوية ، ص ٤٤-٥٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٠ .

كعب بن مالك :

ثلاثة من جِلَّةِ الأنصار ندبوا أنفسهم للدِّفاع عن الإسلام ، والمنافحةِ عن رسول الله ، والرَّدِّ بسلاح الشَّعر على مُشركي قريش : أولهم وأشعرهم في نظر القدماء وأكثرهم شعراً هو حسان بن ثابت ، وقد مضى الحديث عنه . أمَّا الاثنان الباقيان فهما كعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحَةَ .

أمَّا كعب فقد كان من شهود بيعة العقبة ، وتخلَّف عن بدر ، إلا أنه شهد بعد ذلك أحدًا وما بعدها . وكان أحدَ الثلاثة الذين تخلَّفوا عن تبوك ، ثم نزلت آيات بالتوبة عليهم ، وامتدَّت به الحياة حتى توفي في خلافة معاوية ^(١) .

ويصف ابن سلام كعباً بأنه « شاعر مجيد » ^(٢) وله شعر كثير ميثوث في كتب السيرة النبوية ، وقد تمَّ جمعه في ديوان مستقل . ومعظم هذا الشعر في مشاهد الرسول ﷺ وغزواته ، وفي مناقضة شعراء قريش ؛ ولهذا كانت قصائده حماسية ذات موسيقى صاخبة مدوية ، وإن كان الإسلام وحبُّ الرسول ﷺ قد هدَّبا من حواشيتها وأجريا فيها تياراً من الإيمان النقي الخالص .

فهو يقول في يوم بدر ، وإن كان لم يشهده ، مُتحدِّثاً عن نصر الله لجنوده ، ومُتوَعِّداً أبا سفيان بن حرب زعيمَ قريش :

فَمَا حَامَتِ قَوَارِسُكُمْ بِيَدِ	وَلَا صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ
وَرَدَّنَاهُ بِنُورِ اللَّهِ يَجْلُو	دُجَى الظُّلُمَاتِ عَنَّا وَالْغِطَاءِ
رَسُولُ اللَّهِ يَقْدُمُنَا بِأَمْرِ	مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَحْكَمَ بِالْقَضَاءِ
فَمَا ظَفِرَتْ قَوَارِسُكُمْ بِيَدِ	وَمَا رَجَعُوا إِلَيْكُم بِالسَّوَاءِ
فَلَا تَعْجَلْ أبا سفيانَ وارْقُبْ	جِيَادَ الْخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كُدَاءِ

(١) الإصابة لابن حجر العسقلاني ، ترجمة رقم ٧٤٣٨ - ج ٥ ، ص ٦١٠ ، وآية براعتهم في سورة التوبة ،

آية ١١٨ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٢٠-٢٢٣ .

بَصَرَ الله رُوحُ الْقُدُسِ فِيهَا وَمِيكَالَ ، فَيَا طَيْبَ الْمَلَأِ^(١)
 وكان ضِرَارُ بن الخطاب الفهري ، شاعر قريش ، قد تهدد المسلمين بعد
 وقعة بدر وأنذرهم بالانتقام لهزيمتهم فيها ، فقال :

عَجِبْتُ لَفَخْرِ الْأَوْسِ وَالْحَيْنِ دَائِرُ عَلَيْهِمَ غَدَاً وَالذَّهْرُ فِيهِ بَصَائِرُ
 فَأُجَابَهُ كَعْبُ بن مالك بقوله :

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ قَادِرُ عَلَى مَا أَرَادَ ، لَيْسَ لِلَّهِ قَاهِرُ
 قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ ثَلَاثِي مَعَشَرًا بَعَا وَسَبِيلُ الْبَغْيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ
 وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ وَالْأَوْسُ حَوْلُهُ لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَنَاصِرُ
 فَلَمَّا لَقَيْنَاهُمْ وَكُلُّ مَجَاهِدٍ لِأَصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ
 شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرُ
 وَقَدْ عُرِيتْ بَيْضُ خِفَافٍ كَانَتْهَا مَقَابِيسُ يُزْهِيهَا لَعِينِيكَ شَاهِرُ
 بِهِنْ أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ قَتَبَدُّوا وَكَانَ يُلَاقِي الْحَيْنَ مَنْ هُوَ فَاجِرُ
 فَكَبَّ أَبُو جَهْلٍ صَرِيحًا لَوَجْهِهِ وَعُتْبَةُ قَدْ غَادَرَتْهُ وَهُوَ عَائِرُ
 وَشَيْبَةُ وَالتَّيْمِيُّ غَادَرَنَ فِي الْوَعَى وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا بِذِي الْعَرْشِ كَافِرُ
 فَأَمْسَوْا وَقَوْدَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا وَكُلُّ كُفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُ
 وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا فَوَلُّوا وَقَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرُ
 لِأَمْرِ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّةَ اللَّهِ زَاجِرُ^(٢)

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥-٢٦ . وحامت : أي دافعت ، مشتق من الحماية ، وكُذِّاء : موضع بمكة ، والإشارة في البيت الأخير إلى نصرة الملائكة للمسلمين ، والملاء : يقصد الملاء ، وهم أنصار القوم وسادتهم .

(٢) البيض الخفاف : يعني السيوف ، والمقابيس : جمع مقباس وهو شعلة النار ، ويُزْهِيهَا : يحركها ، والإشارة بعد ذلك إلى مصارع نفر من زعماء قريش في وقعة بدر ، منهم أبو الحكم عمرو بن هشام ، المعروف بأبي جهل ، وعُتْبَةُ بن ربيعة وأخوه شَيْبَةُ . والتَّيْمِيُّ هو عُمَيْر بن عثمان من بني تَيْم بن مَرْة ، وَحَمَّةُ اللَّهِ : قُدْرُهُ .

ولكعب قصيدة طويلة ردُّ بها على هُبَيْرَةَ بن أبي وهب المخزومي بعد يوم أحد ، وفيها تصوير رائع لالتفاف المسلمين حول رسول الله وطاعتهم له طاعة نابعة من الإيمان الخالص ، ثم لإقبالهم على الاستشهاد في سبيل نصرة دينه :

وفينا رسولُ الله تَتَبُعُ امرءَ إذا قالَ فينا القولَ لا تَتَطَلَّعُ
تَدُلِّي عليه الروحُ من عِنْدِ رَبِّهِ يُنْزِلُ من جَوِّ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ
نُشَاوِرُهُ فيما نُرِيدُ وَقَصَّرْنَا إذا ما اشْتَهَى أَنَا نُطِيعُ وَنَسْمَعُ
وقالَ رسولُ الله لما بَدَّوْا لنا ذَرُّوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيَةِ واطْمَعُوا
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الحَيَاةَ قَرِيبًا إلى مَلِكٍ يُعْجِبُ لَدَيْهِ وَيُرْجَعُ
ولَكِنْ خُذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا على اللهِ إِنَّ الأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ

.....

وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا نَرَى القَتْلَ سَبَّةً على كُلِّ مَنْ يَحْمِي الدَّمَارَ وَيَمْنَعُ
بَنُو الحَرْبِ لَا نَعْيًا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ وَلَا نَحْنُ مِمَّا جَرَتْ الحَرْبُ نَجْرَعُ^(١)

ولكعب شعرٌ كثير في رثاء قتلى أحد ، وفي مناقضةِ ضِرَارِ بن الخطَّاب وعمر بن العاص (وكان لا يزال على شِرْكِهِ) ، ومن ذلك قوله ، وفيه تتجلى روح التضحية في سبيل الله والمصارعة إلى الشهادة :

أَبْلَغُ قُرَيْشًا وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ وَ الصَّدْقُ عِنْدَ أُولَى الأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا سَرَاتِكُمْ أَهْلَ اللَّوَاءِ فَفِيمَا يَكْثُرُ القِيلُ ؟
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فِيهِ مَعَ النُّصْرِ مِيكَالُ وَجِبْرِيلُ
إِنْ تَقَتَّلُونَا فَدَيْنُ الحَقِّ فِطَرْنَا وَالْقَتْلُ فِي الحَقِّ عِنْدَ اللهِ تَفْضِيلُ
وَإِنْ تَرَوْا أَمْرَنَا فِي رَأْيِكُمْ سَقَمًا فَرَأْيُ مَنْ خَالَفَ الإِسْلَامَ تَضْلِيلُ^(٢)

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٣١-١٣٦ ، وقصرنا : غابتنا .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

وهي قصيدة رائعة تنبض بإيمان قويّ وسكينة نابعة من الرضا بقضاء الله ،
ولسنا نستبعد أن يكون كعب بن زهير قد وضعها نصب عينيه حينما نظم
قصيدته المشهورة في مديح رسول الله والاعتذار له .

ولكعب قصيدتان مشهورتان في وقعة الخندق وهزيمة الأحزاب ، وفيهما
يصور ارتداد المشركين عن المدينة وقد خاب رجائهم ، في مزيج من الحماسة
المتفردة والإيمان المطمئن المستكين إلى إرادة الله :

أَبْقَى لَنَا حَدَثُ الْحُرُوبِ بَقِيَّةً مِنْ خَيْرِ نَحْلَةٍ رَبَّنَا الْوَهَابِ

.....

وَمَوَاعِظٍ مِنْ رَبَّنَا نُهْدَى بِهَا لِسَانَ أَزْهَرِ طَيْبِ الْأَنْوَابِ
عَرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عَرِضَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ
حِكْمًا يَرَاهَا الْمُجْرِمُونَ بِزَعْمِهِمْ حَرَجًا وَيَفْهَمُهَا ذُوو الْأَلْبَابِ^(١)

ويختتمها بهذا البيت الذي تتصاعد فيه سخريته من قريش وتعييره لهم متنبهاً
لهم بهزيمة ساحقة :

زَعَمَتْ سَخِينَةٌ أَنْ سَتَغْلِبَ رَبُّهَا وَكَيْفَ لَنْ مُغَالِبُ الْغَلَابِ^(٢)

وهو بيت يذكر ابن هشام أن الرسول ﷺ قال له عنه : « لقد شكرك الله
يا كعب على قولك هذا »^(٣)

ويقول في القصيدة الأخرى :

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ يَمْعَمَعٍ بَعْضُهُ بَعْضًا كَمَعَمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُحَرَّقِ

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٥٩-٢٦١ ، والنحلة : المعطية ، وحرّجا : حراما .

(٢) سَخِينَةٌ : لقب كانت تُنَبِّزُ به قريش ، وهو طعام يتخذ من الدقيق كان يؤكل في شدة الدهر وغلاء السعر
فمَيَّرُوا بِأَكْلِهَا .

(٣) السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ، وطبقات ابن سلام ، ص ٢٢٢ (بعبارة مختلفة بعض الشيء) .

فَلَيَاتِ مَأْسَدَةً تَسْنُ سَيُوفُهَا بَيْنَ الْمَذَادِ وَيَبْنَ جَزَعُ الْخَنْدِقِ ^(١)
 ويعبرُ في خاتمتهَا عن مدى طاعة المسلمين للنبي ﷺ وعقيدتهم الثابتة في
 النصر على يديه :

وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِينَا وَ نُجِيبُهُ وَإِذَا دَعَا لِكَرْهِيهِ لَمْ نُسَبِّحْ
 وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِيهَا وَمَتَى نَرَّ الْحَوَامِتِ فِيهَا نُعْنِقُ
 مَنْ يَتَّبِعُ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ فِينَا مُطَاعُ الْأَمْرِ حَقٌّ مُصَدِّقٍ
 فَبِذَاكَ يَنْصُرُنَا وَيُظْهِرُ عِزَّنَا وَيُصَيِّبُنَا مِنْ نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْقَوْ
 إِنَّ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ مُحَمَّدًا كَفَرُوا وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُتَّقِي ^(٢)

وحينما أجمع الرسول ﷺ المسيرَ إلى الطائف ، بعد فراغه من وقعة حُنين
 في السنة الثامنة للهجرة ، كان كعب بن مالك هو المعلن لذلك ، المنذِرُ به
 باسم الرسول ﷺ ، وذلك حيث يقول ^(٣) :

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ رَيْبٍ وَ خَيْرٌ ثَمَ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا
 نُخَيِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ : دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا
 فَلَسْتُ لِحَاصِرِينَ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنْهَا الْوَفَا
 وَ نَنْتَرِعُ الْعُرُوشَ يَبْطُنُ وَجٌّ وَ تُصْبِحُ دَارِكُمْ مِنْهَا خُلُوفَا

.....

وَكَمْ مِنْ مَعْشَرٍ أَلْبُوا عَلَيْنَا صَمِيمَ الْجِدْمِ مِنْهُمْ وَالْحَلِيفَا
 أَتَوْنَا لَا يَرَوْنَ لَهُمْ كِفَاءً فَجَدَعْنَا الْمَسَامِعَ وَالْأَنْوَا
 لِأَمْرِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلًا خَنِيفَا

(١) السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٦١-٢٦٣ . والمعجمة : صوت التهاب النار ، والأبواء : القصب ، والمأسدة :

موضع الأسود ، والمذاد : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق ، والجزع : الجانب .

(٢) الحوامات : مواطن القتال ، ونعنتى : نسرع .

(٣) السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٧٩-٤٨٠ ، وطبقات ابن سلام ، ص ٢٢١ .

وَتُنْسَى اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَ وَدٌ وَنَسَلَهَا الْقَلَائِدَ وَالشُّنُو
وللذلالة على مدى تأثير هذا الشعر في خدمة قضية الإسلام نور
يرويه ابن حجر عن ابن سيرين التابعي : « قال كعب بن مالك بيتين
إسلام دوس . ثم أنشد البيتين الأولين من هذه القطعة ، وقال : >
ذلك دوساً قالوا : >> خذوا لأنفسكم ؛ لا يَنْزِلُ بكم ما نزل بثقيف >>

عبد الله بن رواحة

ونأتي إلى ثالث شعراء الرسول ﷺ ؛ عبد الله بن رَوَاحَةَ الْخَزَرَجِ
من سادة الأنصار ، وهو أحد النُّبَاء في بيعة العقبة ، وكان من كُتَّاء
وشهد معه مغازية كلها إلى أن استشهد في غزوة مؤتة في الـ
للهجرة .^(١) وما حُفِظَ من شعره قليل بالنسبة لشعر صاحبيه . على
بينه وبينهما اختلافاً يسجله أبو الفرج الإصفهاني إذ يقول : «
رسول الله ﷺ ثلاثة رهط من قريش ؛ عبد الله بن الزُّبَيْرِ وأبو
الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص ، فكان يهجوهم ثلاثة .
حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ؛ فـ
وكعب يعارضانهم بمثل قولهم ، بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم
وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكُفْر . فكان في ذلك الزمان
عليهم قولُ حسان وكعب ، وأهْوَنَ القول عليهم قولُ ابن رواحة .

(١) يهامة : ما استخض من أرض الحجاز ، والمقصود موقعة حُنين بها ، أجمعنا : أرحنا
قبيلتان ، وفقيف هم ساكنو الطائف ، والخاصن : المرأة الغفيفة ، والعروش : سقوف .
لست ولداً لهذه المرأة الغفيفة إن لم أحقق ما أوعدكم به . وَج : من أسماء الطائف ، و
وَأَلْبُوا : جمعوا ، والجلم : أصل القليلة ، والحليف : يعني حلفاءها ، وَجَدَعْنَا : قتلنا ،
شَنَفَ وهو القُرْط ، يريد ما كانت تُزَيِّن به هذه الأصنام : اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَ وَدٌ من حُلِي .

(٢) الإصابة ، ج ٥ ، ص ٦١١ .

(٣) عن ابن رواحة : انظر الإصابة لابن حجر ، ترجمة ٤٦٧٩-٤ ج ٤ ، ص ٨٢-٨٦

الشعراء ، ص ٢٢٣-٢٢٦ .

وفقهوا الإسلام ، كان أشدَّ القول عليهم قول ابن رواحة ^(١) . وهي ملاحظة دقيقة ربما تفسر لنا قلة ما وصل إلينا من شعر ابن رواحة ؛ إذ إن من أسلموا من قریش ممن كان يهجوهم آثروا أن ينسوا ذلك الشعر الذي أصبح « أشدَّ الشعر عليهم » .

وهي بعدُ ملاحظة صائبة ؛ فقد رأينا في شعر حسان وكعب بن مالك بقايا غير قليلة من التقاليد الجاهلية القديمة ، بما فيها من عصبية واعتداد بالمآثر القديمة وتعبير بالمثالب ، وإن خفف من حدتها تأثر بهدي الإسلام وتعاليمه .

أما القطع القليلة التي احتفظت لنا بها المصادر من شعر ابن رواحة فنحن نرى فيها بالفعل عميقَ إيمانه . ومن بين هذه القطع رثاؤه لحمزة بن عبد المطلب ، عمَّ الرُّسُول ﷺ ، في وقعة أحد وفيها يقول :

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا	وما يُغْنِي البكاءُ ولا العويلُ
على أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا	أَحْمَزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ
أَصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا	هناك وقد أُصِيبَ به الرُّسُولُ
عليك سَلامٌ رَبِّكَ فِي جَنَانٍ	مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ ^(٢)

ومن شعره قطعة أخرى يخاطب بها أبا سفيان في غزوة بدر الموعود في السنة الرابعة للهجرة ، وإنما سميت كذلك لأن الرُّسُول ﷺ واعد أبا سفيان عند بدر ، غير أن أبا سفيان آثر السلامة وبدا له في الرجوع ، فقال في ذلك عبد الله بن رواحة :

وَعَدْنَا أَبَا سَفْيَانَ بَدْرًا فَلَمْ نَجِدْ	لميعاده صِدْقًا وما كَانَ وإفيا
فَأَقْسِمُ لَوْ وَافَيْتَنَا فَلَقَيْتَنَا	لَأَبْتَ دَمِيمًا وَافْتَقَدْتَ الْمَوَالِيَا

(١) الأغاني ، ج ٤ ، ص ١٣٧-١٣٨ .

(٢) الاكتفا للكلاعي ج ٢ ، ص ١٣١ .

تَرَكَنَا بِهَا أَوْصَالَ عَتَبَةَ وَابْنَهُ وَ عَمْرًا أَبَا جَهْلٍ تَرَكَنَاهُ ثَاوِيَا
عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ أَفْ لِدِينِكُمْ وَ أَمْرَكُمْ السَّيِّئِ الَّذِي كَانَ غَاوِيَا
فَإِنِّي وَإِنْ عَنَقْتُمُونِي لَقَاتِلٌ فِدَاكَ لِرَسُولِ اللَّهِ أَهْلِي وَ مَالِيَا
أَطْعَنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فِينَا يَغْيِرُهُ شِهَابًا لَنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا^(١)

وقد اضطرب رِوَاةُ السِّيرة في نسبة هاتين القطعتين الأخيرتين بين ابن رواحة وكعب بن مالك . على أننا نرى فيهما ، ولا سيما في القطعة الأخيرة ، تصديقاً للحكم الذي ورد في كتاب الأغاني في المقارنة بين حسان وكعب من ناحية وابن رواحة من ناحية أخرى ، فهو وإن كان يتوعد أبا سفيان في قوة واعتداد فإننا نراه يُعَيِّرُ المشركين بكفرهم وضلالهم ، ثم يعبر عن إخلاصه و ولائه للرَّسول حتى إنه يفديه بأهله وماله . وهذا هو ما يجعلنا نرجح نسبة القطعة لعبد الله بن رواحة .

ويبدو هذا الإيمانُ الخالص في الآيات التي كان يرتجز بها وهو آخذٌ بخطام ناقة رسول الله ، حين دخل مكة في عُمره القضاء سنة سبع للهجرة :

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فَكُلَّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَا رَبُّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقَبِيلِهِ أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ^(٢)

بل يصلُّ به إخلاصه لعقيدته إلى حدِّ تمنّيه الشَّهادة حينما بعثه في الجيش الخارج إلى مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان الرسول قد أمر على هذا البعث زيد ابن حارثة ، وأوصى بأنه إن أصيب فأُمير الجيش جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فالأُمير عبد الله بن رواحة ، فلما آن وقت الخروج للغزو قال وهو يتأهَّب للمسير :

(١) الاكتفا ، ج ٢ ، ص ١٥٦-١٥٧ ، والإشارة في البيت الثالث إلى قتلى المشركين في غزوة بدر ، وهم عتبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، وأبو جهل عمرو بن هشام .

(٢) الاكتفا ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، و ورد الرَّجَزُ كاملاً في سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةَ ذَاتِ قَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّيْدَ
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيَّ حَرَّانَ مُجْهَرَةً بِحَرِيَّةٍ تَنْقُذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَّتِي أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَارٍ وَقَدْ رَشَدَا^(١)

وحينما تقدّم الرسول ﷺ ليودّعه أنشد :

أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحَرِّمُ نَوَافِلَهُ وَ الْوَجْهَ مِنْهُ فَقَدْ أَرَى بِهِ الْقَدْرَ
فَقُبَّتَ اللَّهُ مَا أَتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً فِرَاسَةً خَالَقْتُ فِيكَ الَّذِي نَظَرُوا^(٢)

وحقّق الله لابن رواحة ما تمنّاه ؛ فقد تقدّم باللواء زيد بن حارثة فقاتل حتى قُتِلَ ، وتلاه جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قُتِلَ ، وتقدّم ابن رواحة فقاتل حتى استشهد وهو مقبِل غير مُدِير ، وهو ينشد :

يَا نَفْسُ إِلَّا تَقْتُلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتَ
وَمَا تَمَنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَقْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ^(٣)

شُعْرَاء آخَرُونَ

هذا عن شعراء الرسول ﷺ الناطقين بلسانه ، المنافحين عن دعوته ، وقد مدح الرسول ﷺ شعراء آخرون ، يحسُن بنا أن نشير إلى بعضهم ؛ إذ إن كلّ هذه المدائح تعدُّ نواةً للمديح النبويّ حينما تحوّل إلى غرض مستقلٍّ من أغراض الشعر .

(١) الاكثفا ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ ، والسيره ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ . وذات قَرْغٍ : واسعة ، الزيد : رَغْوَةُ الدَّم ، حَرَّانَ : شديد ، ومجهره : سرية القتل ، والجَدَّتْ : القبر .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، الاكثفا ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ . والنافلة : الهبة والعطية من الله ، ويقصد بالضمير في « نظروا » المشركين .

(٣) السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، والاكثفا ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ . ويعني بالضمير في « فعلهما » أميرى الجيش السابقين ، زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب .

فمن هؤلاء أبو قيس صيرمة بن أبي أنس من بني عدي بن النجار ، وكان في الجاهلية من المتحنفين ، ويذكر أنه ترهب واتخذ متعبداً له وفارق الأوثان ، وتروى عنه أشعار قالها يحض فيها على الخير والتقوى وأعمال البر ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلم وحسن إسلامه . وكان مما قاله قصيدة يذكر فيها ما أكرمهم الله به من نعمة الإسلام ، وما خصهم الله به من نزول الرسول عليهم ، ويستوقف النظر في هذه القصيدة ما تتسم به من طابع قصصي ، كأنه أراد أن يؤرخ لدعوة الإسلام ^(١)

نَوَى فِي قُرَيْشٍ بَضْعَ عَشْرَةِ حِجَّةٍ يَذْكُرْ لَوْ يَلْقَى صَدِيقًا مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيْبَةِ رَاضِيَا
وَأَلْفَى صَدِيقًا وَاطْمَأْنَنْتَ بِهِ النَّوَى وَكَانَ لَهُ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ بَادِيَا
يَقْصُ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ وَمَا قَالَ مُوسَى إِذْ أَجَابَ الْمُنَادِيَا
فَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا قَرِيبًا وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ نَائِيَا
بَدَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حِلٍّ مَالِنَا وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَعَى وَالنَّاسِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُصَافِيَا
فَطَأَ مُعْرِضًا إِنَّ الْخُتُوفَ كَثِيرَةً وَإِنَّكَ لَا تُبْقِي لِنَفْسِكَ بَاقِيَا
فَوَاللَّهِ مَا يَنْدِرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهُ وَاقِيَا
وهناك طائفة من الشعراء عادتوا الإسلام ، بل هجوا الرسول ﷺ هجاء

(١) القصيدة كاملة في سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٥١٢ ؛ والاكتفا ، ج ١ ، ص ٤٦٧ ؛ وتاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ . نوى : أقام واستقر ، والحجة : السنة ، والمواتي : الطائع ، وطيبة : المدينة ، وكان اسمها يثرب ، والقرب هو الفساد ؛ فنهى الرسول ﷺ عن أن تسمى يثرب ، وسماها طابة وطيبة ، بمعنى الطيب ، وألفى : وجد ، والنوى : الدار ، واطمأنت به النوى : أقام ، والوعى : الحرب ، والناسي : في المال ؛ أن تعطي شخصاً منه ، أو تجعله مساوياً لك فيه ، وفي المصائب : التسلي والتعزية ، والخوف : جمع خفف ، وهو الهلاك .

شديداً ، فلما أظهر الله دينه وتم فتح مكة ، خرجوا إلى الرسول ﷺ لائذين بعفوه ، فأسلموا وقالوا شعراً يعتذرون فيه عما أسلفوا من إساءة . وأبرز هؤلاء بغير شك ؛ كعب بن زهير ، وله مكانه من هذا الحديث ، على أننا نذكر منهم عبد الله بن الزبيري الذي طالما التحمت بينه وبين شعراء الرسول نقائض عيفة ، فحين من الله عليه بالإسلام قال يخاطب الرسول ﷺ :^(١)

مَنَعَ الرَّقَادَ بَلَابِلَ وَ هُمُومَ	والليل مُعْتَلِجَ الرَوَاقِ بِهِمَ
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَامَنِي	فِيهِ قَبْتُ كَأَنِّي مَحْمُومَ
إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي	أَسَدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيَمُ
أَيَّامَ تَأْمُرُنِي بِأَعْوَى خُطَّةٍ	سَهَمَ وَتَأْمُرُنِي بِهَا مَخْرُومَ
وَأُمِدُّ أَسْبَابَ الرَّدَى وَيَقُودُنِي	أَمْرَ الْغَوَاةِ وَأَمْرَهُمْ مَشْتُومَ
فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	قَلْبِي وَمُخْطِئِي هَذِهِ مَحْرُومَ
مَضَتْ الْعِدَاوَةُ وَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا	وَدَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومَ
فَاغْفِرْ فِدَى لَكَ وَالِدَايَ كِلَاهُمَا	زَلَلِي فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومَ
وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ الْمَلِكِ عِلَامَةٌ	نُورٌ أَغْرُ وَخَاتَمٌ مَخْتُومَ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ	شَرْقًا وَبُرْهَانَ الْإِلَهِ عَظِيمَ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ صَادِقٌ	حَقٌّ وَأَنَّكَ فِي الْعِبَادِ جَسِيمَ
وَاللَّهِ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفَى	مُسْتَقْبَلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمَ ^(٢)

ومنهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو الذي مرّت بنا مناقضاته مع حسان بن ثابت ، وكان قد أسلم والرسول ﷺ في طريقه لفتح

(١) السيرة ، ج ٢ ، ص ٤١٩ ؛ وطبقات ابن سلام ، ص ٢٤٢ ؛ والاكتفا ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .
 (٢) البلايل : الوسواس ، معتلج الرواق : مضطرب متراكب ، بهيم : شديد السواد ، محموم : مصاب بالحمى ، أسديت : صنعت ، يعني ما قاله من شعر قبل إسلامه ، الأواصر : قرابة الرحم ، حلوم : جمع حلم ، ضد الطيش والسفّه ، ويعني العقل أيضا ، والجمع أحلام ، جسيم : عظيم ، مستقبل : منظور إليه ملحوظ .

مكة ، فدخل عليه وقال معتذراً عما كان مضى منه :^(١)

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً لَتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ
لَكَالْمُدْلَجِ الْحَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ فَهَذَا أَوَانِي حِينَ أَهْدَى وَأَهْتَدِي
هَدَانِي هَادٍ غَيْرَ نَفْسِي وَدَلَنِي عَلَى اللَّهِ مَنْ طَرَدْتُ كُلَّ مُطَرِّدٍ
أَصْدُ وَأَتَأَى جَاهِدًا عَنْ مُحَمَّدٍ وَأَدْعَى وَإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّدٍ^(٢)

ومنهم أنس بن زَيْمٍ الدِّيَلِي الذي قال يمدح الرسول ﷺ ويعتذر إليه ،
وذلك بعد فتح مكة :^(٣)

أ أَنْتَ الَّذِي تَهْدِي مَعَدًّا بِأَمْرِهِ بَلِ اللَّهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ أَشْهَدُ
وَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرُ وِ أَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
أَحْتُ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغُ نَائِلًا إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهَنْدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ
تَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي وَأَنْ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
وَبُيَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ فَلَا حَمَلْتُ سَوْطِي إِلَيَّ إِذْنُ يَدِي^(٤)

وينقل ابن حجر عن كتاب طبقات الشعراء لِإِدْعِيلِ الْخَزَاعِي أَنَّ الْبَيْتَ
الثَّانِي مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ هُوَ أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ .^(٥)

الأعشى والنابغة الجعدي

وليس بوسعنا ، ونحن بصدد الحديث عن مادحي الرسول ﷺ ، أَنْ نُهْمَلَ

(١) السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٠١ ، طبقات ابن سلام ، ٢٤٧ . (٢) الملتج : الذي يسير ليلاً ، أنأى : أبعد .

(٣) السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ ، الاكتفا ، ج ١ ، ص ٤٦٧ .

(٤) الصَّقِيل : المصقول ، والمُهَنْد : السيف المطبوع من حديد الهند ، وكان خير الحديد . بُرْدُ الْخَال : ضرب

من رفع الثياب من برود اليمن ، والسَّابِقِ الْمُتَجَرِّد : يعني به الفرس الجواد الذي يسبق الخيل .

(٥) الإصابة ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

أمر شاعرين كبيرين ، تذكر المصادر القديمة أنهما نظما في مديحه (عليه السلام) قصيدتين لهما شهرتهما العظيمة . أما الأول فهو أعشى قَيْس ، وهو من فحول شعراء الجاهلية ، وجعله ابنُ سلام في الطبقة الأولى من الشعراء ، مع امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني ، وكان كثير التَّنَقُّل في أنحاء الجزيرة وفيما تآخَمَهَا من أرض الشام والعراق ، وكان من أكثر شعراء الجاهلية تكسُّباً بالشعر ^(١).

و يذكر ابن هشام في سيرته ^(٢) أن الأعشى خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام ، وقد أعدَّ قصيدة يمدح الرسول فيها ، فلما كان بمكة أو قريباً منها ، اعترضه بعض المشركين من قريش ، فسأله عن أمره ، فلما أخبره به قال له إن الإسلام يحرم الزنا ، فلم يُبال الأعشى بذلك ، فلما قال له إنه يُحرَّم الخمر توقَّف وأزَمَعَ الانصراف ؛ لكي يَتَرَوَّى من الخمر في عامه ثم يأتي الرسول في العام القابل ليُسلم ، ولكنه مات في هذا العام ولم يَعدْ إلى الرسول . أما هذه القصيدة التي تقع في ثلاثة وعشرين بيتاً فمطلعوها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرْمَدَا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا ^(٣)

وفيها يقول متحدثاً عن ناقته :

أَلَا أَتِيهَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمُمَتَ فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا

.....

وَأَلَيْتُ لَا أَرْنِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تُلَاقِي مُحَمَّداً
مَتَى مَا تُنَاجِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تُرَاجِي وَتَلْقِي مِنْ قَوَاضِيهِ نَدَى

(١) عن الأعشى انظر تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ، ص ٣٣٣-٣٦٥ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ج ١ ، ص ١٤٧-١٤٨ .

(٢) السيرة ، ج ١ ، ص ٣٨٦-٣٨٨ ، ويلاحظ أن ابن إسحاق لم يورد هذا الخبر أصلاً .

(٣) الأرمَد : الذي تشتكى عيناه من الرمَد ، والمُسلم : المُلْدوغ ، أَلَيْت : أقسمت وحلفت ، والكَلَالَة : النَّصَب والنعب ، تُنَاجِي : تَبْكِي ، يَخَاطِب ناقته ، وَتُرَاجِي : تَرْتَاجِي وتسكني وتطمئني .

نَبِيًّا يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرَهُ
 لَهُ صَدَقَاتٍ مَا تُغِبُّ وَنَائِلَ
 أَجْدِكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَّلْ بِزَادٍ مِنَ التَّقَى
 نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ
 فَإِيَّاكَ وَالْمِثَاتِ لَا تَقْرُبْنَهَا
 وَذَا النُّصَبَ الْمَنْصُوبَ لَا تَنْسِكَنَّ
 وَلَا تَقْرَبِينَ حَرَّةَ كَانَ سِرُّهَا
 وَذَا الرَّحِمِ الْقُرْبَى فَلَا تَقْطَعَنَّ
 وَسَبِّحْ عَلَى حِينِ الْعَشِيِّاتِ وَالضُّحَى
 وَلَا تَسْخَرْنَ مِنْ بَائِسٍ ذِي ضَرَّارَةٍ
 أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ
 وَ لَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مِ
 نَبِيٍّ إِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى
 وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ
 قَتَرَصِدَ لِلْأَمْرِ الَّذِي كَا
 وَلَا تَأْخُذَنَّ سَهْمًا حَدِيدُ
 وَلَا تَعْبِدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّ
 عَلَيْكَ حَرَامًا فَانْكِحْنَ
 لِعَاقِبَةٍ وَلَا الْأَسِيرَ
 وَلَا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّ
 وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَالَ لِلْمَرْءِ

وقد أثارَت هذه القصيدة مشكلاتٍ كثيرةً أمامَ الباحثين قديماً وحاد
 هشام يجعل هذا الخبر بعد نَقْضِ صحيفة قريش ، وقبل وفاة أبي طار
 في نحو السنة السابعة أو الثامنة للبعثة ، وكان الرسول لا يزال في مِ
 المعروف أن الخمر لم تُحَرِّمَ إلا في المدينة بعد موقعة أحد ؛ أي
 الثانية للهجرة ، ونزل تحريمها في سورة المائدة ، وهي من أواخر ما نزل
 القرآن . فكيف يُقال للأعشى إن الإسلام يُحَرِّمُ الخمر قبل تحريم
 سنوات أو ثمان ؟!

وقد تنبّه إلى هذا السُّهَيْلِي في شرحه لسيرة ابن هشام ، والك

(١) أغار وأجند : يقصد بلخ كل الأماكن ما ارتفع منها وما انخفض ، ما تُغِبُّ : ما تنقطع ،
 تستعد له ، المِثَاتِ : جمع مِثَّة ، وهي الحيوان الذي مات حَتَفَ أَفْه ، أو على هيئة .
 وقَصَدَ الناقة : شَقَّ عروقها ليستخرج دمه فيشربه ؛ وكان ذلك عند القحط . النَّصَبُ : الص
 السَّر : النكاح ، والتأبَد : التَّعَزُّبُ وَ الْبُعْدُ عَنِ النِّسَاءِ ، ذُو الضَّرَّارَةِ : الفقير المحتاج .

الاكتفا ، مما حَمَلَهُمَا عَلَى التَّوَقُّفِ عَنْ قَبُولِ الْخَبَرِ بِهَذَا الْمَسَاقِ .^(١) هذا إذا لم يكن الأمر قد اختلَطَ على ابن هشام ، وكان تصحيحُ الخبر أن الأعشى قصد المدينة لا مكة في تاريخٍ لاحقٍ لتحريم الخمر . وعلى كل حال فإن ما في الخبر من تناقضٍ يجعله موضعاً للشكِّ في جُمْلَتِهِ .

وبالإضافة إلى نقدِ الخبر من وجهة النَّظَرِ التَّارِيخِيَّةِ ، فقد نظر إليه الدكتور طه حسين من وجهة أخرى فَنِيَّةٍ ، فقد رأى في هذا النَّصِّ المنسوب للأعشى ، من رَدَاءَةِ النَّظْمِ وهَلْكَةِ الْأَلْفَاظِ ، ما يقطعُ بأنه مَنْحُولٌ ، وضعه قاصٌّ ضعيف الحِطِّ من الشعر ؛ فهو إلى المتون أقرب منه إلى الشعر الجيد .^(٢) ويضيف الدكتور شوقي ضيف إلى ذلك نظرة فاحصة متأملة لمضمون القصيدة ، فيرى أنها لا تدعو إلى تعاليم إسلامية خالصة فحسب ، بل تكاد تكون نظماً لآيات قرآنية من مثل قوله تعالى : « وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » (سورة البقرة ، آية ١٩٧) و « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » (سورة المائدة ، آية ٣) و « وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » (سورة آل عمران ، آية ٤١) و « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » (سورة المعارج ، ٢٤ ، ٢٥) و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ » (سورة الحجرات ، آية ١١) و « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » (سورة الإسراء ، آية ٣٢) و « وَلَيْسَتُغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » (سورة النور ، آية ٣٣) .^(٣) وينتهي الدكتور شوقي ضيف إلى أن القصيدة مُنْتَحَلَةٌ ، وأنها لا تتفق ونَفْسِيَّةُ الأعشى .

(١) الاكتفا ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

(٢) من تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي والعصر الإسلامي - كتاب في الأدب الجاهلي ، ج ١ ، ص

٢٤١-٢٤٢ .

(٣) العصر الجاهلي ، ص ٣٤٢ . ويلاحظ أن جميع الآيات المذكورة مدنية فيما عدا آية سورة المعارج .

ونعتقد أخيراً أن كل هذه الحُجَج كافية لردِّ نسبة هذه المدحة النبوية للأعشى .

أما النابتة الجعدي ، فهو عبد الله بن قيس ، ونسبه ينتهي إلى قبيلة جعدة التي تنتمي إلى بني عامر ، وهو شاعر مُحَضَّرَم ، ظلَّ في الجاهلية يتغنى بمفاخر قومه ويهجو أعداءهم من بني أسد ، ويفد أحياناً على ملوك الحيرة من اللُخَمِيِّين . وحينما انتشر الإسلام في الجزيرة وقدَّ مع قومه على الرسول ﷺ في السنة التاسعة للهجرة ، ثم شارك في الفتوح الإسلامية في بلاد فارس ، وانضمَّ إلى صفوف الإمام عليٍّ ، حينما نشبت الحرب بينه وبين معاوية ، كما وفد على ابن الزبير حينما دعا لنفسه ، وتوفي سنة ٦٥ للهجرة عن سنٍّ عالية ^(١) .

وعلى الرغم من إدراك النابتة للرسول ﷺ و وفوده عليه وكثرة شعره الإسلامي ، فإننا لا نجد من مظاهر صلته بالنبي ﷺ إلا إنشاءه لقصيدته الرائية أمامه ، وقول الرسول له : « أَجَدْتَ ، لا يَفْضُضُ اللهُ فَاكِ ا » وإلا أنه أسلم وحسن إسلامه ، وتذكر كتب الحديث النبوي أنه روى عن الرسول ﷺ حديثاً واحداً هو قوله : « أنا والنَّبِيُّونَ قُرَاطُ الْقَادِمِينَ » (أو القاصفين) ^(٢) . وفيما عدا ذلك ، فإننا لا نجد في أخباره شيئاً يدلُّ على صلة وثيقة بالرسول ﷺ ، غير أن تلك العلاقة العابرة ضمنت له شهرة واسعة ، سواء في كتب الأدب ، أو في كتب الحديث وتراجم الصحابة .

وهذا يدعونا إلى التوقف عند قصيدته الرائية المذكورة ^(٣) ؛ حتى نرى ما تضمنته من المديح النبوي . وقد كانت من بين ما انتخبه أبو زيد القرشي في « جَمَهَرَة أشعار العرب » إذ جعلها أولى قصائد الطبقة السادسة ، التي سماها :

(١) عن النابتة الجعدي انظر العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ، ص ١٠٠-١٠٥ .

(٢) الإصابة لابن حجر ، ترجمة ٨٦٥ هـ - ج ٦ ، ص ٣٩١-٣٩٨ ، والقرطاب : جمع فارت ؛ وهو الذي يتقدم القوم ويسبقهم إلى الماء ، والقاصفون : الذين يزدحمون حتى يقصف بعضهم بعضاً ، يريد أنه والأنبياء يتقدمون الأمم إلى الجنة . (٣) ديوان النابتة الجعدي ، تحقيق عبد العزيز رباح ، دمشق ، ص ٥١ .

« المشويات » ، ويعني بها قصائد المخضرمين (شابههم أي جمعوا بين الكفر والإسلام) .

ومطلع هذه القصيدة :

خَلِيلِي عَوْجًا سَاعَةً وَتَهَجْرًا وَلَوْ مَا أَحَدَثَ الدَّهْرُ أَوْ ذَرًا^(١)

ويبدو من تأمل القصيدة ، وموضوعها الأساسي هو الفخر بقومه والتّمُدّح بمآثرهم وهجاء أعدائهم ، أنه قالها في جاهليّته . وفي أولها يتذكّر أيامه الخاليّة حينما كان يتردّد على الحيرة ، وعلى بلاد الشام حينما كان نديماً لأمرأء المناذرة والغساسنة ، كما يشير إلى زيارته لِنَجْرَانَ حيث أوشك على أن يعتنق النصرانيّة :

تَذَكَّرْتُ وَالدَّكْرَى تَهْجُجُ لِدِّي الْهَوَى وَ مِنْ حَاجَةِ الْمُحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْدِرِ بْنِ مُحَرَّقٍ أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفِرَا
كُھُولًا وَشَبَابًا كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ دَنَانِيرُ مِمَّا شَيْفَ فِي أَرْضٍ قَيْصَرَا
وَمَا زِلْتُ أَسْعَى بَيْنَ بَابٍ وَدَارَةٍ بِنَجْرَانَ حَتَّى خِفْتُ أَنْ أَتَنْصَرَا
لَدَى مَلِكٍ مِنْ آلِ جَفْنَةَ خَالَهُ وَجَدَّاهُ مِنْ آلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أَزْهَرَا^(٢)

ويبدو أن الشاعر وهو مقدّم مع الوفود على الرسول أقحم في قصيدته أبياتاً يذكر فيها ذلك ، فقال :

أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَ يَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرَا
وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أَحْسِسُ وَمَنْ مَعِيَ سُهَيْلًا إِذَا مَا لَاحَ ثُمْتُ عَوْرَا

(١) جمهرة أشعار العرب ، ص ٧٧٠-٧٨٧ . وتهجرا : أي سيرا في الهاجرة ، وهي نصف النهار، وذرا : اتركها اللوم .

(٢) المنذر : يعني به المنذر بن النعمان بن المنذر وأبناءه من ملوك الحيرة ، ومُحَرَّقٌ هو لقب عمرو بن هند أحد هؤلاء الملوك ، وشيف : نقيش ، وآل جفنة : هم ملوك الغساسنة في الشام .

أَقِيمْ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضَى بِفِعْلِهَا وَ كُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَحَدَرًا^(١)

وتبدو هذه الأبيات منقطعة الصلة بما قبلها وما بعدها ؛ ولذلك فقد اضطرب الرواة في مكانها من القصيدة ، مما يدل على أنه أضمها إضمًا لكي يُنشدها أمام الرسول ، ونراه فيها يمدحه بما أتى به من الهداية وما أنزل عليه من القرآن ، كما يفخر بإسلامه وجهاده ومراعاته لمبادئ الدين وآدابه .

وفي آخر القصيدة يعود إلى الفخر بقومه فيقول :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجَدُّدُنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا
وَيَذْكُرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له آنذاك : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » فأجاب :
« إلى الجنة . » فقال : « إن شاء الله ! »

ويختتم القصيدة بأبيات في الحكمة يقول فيها :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُعَكَّرَا
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا
فَقَبِي الْجِلْمُ خَيْرٌ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَفِي الْجَهْلِ أحيانًا إِذَا مَا تَعَدَّرَا^(٢)

كعب بن زهير

ونختم هذا الحديث عن مداح الرسول ﷺ في حياته بالكلام عن هذا الشاعر الذي تجاوزت مدحته للرسول ﷺ شهرة كل المدائح السابقة ، وخلدت اسم صاحبها في تاريخ الشعر العربي حتى اليوم .

الشاعر هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني^(٣) ، وأبوه هو الشاعر

(١) المجرة : مجموعة كبيرة من النجوم تتراعى في السماء كوشاح أبيض ، وسهّل : نجم من النجوم اليمانية ، غور : غور وأقل .

(٢) الجهل هنا هو الإسراع إلى الشر ، وأورد الأمر وأصدره : عرف كيف تكون مدخل الأمور ومخارجها .

(٣) عن كعب بن زهير انظر : العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ، ص ٨٣-٨٨ ، و بروكلمان ج ١ ،

الجاهلي المعروف ، أحد أصحاب المَعْلَقَات . وقد عاش في نَجْدٍ في كَنَفِ أبيه ، وكان أبوه موسِعًا عليه في بَرِّه ، فلما مات ساءت أحواله ، ولازمه سوء الحظِّ فافتقر ، وكان لا يَنْمِي (أي لا يُثْمِرُ) له مال .^(١) وإذا كان أبوه ، زهير ، قد عُرِفَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ وَحُبِّهِ لِلْخَيْرِ ، مِمَّا يَبْدُو وَاضِحًا فِي شِعْرِهِ ، فَإِنْ كَعْبًا كَانَ فِي جَاهِلِيَّتِهِ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ ؛ إِذْ يَصِفُهُ شَارِحُ الدِّيَّانِ بِأَنَّهُ كَانَ « رَجُلًا شَرِيرًا شَرِسًا مُحَارَفًا (أي مُضَيِّقًا عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ) مِمْلَقًا (أي فقيرًا) » .^(٢) ولهذا فقد كانت عَلاقته بِأَمْرَاتِهِ سَيِّئَةً ، فَكَانَتْ كَثِيرًا مَا تَلُومُهُ وَتَهْدُدُهُ بِمُفَارَقَتِهِ . وفي ديوانه قصيدتان يخاطبهما فيهما حول هذا النِّزَاعِ . يقول شارح الديوان : « وكان لا يزال يكون بينه وبين امرأته شرٌّ في فقره وسوء خُلُقِهِ »^(٣) ، وهو في شعره كثيرًا ما يتحدَّثُ عَنْ سُوءِ حَظِّهِ وَضَيْقِ رِزْقِهِ وَمِلَازِمَةِ الشُّؤْمِ لَهُ .^(٤) على أَنَّهُ كَانَ كَغَيْرِهِ مِنْ شِعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ تَأْخُذُهُ الْعَصِيَّةُ لِقَوْمِهِ إِذَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جِيرَانِهِمْ شَرٌّ ؛ وَلِهَذَا نَجَدُ فِي شِعْرِهِ هِجَاءً وَوَعِيدًا لِبَعْضِ الْقَبَائِلِ الْمُجَاوِرَةِ ، مِثْلَ طَيْئِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، أَهْلِ يَثْرِبَ .

ويظهر أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ وَمِيلِهِ إِلَى الشَّرِّ ، هُوَ الَّذِي أَخَّرَ إِسْلَامَهُ عَلَى حِينِ أَنَّ أَخَاهُ بُجَيْرًا كَانَ مِنْ أَسْبَقِ قَوْمِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ . ويذكر أَنَّ كَعْبًا هَجَاهُ وَسَخَّرَ مِنْهُ لَذَلِكَ ، فَقَالَ :^(٥)

أَلَا أَتِلِغَا عَنِّي بُجَيْرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتُ - وَيَحَكَ - هَلْ لَكَ
شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأْسًا رَوِيَّةً فَأَتَهْلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ
وخالفت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء - وَيَبَ غَيْرَكَ - ذَلْكَ
على خلقٍ لم تُلَفِ أَمَّا وَلَا أَبَا عَلَيْهِ وَلَمْ تُدْرِكْ عَلَيْهِ أَخَا لَكَ^(٦)

(١) انظر ديوان كعب بن زهير ، ص ٢١٣ و ٢٢٧ . (٢) ديوانه ، ص ١٥٣ .

(٣) ديوانه ، ص ٢١٣ . (٤) ديوانه ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٧ . (٥) مقدمة الديوان ، ص ٣ .

(٦) رَوِيَّةٌ : الرُّوْيُ مِنَ الشَّرْبِ : التَّامُّ الْمَشْبَعِ ، وَكَأْسٌ رَوِيَّةٌ : مَشْبُوعَةٌ مَرُوءِيَّةٌ . أَتَهْلَكَ وَعَلَّكَ : سَقَاكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ . وَيَبَ غَيْرَكَ : تَعْبِيرٌ يَقْصِدُ مِنْهُ التَّعَجُّبَ .

وقال شارح الديوان إن المقصود بالمؤمن هو الرسول ﷺ ، وكان بُجَيْر قد هاجر إلى المدينة وأسلم على يديه . ولا بد أن كعباً إنما أراد السخرية من الرسول ﷺ حينما سمّاه المؤمن ؛ بدليل أنه يعتبر إسلام أخيه « مخالفة لأسباب الهدى » ، ولهذا غضب الرسول حينما أنشده بُجَيْر هذه الأبيات ، ويقال إنه توعدّه . وإذا صحّ ذلك فلا بد أن كعباً هجا الرسول والمسلمين بما هو أفدّع من ذلك ، وأن هذا الهجاء لم يثبت في ديوانه ؛ إذ لا يُعقل أن هذه القطعة الصغيرة من الشعر تثير غضب الرسول ﷺ إلى حد توعدّه بإهدار دمه ، وقد سبق أن تعرّض من أذى شعراء قريش وغيرهم بما هو أعنف من هذه الأبيات بكثير ، فكان - كالعهد به - أقرب إلى العفو والصفح . ويذكر أن بُجَيْراً أجاب كعباً بهذه الأبيات :

مَنْ مَبْلَغَ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بِاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعُزَى وَلَا اللَّاتِ وَحَدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُقْلِتٍ مِنَ النَّارِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
فَدَيْنُ زُهَيْرٍ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينُهُ وَدَيْنُ أَبِي سُلَيْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمٌ^(١)

فلما قدّم رسول الله ﷺ المدينة بعد انصرافه من الطائف ، وذلك في السنة الثامنة للهجرة عاودَ بجير الكتابة لأخيه . وكان بُجَيْر قد شارك في غزوة خيبر ، وقال فيها شعراً يدلّ على مدى إخلاصه للإسلام ، يقول فيه :

اللَّهُ أَكْرَمَنَا وَأَظْهَرَ دِينَنَا وَأَعَزَّنَا بِعِبَادَةِ الرَّحْمَنِ
وَاللَّهُ أَهْلَكَهُمْ وَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ وَأَذَلَّهُمْ بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ^(٢)

كما شارك أيضاً في حصار الطائف وقتال المشركين من ثقيف ، وكان من

(١) حَزَمٌ : ضبط أمره وأحكمه وأخذ فيه بالثقة ، وهي أحزم : أي أصوب وأوثق .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

شعره في هذه الرَّقعة :

لَمْ يَمْنَعُوا مِنَّا مَقَامًا وَاحِدًا إِلَّا جِدَارَهُمْ وَبَطْنَ الْخَنْدَقِ
وَلَقَدْ تَعَرَّضْنَا لِكَيْمًا يَخْرُجُوا فَتَحَصَّنُوا مِنَّا بِبَابٍ مُغْلَقٍ^(١)

فحين عاد بُجَيْر إلى المدينة في صحبة الرَّسُول ﷺ أخذته صلَّة الرَّحِم بأخيه ، فكتب إليه يقول إن النَّبِيَّ ﷺ يَهْمُ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ يُؤْذِيهِ مِنْ شِعْرَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، ودعاه إلى القدوم عليه ؛ لأنه لا يقتل أحدًا جاء تائبًا ، وإلا فَلَيَمْنَعَنَّ الْهَرَبَ وَالنَّجَاءَ فِي الْأَرْضِ .

ولما جاء كعبًا كتابُ أخيه ضاقت به الأرضُ وأَرْجَفَ به أهلُه ، وقالوا إنه مقتول ، وأبَتْ قَبِيلَتُهُ مَزِينَةُ أَنْ تُؤْوِيَهُ ؛ فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ وَنَصَحَهُ رَجُلٌ كَانَ يَعْرِفُهُ ، بِأَنْ يَذْهَبَ إِلَى الرَّسُولِ فَيَسْتَأْمَنَهُ . ثُمَّ أَتَى الرَّسُولَ وَكَانَ لَا يَعْرِفُهُ ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ أَتَاكَ تَائِبًا مُسْلِمًا ، فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ مِنْهُ إِنْ جِئْتِكَ بِهِ ؟ » قَالَ : « نَعَمْ » . قَالَ : « فَأَنَا كَعْبٌ » . فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَالِبًا مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَهُ فَكَفَّهُ النَّبِيُّ* . وَفِي هَذَا الْمَشْهُدِ أَنْشَدَ كَعْبُ قَصِيدَتَهُ :

بَانَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مَتَيْمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُجَزَّ مَكْبُولٌ^(٢)

فلمَّا فرغ من إنشاد القصيدة كساه الرَّسُولُ ﷺ بُرْدَةً اشْتَرَاهَا مُعَاوِيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَبْنَائِهِ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَكَانَ يَلْبِسُهَا هُوَ وَالْخُلَفَاءُ مِنْ بَعْدِهِ فِي الْعِيدِينَ تَبَرُّكًا بِهَا ؛ وَلِهَذَا لُقِّبَتِ الْقَصِيدَةُ بِالْبُرْدَةِ .

وتقع القصيدة - كما وردت في الدِّيَّوَانِ - فِي سَبْعَةِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا^(٣) ، وَهِيَ تَبْدَأُ - عَلَى عَادَةِ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ - بِمَقْدَمَةِ غَزَلِيَّةٍ فِي ثَلَاثَةِ عَشْرِ بَيْتًا ،

(١) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ . (٢) الخبر في مقلمة الديوان ، ص ٤-٥ ، والقصيدة في الديوان ص ٦-٢٥ . بانت : فارقت ، متبول : هالك ، مكبول : مقيد .

(٣) وأضاف أبو زيد القرشي إليها بيتًا واحدًا ، فهي عنده في ٥٨ بيتًا ، جمهرة أشعار العرب ، ص ٧٨٨-٨٠٠ .

يصف فيها صاحبه وصفًا حسيًا ، فهو يشبّها بِظَنِّي جميل العينين ، رَحيِم الصَّوْت ، ولا يرى بأسًا ، وهو في حضرة الرسول ﷺ ، في أن يتحدث عن نغرها الذي يبدو ، في عذوبة ابتسامته وجمال ثناياه وطيب رائحته ، كأنه قد سَقِيَ بخمر ممزوجة بماء صافٍ نقيٍّ ، ويصل ذلك بالحديث عن هذه الصَّاحبة التي لا تعطي وعدًا إلا أخلفته ، ولا تُطْمَعُ مُحِبُّها في وَصْلٍ إلا كدَّبت ظَنُّه وخيَّبت أمله ، فهو لا يتمسك من وصلها إلا بحبل واهٍ رَثٌ . ويدلُّ تقبُّلُ الرسول لهذه القصيدة بمثل هذه المقدِّمة الغزليَّة ، بل وإثابته صاحبها ، على سماحته ، ورَهاقَةِ حِسِّه ، وتدوُّقِه للشَّعر ، واحترامه لتلك التَّقاليد الفنِّية التي جرى عليها الشُّعراء فيما ينظمون من شعر حتى أصبحت من معالمه الرَّاسِخة .

وينتقل الشَّاعر بعد هذه المقدِّمة الغزليَّة إلى مقدِّمة أخرى تقليديَّة أيضًا في وصف النَّاقة ، وهي تقع في عشرين بيتًا ، وفي ثنايا هذا الوصف نجد تصويرًا رائعًا للصَّحراء في ساعة الهَجِير عند اشتداد الحرارة ، ولحركة النَّاقة الدَّائبة في ذلك القَيْظِ المَهْلِك . وهذه المقدِّمة - وإن بدت استطرادًا لا عَلاقةَ له بموضوع القصيدة الأساسي - لا تخلو من إحياءات لها دلالتها ، فكأن الشَّاعر يريد أن يصوِّر عذابه وهو يُغْدِي السَّيْر في هذه الصَّحراء المَحْرِقَة باحثًا عن النَّجاة ، بعد أن بلغه وعيدُ الرسول له ، وتشبيهاته لذلك ذات صِبْغةٍ قاتمة ، مُنْذِرةٌ بسوء المصير . فهو يصوِّر لنا قِمَمَ الجبال النَّخِرة السوداء وقد علاها السَّراب ، وقد انْقَطَعَت الصَّحراء بلهيب الهَجِير ، وقد تَفَاوَزَت على الرَّمال الحارقة جَنَادِبُ رماديَّة اللون ، وحادي الإبل ينصح الرُّكَب بأن يركنوا إلى شيء من الرَّاحة ، ويحشوا عن ظلٍّ يقيهم حرارة الظَّهيرة ، غير أن ناقته ماضية في سيرها السَّريع ، وكأنَّ قوائِمها في حركتها السَّريعة المتلاحقة ذراعًا امرأة مات لها زوجٌ أو ولدٌ حبيبٌ ؛ فهي ذاهلة العقل لا تكفُّ عن لطم وجهها وتقليب يديها ، ومن حولها نساء يشاركنها في مصيبتها فهنَّ لا يَفْتَنُ بِنَدْبِن

مَنْ فَقَدْنَهُ فِي لَوْعَةٍ وَحَرَقَةٍ ، وَيَلْطَمُنُ خَدَّوَدَهُنَّ ، وَيَمَزَّقُنَّ ثِيَابَهُنَّ عَنْ صُدُورِهِنَّ :

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا وَقَدْ عَرَقَتْ وَ قَدْ تَلَفَعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ
وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيَهُمْ وَقَدْ جَعَلَتْ وَرُقُ الْجَنَادِ يَرْكُضْنَ الْحَصَى : قِيلُوا
شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعًا عَيْطَلُ نُصْفِ قَامَتْ فَجَارَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ
نَوَاحِي رِخْوَةِ الضَّبْعَيْنِ لَيْسَ لَهَا لَمَّا نَعَى بِكَرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ
تَفْرِي اللَّبَانَ بِكَفَيْهَا وَمِدْرَعَهَا مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَايِهَا رَعَائِيلُ ^(١)

وقد يضيق قارئُ اليوم بهذه الأبيات وما اشتملت عليه من ألفاظ غريبة ؛ غير أنه ينبغي أن نُقدِّر أن هذه الألفاظ لم تكن غريبة على من يستمعون إليها في عصر الشاعر ، وأن نقدِّر أيضاً أن هذه المقدمات ، سواء منها الغزلية أو الخاصة بوصف الإبل أو الصحراء ، لم تكن مجرد استطرادٍ بعيدٍ عن موضوع القصيدة الرئيسي ، مما جعل بعض النقاد يعتقدون أن تلك القصائد مُفككة لا تضمُّ أجزاءها وحدةً ، وكأنها صدرت عن ذهنٍ مشتتٍ ، يلقي الكلام كيفما اتَّفَقَ ، بل إننا نرى وحدةً فنيةً لا تبدو لأوَّل وهلة ، بل تحتاج إلى مزيد تأملٍ يسمح بتبيينها واستبطانها . فالشاعر يريد أن يصور جوَّ الفزع الذي كان يعيش فيه وهو مهتدٌ بوعيد الرسول ، ولهذا فإنه يقدم لنا صوراً متلاحقة كلها تهيمُ الدَّهْن لمشاركته ذلك الإحساس العميق بالرَّهبة والخوف .

ولهذا فإنَّ الشاعر بعد هاتين المقدمتين لا يلبث أن يُلجَّ إلى موضوعه ،

(١) أَوْب : رجع ، تَلَفَعَ : التَّحَفَّ ، القور : جمع قارة ؛ وهي الجبل المرتفع ذو الحجارة السود ، العَسَاقِيل : السراب ، الوُرُق : جمع أُرُق ؛ وهو الرَّمَادِي ، قِيلُوا : أَرِهُوا فِي سَاعَةِ الْقَيْلُولَةِ ، شَدَّ النَّهَار : ارتفاعه ؛ وهي منصوبة على الظرفية ، عَيْطَلُ : المرأة الطويلة ، النُّصْف : المرأة المتوسطة السنَّ ، النُّكْدُ المَثَاكِيل : النساء اللشغومات اللاتي تُكَلِّن (أي تفقدن) أزواجهن أو أولادهن ، الضَّبْعَان : الضبَّان ، وَرِخَاوَةُ الضَّبْعَيْنِ : كناية عن سرعة الحركة ولطم الوجوه ، وَالْيَكْرُ : هو الولد الأول ، المَعْقُول : العقل ، تَفْرِي : أي تنشق ، اللَّبَان : الصدر ؛ ويبرد الثياب التي تغطيها ، الْمِزْرَع : القميص ، التَّرَاقِي : جمع تَرْقُوة ، وهي إحدى العظمتين اللتين في أعلى الصدر ، رَعَائِيل : خِرَقٌ مُمَزَّقة .

فَيَصِلُ كلامه عن ناقته بالحديث عن أصحابه المحيطين به ، وهم يتنبأون له بسوء المصير ، فهو مقتول لا مَحَالَة ، ويتخلى عنه كلُّ من علّق عليهم الأمل من أصدقائه ، فهم مشغولون عنه لا يملكون له نفعاً ، وحينئذ لا يرى مفراً من مواجهة مصيره وحده ، فهو يدعوهم أن يتركوه وشأنه ، فكل ما قدره الله كائنٌ لا مردُّ له ، ويختم هذا التأمل بحكمة يقول فيها إن غاية كل إنسان الموت ، وأن يُحْمَلَ على أعواد نَعَشٍ يُقْضِي به إلى مثواه الأخير :

يَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنَبَيْهَا وَقَوْلُهُمْ : إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي سُلَمَى لَمَقْتُولٌ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمَلُهُ لَا أَلْفَيْنَكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ
فَقُلْتُ : خَلُّوا طَرِيقِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ
كُلُّ ابْنِ آتَنِي وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَذَبَاءُ مَحْمُولٌ^(١)

وَيُصَرِّحُ بعد ذلك بسبب هذا الفرع القاتل الذي استولى عليه ، فهو وعيد الرسول له ، غير أنه يَسْتَمْسِكُ بحبل الرجاء ، فيستعطفه وَيَسْتَرْقِي قلبه بأمله في أن يعفو عنه ، ويدعوه إلى أن يَتَّبِعَ في أمره ، وهو الذي لا يقضي إلا بالحق ولا يهتدي إلا بهُدَى القرآن ، ولهذا فإنه يدعوه إلى أن لا يأخذ بأقوال مُبْغِضِيهِ الذين يريدون الإيقاع به ، وقولُ كعب هذا هو الذي يرجع عندنا أن ما أسلفه الشاعر من جُرْمٍ يتجاوز تلك الآيات الأربعة التي أجاب بها على رسالة أخيه بُجَيْرَ :

أَنْثَيْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً أَلْ قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَ تَفْصِيلٌ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقَاوِيلُ
لَقَدْ أَقَوْمُ مَقَامًا لَوْ يَقَوْمُ بِهِ أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ

(١) بجنيها : يقصد بجني ناقته ، لا أَلْفَيْنَكَ : لا أكون معك في شيء ، الآلة الحَذَبَاءُ : يريد بها النعش ، ومعنى الحَذَبَاءُ : المَقْرُوسَة .

لَظَلُّ يَرَعْدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ الرُّسُولِ يَأْذِنُ اللَّهُ تَنْوِيلُ
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنَا زَعْتُ فِي كَفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قِيلُهُ الْقِيلُ
لِذَلِكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَمْتُهُ وَقِيلَ إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَ مَسْغُولُ
مِنْ ضَيْغَمٍ مِنْ ضِرَاءِ الْأَسَدِ مُخْلَرُهُ يَبْطُنُ عَثْرَ غَيْلٍ دُونَهَا غَيْلُ
يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُمَا لَحْمٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ
إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنًا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتْرَكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَقْلُولُ
مِنْهُ تَظَلُّ حَمِيرُ الْوَحْشِ ضَامِرَةٌ وَلَا تَمَشِّي بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ
وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ مُطَرِّحُ الْبِزِّ وَالْدَّرْسَانِ مَأْكُولُ^(١)

وفي الآيات التسعة الأخيرة صورتان انتزعهما الشاعر من العالم الحيواني ، الأولى ربما تَحْمِلُ قارئ اليوم على الابتسام لما يخطر بباله من سداجتها ؛ فهو يقول إنه رأى وسمع من وعيد الرُّسُول له ، وَمِمَّا حَلَّ بِمَنْ لَهُمْ مِثْلُ جُرْمِهِ مَا لَوْ رَأَاهُ أَوْ سَمِعَهُ الْفِيلُ لَظَلَّ يَرْتَعِدُ رَعْبًا ، إِلَّا أَنْ يَنْذِلَ لَهُ الرُّسُولُ الْأَمَانَ ؛ ذَلِكَ أَنْ قَارِئَ الْيَوْمِ قَدْ تَعَوَّدَ عَلَى رُؤْيَا الْفِيلِ فِي حَدَائِقِ الْحَيَوَانِ ، أَوْ فِي حَلَبَاتِ « السِيرِكِ » وَقَدْ امْتَطَى ظَهْرَهُ الْأَطْفَالُ ، أَوْ وَهُوَ يَنْقَادُ لِأَوَامِرِ مَرْوُضِهِ طَيْعًا وَدِيْعًا ، وَلِهَذَا فَإِنَّهُ قَدْ لَا يَسْتَسِيغُ هَذِهِ الصُّورَةَ الَّتِي أَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ يَهْوَلَ بِهَا فِي تَصْوِيرِ مَا أَصَابَهُ مِنْ فِزَعٍ . عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَضَعُ أَنْفُسَنَا فِي سِيَاقِ مَجْتَمَعِ الشَّاعِرِ ، فَالْفِيلُ قَدْ ارْتَبَطَ فِي أَذْهَانِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدَرَ الْإِسْلَامُ بِتِلْكَ الْحَمَلَةِ الْجَائِحَةِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهَا الْبَيْتُ الْحَرَامُ ؛ وَهِيَ الَّتِي اقْتَحَمَ فِيهَا أَبْرَهَةَ

(١) النَّافِلَةُ : الْعَلِيَّةُ ، التَّنْوِيلُ : الْمَطَاءُ ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْأَمَانُ وَالْمَعْنَى : ذُو نَقَمَاتٍ : أَيُّ شَدِيدِ الْإِنْتِقَامِ ، قِيلُهُ الْقِيلُ : قَوْلُهُ الصَّادِقُ الْحَقُّ ، مَسْبُورٌ : مُمْتَحَنٌ ، الضَّيْغَمُ : الْأَسَدُ ، ضِرَاءٌ : جَمْعُ ضَارٍ وَهُوَ الْمَقْتَرَسُ ، مُخْلَرُهُ : مَكْمَنُهُ أَوْ غَيْضَتُهُ الَّتِي يَتَخَلَّاهَا خَلْرًا لَهُ ، عَثْرٌ : مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ بِكَثْرَةِ أَسْوَدِهِ ، الْغَيْلُ : الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ ، يُلْحِمُ ضِرْغَامَيْنِ : يُطْعِمُهُمَا اللَّحْمَ ، وَيَقْصِدُ بِهِمَا شَيْئَيْنِ شَدِيدَيْنِ لَهُ ، الْمَعْفُورُ : الْمَصْرُوعُ الْمُلْقَى فِي التُّرَابِ ، خَرَادِيلُ : مُقَطَّعٌ ، يُسَاوِرُ : يُؤَاقِبُ ، الْمَقْلُولُ : الْمَكْسُورُ الْمُحْطَمُ ، ضَامِرَةٌ : سَاكِنَةٌ مِنْ هَيْئَتِهِ ، الْأَرَاجِيلُ : الرِّجَالُ جَمْعُ رَاجِلٍ ، وَهُوَ الْمَاشِي عَلَى رِجْلَيْهِ ، الْبِزُّ : الْقِيَابُ ، الدَّرْسَانُ : جَمْعُ دِرْسٍ ، وَهُوَ الثَّوْبُ الْبَالِي .

الحبشي مكة عازماً على تدمير الكعبة ، وكان الفيل هو الرمز المرهوب لتلك الغزوة الضارية ، التي لم يتم إنقاذ الكعبة منها إلا بمعجزة من السماء : بالطير الأبايل التي رمت الجيش الحبشي بحجارة من سجيل ، وكفني أن نشير إلى أن السورة القرآنية التي قصّت علينا هذا الخبر حملت اسم « الفيل » ، وأن العرب أرخت بهذه الغزوة لما ملأ قلوبهم من فزعها .

أما الصورة « الحيوانية » الثانية فهي التي أراد أن يصور فيها هيئة الرسول ﷺ وما كان يخشاه من انتقامه ، بل من موقفه أمامه وهو في موضع المساءلة والامتحان ، فهو يرى أن مثل هذا الموقف أشد من لقاء أسد ضار كامن في غيضة « عثر » الملتفة الشجر ، وهو أسد لا يبحث عن صيد لرزقه فحسب ، بل كذلك لرزق شبليين له لا طعام لهما إلا من لحم من يمر في طريقهما من المسافرين أو من ضروب الحيوان ؛ ولهذا فإن الناس ولا سيما الرجال منهم يعملون على تجنب الاقتراب من عرينه ، أما حمير الوحش فإنها إذا اقتربت من واديه حبست أنفاسها وظلت ساكنة حتى لا تستثيره . ومع ذلك فلا يخلو الأمر من جاهل بأمره أو مقرب في الثقة بنفسه ، يوقعه سوء حظّه في المرور بفيل ذلك الأسد ، فإذا به فريسة سهلة لا يبقى منها إلا ثياب وخرق ممزقة .

ويختم كعب قصيدته بأبيات يمدح فيها الرسول ، ويخص المهاجرين بالثناء ، ويشير إلى خروجهم من مكة إلى المدينة ، لا خوفاً ولا تهيباً للقتال ؛ فهم أبطال متمرسون بالمعارك ، يقون أجسادهم بدروع ضافية مجدولة الحلق ، فإذا ساروا إلى الحرب مشوا في قوة وشموخ ، ولهم من رباطة الجأش وثبات الجنان ما يجعلهم وقورين ، لا يستخفهم الانتصار على الأعداء ، ولا يجزعون إذا أصابهم قرح ، وهم دائماً يقبلون على القتال ولا يؤلون الأدبار ؛ ولهذا فإن الطعن لا يقع إلا في صدورهم . ولا يخلي الشاعر آخر قصيدته من تعريض بالأنصار ؛ إذ إنهم كانوا يريدون إيقاع الرسول به ، وعلينا ألا ننسى أن

خُصومته للخزرج قديمة ، فقد مرّ بنا أن في شعره الجاهلي هِجاءً للخزرج :

إِنَّ الرُّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سَيْوِفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ يَبْطُنُ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا : زَوَّلُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَاذِلُ
شُمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالَ لُبُوسُهُمْ مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَائِيلُ
بَيْضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ كَانَتْهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ
يَمْشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرُ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَائِيلُ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِعًا إِذَا نِيلُوا
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ مَا إِنَّ لَهُمْ عَنْ حِيَاظِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ^(١)

ولكعب شعر إسلامي آخر قاله غير قصيدته هذه ، منه - مما يتصل بها -
قطعة قالها ترضيةً للأنصار بعد تعريضه بهم في مِدْحَتِهِ لِلرُّسُولِ ﷺ ، ذلك أن
المهاجرين أنفسهم - بفضل مبادئ الأخوة التي غرسها الرسول بينهم وبين
إخوانهم - قد شقَّ عليهم أن يُعرَّضَ بالأنصار فيسميهم « السُّودُ التَّنَائِيلُ » ،
فحينئذ صنع كعب أبياتاً نورد منها قوله :

مَنْ سَرَّهُ كَرَّمَ الْحَيَاةَ فَلَا يَزَلْ فِي مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ
تَرْنُ الْجِبَالِ رَزَانَةً أَحْلَامُهُمْ وَأَكْفُهُمْ خَلْفَ مِنَ الْأَمْطَارِ

(١) السيف للمهَنَّد : المطبوع من حديد الهند ، وهو أجود السيوف ، زولوا : هاجروا وانتقلوا من مكة ، يريد
إجبار مشركي مكة مَنْ أَسْلَمَ عَلَى الْهَجْرَةِ ، أَنْكَاسٌ : جمع نَكَسَ وهو الضميف ، الْكُشْفُ : الذين
ينكشفون ، أي يهزمون عند اللقاء ، مِيلٌ : مائلون ، معاذيل : جمع مِيزَال وهو الأعزل ، العرانيين : جمع
عَرْنَيْن وهو الأنف ، سرائيل : أي ثياب ، ومن نسج داود : يعني دروعهم من الحديد ، سوابغ : ضافية ،
شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ : أدخل بعض حلقها في بعض ، الْقَفْعَاءُ : بَقْلَةٌ رملية لها ورق وتَمَرٌ مثل حَلَقِ الدَّرُوعِ ،
الزُّهْرُ : البيض ، عَرَدَ : قَرَّ وجَّهٌ ، التَّنَائِيلُ : جمع تَبَال وهو القصير اللقيم ، مَجَازِيعُ : جزوعين ، تهليل :
هُرُوبٌ وفرار .

وَالذَّائِدِينَ النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ بِالْمَشْرِفِيِّ وَبِالْقَنَا الْخَطَّارِ
وَالْبَاذِلِينَ نَفُوسَهُمْ لِإِنِّيهِمْ يَوْمَ الْهَيَّاجِ وَسَطَوَةِ الْجَبَّارِ^(١)

وهو شعرٌ تمتزج فيه القيمُ الإسلامية ببعض ما هو موروث عن التقاليد الجاهلية في المديح . على أن الروح الإسلامية تبدو على نحوٍ أجلى في أبياتٍ يقولها بعد أن أسلم وحسن إسلامه وصلح شأنه ، فركب إلى قومه يدعوهم لمتابعته ، وكان في قومه بعض الخلاف ، إذ أسلم منهم كثيرون وبقي بعضهم على شركه :^(٢)

رَحَلْتُ إِلَى قَوْمِي لِأَدْعُو جَلَّهُمْ إِلَى أَمْرِ حَزَمٍ أَحْكَمْتَهُ الْجَوَامِعُ
لِيُؤْفُوا بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا يَخِيفُ مِنِّي وَاللَّهِ رَأْيَ وَسَامِعُ
وَتُوَصَّلَ أَرْحَامَ وَيُفَرَّجَ مُغْرَمَ وَتَرْجَعَ بِالْوُدِّ الْقَدِيمِ الرَّوَاجِعُ
فَأُبْلَغَ بِهَا أَفْنَاءَ عُثْمَانَ كُلِّهَا وَأَوْسًا قَبْلُغَهَا الَّذِي أَنَا صَانِعُ
سَادَعُوهُمْ جُهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَالتَّقَى وَأَمْرٍ الْعَلَا مَا شَايَعَتْنِي الْأَصَابِعُ
فَكُونُوا جَمِيعًا مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّهُ سَيَلْبَسُكُمْ تَوْبٌ مِنَ اللَّهِ وَاسِعُ
وَقُومُوا فَأَسُوا قَوْمَكُمْ فَاجْمَعُوهُمْ وَكُونُوا يَدًا تَبْنِي الْعَلَا وَقْدَافِعُ^(٣)

وله قطعةٌ أخرى في غزوة حنين والطائف وفتح مكة ، وفيها يقول :^(٤)

(١) المُقَبِّب : الكتبية ، خَلَفَ من الأمطار : الخَلَفَ : ما استخلفت من شيء ، والبدل والعوض ، يريد أنهم كرماء جوادون ، المشرفي : السيف ، الخطَّار : المكنز المهرتز . ديوان كعب ، ص ٢٥-٤١ .

(٢) ديوان كعب ، ص ١١١-١١٢ ، ونسب الأصمعي هذه القصيدة لأوس بن حجر ، وهو أمر مستحيل ؛ لأن أوساً كان جاهلياً بغير شك .

(٣) جَلَّهُمْ : معظمهم ، الخيف : ما ارتفع عن غِلظ الجبل وانحدر عن مسيل الماء ، والناحية ، يريد : ما تعاقدوا عليه في ميثاق ، الجوامع : الأمور ، المقرم : أسير الدين ، أفناء : أخلاط ، وعثمان وأوس من عشائر مزينة قبيلة الشاعر ، وشايعة : تابعه وأبده وأولاه على الأمر .

(٤) ديوان كعب ، ص ٢٤٦-٢٤٧ .

وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَّا مَوَائِقًا عَلَى حُسْنِ التَّصَافِي
فَحَزْنَا بَطْنَ مَكَّةَ وَامْتَنَعْنَا بَتَقَوَى اللَّهِ وَالْبَيْضِ الْخِفَافِ
وَحَلَّ عَمُودُنَا حُجَرَاتِ نَجْدٍ فَآلِيَةَ الْقُدُوسِ إِلَى شَرَافِ
أَرَادُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى إِلَهًا كَفَى بِاللَّهِ دُونَ اللَّاتِ كَافٍ^(١)

على أن « بُرْدَة » كعب هي أشهر شعره على الإطلاق ، بل هي أشهر مدائح الرسول القديمة كلها . وهنا يَبدُر إلى ذهننا هذا السؤال : ما هو سرُّ إعجاب القدماء والمحدثين بهذه القصيدة ؟ وكيف اهتمَّ بها علماء الأدب واللغة ، حتى إن بروكلمان أحصى من شروحها ، ومن بينها شروح بالفارسية والتركية ، خمسة وثلاثين شرحاً ، ومن تَحْمِيسَاتِهَا ثلاثة عشر تَحْمِيسًا ، وعددًا كبيراً من معارضاتها وترجماتها إلى سائر اللغات .^(٢) أ ليس من الغريب أن يكون للرسول ﷺ شعراؤه الذين خاضوا أعنف المعارك دفاعاً عن الإسلام وعن نبيه ، والذين ملأت أشعارهم دواوين كاملة ، ثم لا يظفرون بمثل حظِّ هذه القصيدة التي ليس لكعب من شعره الإسلامي معها إلا ما لا يكاد يُذكر ؟ وهل لقصيدة كعب من المستوى الفنيِّ ما ليس لِمَا نعرفه من شعر كثير في مديح الرسول ﷺ ؟

كلُّ هذه أسئلة لا تسهل الإجابة عنها ، غير أنه لا بأس في أن نطرح بعض التأمُّلات في محاولة لتفسير ما لقيته قصيدة كعب من شهرة وحظوة .

أما من الناحية الفنية فالقصيدة جيِّدة بغير شك ، وكعب يبدو فيها مصوراً من الطراز الأوَّل ، وهو في تَتَبُّعه لأجزاء الصورة واختيار ما يلائمها من ألوان وأصباغ ، يبدو تلميذاً نجيباً لأبيه زهير ، الذي كان يتميز بمثل هذه الصِّفة ، كما يجمعه بأبيه أيضاً دقَّتُه في اختيار الألفاظ والتأنيق البالغ في الصِّياغة . وقد

(١) العمود : هو النخيل الطويل ، آليَّة والقُدُوس وشَرَاف : مواضع في نجد في ديار مُزَيْنَة .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ١٥٦-١٦٢ .

تنبّه القدماء لذلك فسلكوه في المذهب الذي دعوا أصحابه « عبيد الشعر » من أمثال أبيه ، و أوس بن حَجَر ، ثم الحُطَيْيئة من بعده . غير أن هناك شعراً جيداً كثيراً قاله الشعراء المعاصرون لكعب ممن مدحوا الرسول ﷺ ، بل كانوا من شعرائه المقرّبين من أمثال حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وغيرهما .

وقد يميّز هذه القصيدة أنها تنتمي إلى ما سُمّي في الأدب العربي بفنّ الاعتذاريّات ، وهو فنّ يحتاج إلى مقدرة خاصّة يجمع بها الشاعر بين الججاج المُقنّع المستند إلى المنطق والاستثارة العاطفيّة . وقد برع في ذلك النابغة الذبياني الذي اشتهرت قصائده الاعتذاريّة التي توجّه بها إلى النعمان ابن المنذر ، وهي قصائدُ تأثّر بها وتأثّرهما كعب بن زهير ، حتى إنه نقل ألفاظ بعض أبياتها ، كما في قوله : « نُبئتُ أن رسول الله أوعدني » الذي يذكّرنا بقول النابغة : « نبت أن أبا قابوس أوعدني » . غير أننا نعود فنذكر أن كعباً لم يكن الوحيد الذي أتى إلى الرسول تائباً عما أسلفه من قبيح القول ، فقد شاركه في ذلك شعراء عرضنا لهم من قبل ، مثل أبي سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن الزبيري ، وأنس بن زَينم ، غير أن التاريخ لم يُخلّد ذكر أحدٍ من هؤلاء كما خلّد ذكر كعب .

وأما الشعور الديني في القصيدة ، فعلينا أن نعترف بأنه ليس من القوة ، بحيث يؤهلها لما بلغته من شهرة ، فالشاعر حديث عهد بالإسلام ، بل هو لم يُسلم إلا حفاظاً على حياته ، وقد اهتم بتصوير ما تملكه من مشاعر الخوف ، لما كان يتوقّعه من عقوبة ؛ أكثر مما اهتم بالتعبير عن إيمانه بالدين الجديد . وأما مديحه للرسول ، فإنه لا يختلف عما لو كان متوجّهاً به إلى سيد من سادات الجاهليّة . وهناك من شعر الصحابة ما هو أكثر حرارة وإخلاصاً من قصيدة كعب ، فهذه ناحية لا نرى فيها للشاعر تمييزاً خاصاً يسمو بها على غيره .

ولعلنا لا نبعد عن الصَّوَابِ إِذَا رَأَيْنَا أَنَّ هُنَاكَ - إِلَى جَانِبِ جُودَةِ الْقَصِيدَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْفَنِّيَّةِ ، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَنْكَرُ عَلَيْهَا - عَامِلَيْنِ جَعَلَا لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَكَانَةً خَاصَّةً : أَحَدُهُمَا مُتَعَلِّقٌ بِشَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْآخَرُ مُتَعَلِّقٌ بِشَخْصِيَّةِ الشَّاعِرِ .

أَمَّا الْعَامِلُ الْأَوَّلُ ، فَإِنَّهُ يَتِمَثَّلُ فِي سَمَاحَةِ خُلُقِ الرَّسُولِ وَإِنِّثَارِهِ لِلْعَفْوِ عَمَّنْ جَاءَهُ تَائِبًا مَنِيئًا ، فَهُوَ فِي سُلُوكِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ وَأَعْدَائِهِ يُصَدِّقُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » وَيَتَّبِعُ هَدْيَ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أَتْنَى عَلَى : « الْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » ، وَلَا غَرَوَ فَقَدْ كَانَ خُلُقُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقُرْآنَ كَمَا قَالَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ . وَمَا أَكْثَرَ مَا رَوَتْ لَنَا كِتَابُ السَّيْرَةِ مِنْ أَخْبَارٍ حَوْلَ عَفْوِ الرَّسُولِ ﷺ عَمَّنْ اسْتَبَلَعُوا فِي الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ وَإِلَى دَعْوَتِهِ ، وَمِنْهُمْ شُعْرَاءُ كَانَ صَنِيعُهُمْ شَرًّا مِنْ صَنِيعِ كَعْبٍ ، غَيْرَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَتْ الدَّلَالَةُ فِي خَبَرِ كَعْبٍ أَعَمَّقَ مِنْهَا فِي حَالَاتٍ غَيْرِهِ ، فَالرَّسُولُ لَمْ يَكْتَفِ بِالْعَفْوِ عَنْهُ ، بَلْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ وَهَبَهُ مِنَ التَّكْرَمَةِ مَا لَمْ يَتَسَنَّ لْغَيْرِهِ ، فَقَدْ خَلَعَ عَلَيْهِ بُرْدَتَهُ الَّتِي آلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْخُلَفَاءِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذِهِ الْهَيْبَةَ الْجَلِيلَةَ كَانَتْ مِمَّا أَسْبَغَ عَلَى قَصِيدَةِ كَعْبٍ جَلَالًا وَفِيْمَةً خَاصَّةً .

وَأَمَّا الْعَامِلُ الْمُتَعَلِّقُ بِشَخْصِيَّةِ كَعْبٍ فَإِنَّهُ يَتَجَلَّى فِي التَّغْيِيرِ الْكَبِيرِ الَّذِي أَحْدَثَهُ فِيهِ لِقَاؤُهُ لِلرَّسُولِ وَمَا قَابَلَهُ مِنْ إِحْسَانٍ وَتَكْرِيمٍ . فَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ كَانَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ « رَجُلًا شَرِيرًا شَرِسًا مِمْلَاقًا » ، وَكَيْفَ كَانَ سُوءَ خُلُقِهِ مُثِيرًا لِنِزَاعِ كَبِيرٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاتِهِ مِمَّا سَجَّلَهُ فِي شِعْرِهِ ، فَإِذَا بِهِ بَعْدَ لِقَائِهِ لِلرَّسُولِ ﷺ يَسْلَمُ وَيُحْسِنُ إِسْلَامَهُ وَتُصْلِحُ حَالَهُ ؛ حَتَّى كَأَنَّ ذَلِكَ اللَّقَاءَ كَانَ عَصَا سِحْرِيَّةٍ ، حَوَّلَتْ نَوَازِعَ الشَّرِّ فِي هَذَا الرَّجُلِ إِلَى خَيْرٍ مَحْضٍ ، بَلْ إِنَّمَا نَرَاهُ - كَمَا يَشْهَدُ بِذَلِكَ شِعْرُهُ - يَتَحَوَّلُ إِلَى دَاعِيَةٍ يَحْضُرُ قَوْمَهُ عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ ، وَيَدْعُو مُشْرِكِي قَوْمِهِ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ .

حينما نعود إلى إلقاء نظرة عامة على المدائح التي وجهها إلى الرسول ﷺ من عاصره من الشعراء ، فإننا نلاحظ أنها كانت في الغالب قصائد قيلت في عمرة الأحداث التي تتألف منها سيرة الرسول ؛ فهي تسجيل صادق دقيق لتلك الأحداث التي غيرت مسيرة التاريخ ، فالشاعر لم يتح له من السكينة والهدوء ما يسمح له بتأمل عميق لشخصية الرسول واستخلاص العبرة من سيرته وأعماله ، كما سوف نرى في الشعر الذي سوف يتدفق بعد ذلك بقرون . ولعل البعد الزمني كان أكثر عوناً للشعراء المتأخرين على ذلك التأمل العميق، وعلى صبغ شعرهم بصبغة روحية متسامية ، قد نفتقدها في تلك المدائح الأولى .

وسنرى كيف تتوقف المدائح النبوية خلال فترة طويلة ، حتى تعود إلى الظهور في صورة جديدة متوهجة منذ القرن الخامس ، وكأنها جذوة كامنة تحت رماد الأحداث التي مرت على الأمة الإسلامية ، ثم عادت بعد ذلك إلى التوقد من جديد .

الفصل الثاني

المدائح النبوية في شعر الشيعة

ربما بدا من المفارقات الغريبة أن عودة الشعراء إلى تأمل سيرة الرسول ﷺ وتعداد شمائله ، لم تعد من الموضوعات التي تشغلهم في الوقت الذي رَسَخَتْ فيه دعائم الإسلام ، وامتدَّ نوره إلى خارج الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول ، وعلى عهد الخلفاء الراشدين ، ثم من تَلاهم من خلفاء بني أمية وبني العباس . لم يَعم ذلك ضعفاً في الإيمان ولا تراجعاً في نظرة الإجلال ، التي كان المسلمون ينظرون بها إلى شخصية النبي ؛ وإنما شغلت المسلمين أحداث كبرى تبدأ بحروب الردة ، ثم الفتوح الإسلامية ، وما أعقبَ ذلك عند قيام دولة بني أمية من أحداث هائلة ، منها الصراع الدائر بين الأحزاب السياسية المذهبية من أمويين ، وشيعة ، وخوارج ، وزُبيريين ، وبين العرب والموالي من فُرس أو بربر ، وبين القبائل نفسها بعد أن عملت سياسة الأمويين على إثارة العصبية القبليّة .

أمّا الشعر فقد كان في كل ذلك ما يشغله ويستغرقه ، وأصبح الشعراء إما موزعين على هذه الفرق السياسية المذهبية ، التي نشأت على أثر الخلاف بين علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان ، أو متخرطين في معارك قبليّة أجزّت على ألسنتهم سيلاً من المساجلات أو النقائض ، بما تحفل به من فخر وهجاء على الطريقة الجاهلية القديمة ، و وضع فريق من الشعراء أنفسهم في خدمة السلطان ، متوجّهين بمدائحهم إلى الخلفاء أو عمّالهم على الأمصار ، فاتّجّه الشعر إلى أن يصبح حِرْفَةً يَتَكَسَّب بها الشعراء ، ومنذ ذلك الوقت

أصبح المديح هو الغرضَ الغالب على الشطُر الأكبر من الشعر العربي .
 من أجل كل ذلك أصبح الشعراء مشغولين عن الالتفات إلى شخصية
 الرسول ﷺ وتأمل سيرته وأعماله ؛ فقد صرفتهم عن ذلك السياسة والعصبيات
 والتكسب بالشعر ، أو أغراض دنيوية أخرى مثل الغزل بأنواعه . أما سيرة
 الرسول فلم تعد مما يهتم به الشعراء إلا فيما يخدم الأغراض الأخرى التي
 ينظمون فيها ، وإنما توفّر عليها العلماء من فقهاء أو محدّثين أو مؤرّخين . أمّا
 الفقهاء فقد كانوا يتتبعون أقوال الرسول وأعماله حتى يستخلصوا منها تشريعاً
 تقوم عليه حياة المجتمع الإسلامي ، سواء في عباداته أو في معاملاته . وأمّا
 المحدّثون فقد كان هدفهم جمع الأحاديث النبوية ، والحفاظ عليها ، وتمييز
 صحيحها من زائفها . وأمّا المؤرّخون فقد كانت سيرة الرسول أوّل ما يحظى
 بعنايتهم ؛ لأنها مفتّحة التاريخ الإسلامي .

وليس معنى ما نقوله أن الروح الدينيّ خبا في نفوس الأمة ، بل ظلّ
 محرّكاً رئيسياً لحياة الناس بما فيهم الشعراء ؛ فكثيراً ما نجد في الشعر
 الإسلاميّ والأمويّ إشارات متناثرة إلى هذا الحدث أو ذاك من سيرة الرسول ،
 ولكنّا لا نرى من بين الشعراء من اتّخذ هذه السيرة موضوعاً رئيسياً يتوقّف عليه .
 ولعلّ أكثر الشعراء ارتباطاً بشخصية الرسول واستلهاماً لها هم شعراء الشيعة ،
 فقد كانوا يعتبرون الخلافة حقاً خالصاً لآل بيت الرسول ، ويعدّون خلفاء بني
 أمية ثم بني العباس مغتصبين للخلافة ، وإن كانوا ينتمون إلى قريش . وقد أتى
 مقتل الحسين بن عليّ سيّط رسول الله ﷺ في العاشر من محرّم سنة إحدى
 وستين للهجرة في كربلاء ، فألهب العواطف وأثار مشاعر المسلمين في
 كلّ مكان ، وأصبحت مرثي الحسين تحتلّ مساحة كبيرة من الشعر الشيعيّ ،
 وكان من الطّبيعيّ أن يتّصل بهذا الموضوع الحديث عن فضائل آل بيت
 الرسول ، إلى جانب الاحتجاج لِحَقّ عليّ (رضه) ونسله من بعده في الخلافة .
 وقد اقتضى هذا الشعر إشارات عديدة إلى ملامح من حياة الرسول ﷺ ، ولا سيّما

في صلاته يربيه وابن عمه ووصيه في نظر الشيعة ، وبابنته فاطمة زوج علي وبسيطه منهما ؛ الحسن والحسين « سيدي شباب أهل الجنة » .

الكُميت بن زيد

ولعل من أول شعراء الشيعة الذين نجد لديهم عودة إلى المديح النبوي : الكُميت بن زيد الأسدي (عاش بين سنتي ٦٠ و ١٢٦هـ) ^(١) ، ومديحه لآل البيت تنتظمه ست قصائد مطوّلة عُرفت بالهاشميات وطبعت على حدة ، وهي تعدّ أقوى ما نظمه شاعر شيعي في عصر بني أمية ، وتتميز بصدق العاطفة وبراعة الاحتجاج لحق آل علي في الخلافة .

أما حبه لآل بيت الرسول ﷺ فإنه يعبر عنه في حرارة وإخلاص ، تشهد بهما هذه الأبيات الأولى من بائيته المشهورة : ^(٢)

طَرَبْتُ وما شَوْقًا إلى البيضِ أَطَرَبُ ولا لِعِبا مِنِّي ودُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ
لَمْ يُلْهِنِي دَارٌ ولا رَسَمٌ مَنَزِلٍ ولم يَتَطَرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبٌ

.....

ولَكِنْ إلى أَهْلِ الفَضَائِلِ والتَّقَى وخَيْرُ بَنِي حَوَاءَ والخَيْرُ يُطَلَّبُ
إلى النِّفَرِ البيضِ الذينَ يَحِبُّهُمْ إلى اللَّهِ فيما نَابَنِي أَتَقَرَّبُ
بَنِي هاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فَإِنِّي بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضَى مِرَارًا وأَغْضَبُ

ومن هذه القصيدة في الاحتجاج لآل البيت وإثبات حقهم في الخلافة :

وقَالُوا : وَرَثَتُهَا أَبَانَا وَأَمْنَا وما وَرَثَتُهُمْ ذَاكَ أَمْ وَلَا أَبُ
ولَكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ أَمِنَةَ الَّذِي بِهِ دَانَ شَرْقِيٌّ لَكُمْ وَمَغْرِبُ

(١) عن الكُميت انظر العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ، ص ٣٢٣-٣٢٩ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ج ١ ، ص ٢٤٢-٢٤٤ ، وأدب الشيعة للدكتور عبد الحسيب طه حميدة ، ص ٣٠٦-٢٢٩ . (٢) الأغاني لأبي الفرج ، ج ١٧ ، ص ٢٨-٢٩ .

يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْ لَا تَرَاهُ لَقَدْ شَرَكْتَ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلَحْ لِحَيٍّ سِوَاهُمْ فَإِنَّ ذَوِي الْقُرْبَىٰ أَحَقُّ وَأَقْرَبُ ^(١)

فهو يجادل بني أمية في ادعائهم ميراث الرسول بحكم كونهم من قريش ، فيقول إنه إذا كانت الخلافة حقا وراثيا فالهاشميون أقرب نسبا إلى الرسول من بني أمية ، أما من يحتجون بأن الخلافة لا تورث فإنه لو صحَّ ذلك ، لكان من حق أي قبيلة عربية أن تطالب بها ، حتى تلك البعيدة عن نسب الرسول ، مثل هاتين القبيلتين اليمينيتين .

وتمضي هاشميات الكميت على هذا النحو من الضرب على الورع العاطفي من ناحية ، والحجاج العقلي من ناحية أخرى ، على أن الذي يهمنا من هذه القصائد هو ما تضمنته من مديح الرسول أو رثائه . ولعل الكميت هو أول من عاد إلى مثل هذا الموضوع بعد مضي قريب من قرن من وفاة الرسول . فنحن نراه يقول في هاشميته البائية الثانية :

فَاعْتَبَبَ الشُّوقُ مِنْ فُؤَادِي وَالشَّـ سَرَّ إِلَى مَنْ إِلَيْهِ مُعْتَبَبُ
إِلَى السَّرَاجِ الْمُنِيرِ أَحْمَدُ لَا تَعْدِلْنِي رَعْبَةً وَلَا رَهَبُ
عَنَّهُ إِلَى غَيْرِهِ وَلَوْ رَفَعَ النَّاسُ إِلَيَّ الْعُيُونَ وَارْتَقَبُوا
وَقِيلَ أَفَرُطْتَ بَلْ قَصَدْتُ وَلَوْ عَنَّفَنِي الْقَائِلُونَ أَوْ ثَلَبُوا
إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ تَضَمَّنْتَ الـ أَرْضُ وَلَوْ عَابَ قَوْلِي الْعَيْبُ
لَجَّ بِتَفْضِيلِكَ اللِّسَانُ وَلَوْ أَكْثَرَ فِيكَ اللِّجَاجُ وَاللَّجَبُ
أَنْتَ الْمُصَفَّى الْمُحَضَّرُ الْمُهَذَّبُ فِي النَّـ سَبَةِ إِنْ نَصَّ قَوْمُكَ النَّسَبُ

وقد أورد الجاحظ هذه الأبيات في كتابين من كتبه ، وعلق عليها منتقداً

(١) ابن أمية : يعني به الرسول ﷺ ، بكيل وأرحب : قبيلتان يمينيتان .

الكميت ، إذ قال : « ومن غرائب الحُمق المذهب الذي ذهب إليه الكُميت ابن زيد في مديح النبي ﷺ ... الأبيات ، فَمَنْ رأى شاعراً مدح النبي ﷺ فاعتَرَضَ عليه واحدٌ من جميع أصناف الناس ؛ حتى يزعم هو أن أناساً يعيبونه ويثلبونه ويُعَنِّفُونَهُ ؟ »^(١)

ولو أن شعر الكميت أخذ على ظاهره لكان نقد الجاحظ في موضعه ، فليس من المعقول أن يعيب مسلم شاعراً يمدح الرسول أو يُعَنِّفَهُ ، غير أن وراء أبيات الكميت سرا كشفه لنا الشريف المرتضى في نصٍ سنعرض له بعد قليل . ولم يكتفِ الكميت في هاشمياته بمديح الرسول ، بل نراه يقوم برثائه أيضاً، من ذلك بيتان في آخر بائيته الأولى :

قَبْرُكَ قَبَّرْتُ فِيهِ وَبُورَكَتْ به و لَهُ أَهْلٌ بِذَلِكَ يَثْرِبُ
لَقَدْ غَيَّبُوا بِرَا وَحَزَمًا وَنَائِلًا عَشِيَّةً وَارَاهُ الصَّفِيحُ الْمُنْصَبُ

وهو يعني بذلك قبر الرسول ﷺ يثرب أي المدينة . وانتقد الجاحظ أيضاً هذا الرثاء ، فقال : « إن هذا شعر يصلح في عامة الناس »^(٢)

أما دفاع الشريف المرتضى عن الكُميت فيقوم على أن الشاعر لم يُرد النبي حينما قال إن هناك من يُعَنِّفُهُ على مدحه ، وإنما قصد مديحه لعلي بن أبي طالب ، فورى عنه بذكر النبي خوفاً من بني أمية^(٣) . ونحن نعرف أن من مبادئ الشيعة ، التقيّة أي المداواة حفاظاً على النفس .

على أننا نرى أن الجاحظ مُحِقٌّ في نقده لبيت الكميت في الرثاء ، وذلك إذ قال إن وصف الرسول بالبرِّ والحزم والكرم من المديح المُبْتَدَل ، الذي قد

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ، والحيوان ، ج ٥ ، ص ١٧٠ ، والتعليق المذكور ورد في البيان ، وكرر الجاحظ هذا النقد بعبارة أخرى في الحيوان . واعتب : انصرف ، ثلثوا : عابوا ، العيب : العائبون . ليج : لازمه وأبى أن ينصرف عنه ، واللجب : كثرة الأصوات والنقاش .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ . (٣) أمالي الشريف المرتضى ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

يُمدح به عامة الناس ، فنحن لا نحسُّ في البيتين بما كان ينتظر من تسام روجي .

على أن الكمية في هاشميته الميمية كان أكثر توفيقاً في رثائه للرسول ﷺ إذ يقول في معرض الحديث عن آل البيت :

أَسْرَةُ الصَّادِقِ الْحَدِيثِ أَبِي الْقَا	سِمِ قَرَعِ الْقَدَامِيسِ الْقُدَامِ
خَيْرَ حَيٍّ وَ مَيِّتٍ مِنْ بَنِي آ	دَمَ طَرَا : مَأْمُومِهِمْ وَالْإِمَامِ
كَانَ مَيِّتًا جِنَازَةً خَيْرَ مَيِّتٍ	غَيْبَتُهُ مَقَابِرُ الْأَقْوَامِ
وَجَنِينًا وَمَرْضَعًا سَاكِنَ الْمَهْدِ	لِدِ وَيَعْدُ الرِّضَاعِ عِنْدَ الْفِطَامِ
خَيْرَ مُسْتَرْضِعٍ وَخَيْرَ قَاطِمٍ	وَجَنِينَ أَقْرَ فِي الْأَرْحَامِ
وَعَلَامًا وَنَاشِئًا ثُمَّ كَهْلًا	خَيْرَ كَهْلٍ وَنَاشِئٍ وَعُلاَمِ
أَنْقَذَ اللَّهُ شُلُونًا مِنْ شَفَا النَّا	رِ بِهِ نِعْمَةً مِنَ الْمُنْعَامِ
لَوْ قَدَى الْحَيِّ مَيِّتًا قُلْتُ : نَفْسِي	وَبَنِي الْفِدَا لِيْلِكَ الْعِظَامِ (١)

فإلحاح الشاعر على تأكيد أفضلية الرسول على كل خلقه في جميع مراحل حياته ؛ منذ كان جنيناً حتى اكتهاله ، ثم تفديته له بنفسه وبنيه ، كل ذلك ينبض بحرارة وصدق واضحين ، حتى إننا نجد تعبيره عن حبه للرسول وكأنه تمهيد لما سوف نراه في شعر المتصوفة من روحانية وشفافية ، ونلاحظ أيضاً تأثر الشاعر بالتعابير القرآنية ، فالبيت السابع يكاد يكون نظماً لقوله تعالى : « واذكروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » (آل عمران ، آية ١٠٣) .

وهناك ظاهرة نعتقد أنها جديدة مرتبطة بشعر الكمية في مدح الرسول ﷺ

(١) القداميس : السيد الشريف ، والقُدَام : المُقَدَّم ، الشُّلُو : عضو الإنسان بعد البلى والتفريق ، المنعام : الكثير الإنعام .

وآله ، وهي ظاهرة الرؤى التي يرى فيها الرسول مُبَشِّرًا بغفران ذنوب الشاعر جزاءً له على مديحه ، وسنرى كيف ستشيع تلك الرؤى المتعلقة بقصائد المديح النبوي في العصور المتأخرة ، وهي تدلُّ على مدى تأثير ذلك الشعر في نفوس الناس مما جعلهم يتبركون به . وقد ساق لنا أبو الفرج ثلاث رؤى من هذا القبيل في ترجمته للكميت ؛ يروي الأولى منها الشاعر الشيعي دِغِيل الخزاعي ، فيقول إنه رأى الرسول ﷺ في النوم فقال له : « ما لك وللكميت ابن زيد ؟ » (يعني ما قاله الكميت من شعر يهجو فيه اليمينية ومناقضة دِغِيل له) فقال : « يا رسول الله ، ما بيني وبينه إلا كما بين الشعراء . » فقال الرسول : « لا تفعل ! أليس هو القاتل :

فلا زلتُ فيهم حيث يتهمونني ولا زلتُ في أشياعهم أثقلُ

فإن الله قد غفرَ له بهذا البيت . » ويقول دِغِيل بعد ذلك : « فانتهيت عن الكميت بعدها . »

والرؤيا الثانية منسوبة لرجل أسدي يقول فيها إنه رأى الرسول ﷺ فسأله إن كان من بني أسد ، وإن كان يعرف الكميت فقال له : « عمي ومن قبيلتي . » فسأله إن كان يحفظ شيئاً من شعره ، فأنشده قصيدته البائية : « طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب . » فلما أنشده إياها قال له : « إذا أصبحت فاقراً عليه السلام ، وقل له : « قد غفر الله لك بهذه القصيدة . »

والرؤيا الثالثة يرويها المؤرخ الشيعي نصر بن مزاحم المقرئ ويقول فيها إنه رأى الرسول ﷺ وبين يديه رجل ينشده :

مَنْ لِقَلْبٍ مُتِّمٍ مُسْتَهَامٌ غَيْرَ مَا صَبَوَةٍ وَلَا أَحْلَامُ

(وهي القصيدة التي اقتطعنا بعض أبياتها في رثاء الرسول منذ قليل) . قال نصر : « فسألت عنه ، فقبل لي : « هذا الكميت بن زيد الأسدي . »

فجعل النبي ﷺ يقول له : « جزاك الله خيراً » وأثنى عليه .^(١)

الحزين الكِنَانِي

يَنسَب ابنُ خَلْكَان إلى الشاعر الأمويِّ المشهور ، الفرَزْدَق ، قصيدةً مِيميَّة في مدح علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، قال في تقديمه لها : « إنها مَكْرُمة يُرَجى له بها الجَنَّة » ، ويقول في مناسبتها : « إن هشام بن عبد الملك لما حَجَّ في أيام أبيه ، طاف وجهَدَ أن يصل إلى الحجر الأسود لِيَسْتَلِمَه ، فلم يستطع لكثرة الزحام ، فنَصِبَ له منبرٌ وجلس عليه ينظر إلى النَّاس ، فبينما هو كذلك إذ أقبل زينُ العابدين عليُّ بن الحسين ، فطاف بالبيت . فلما انتهى إلى الحجر تَنَحَّى له النَّاس حتى استلم ، فقال رجلٌ من أهل الشَّام من أصحاب هشام : « من هذا الذي هابه النَّاس هذه الهيئة ؟ » فقال هشام : « لا أعرفه . » وكان الفرزدق حاضراً فقال : « أنا أعرفه . » ثم أنشد :

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِفُهُ
وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ

إلى آخر القصيدة .^(٢)

والقصيدة من أروع شعر المديح ، والشاعر يُشيد فيها بالإمام علي زين العابدين وينسبه المنتمى إلى الشجرة النبوية المباركة ، ونقرأ فيها هذه الأبيات بعد المطلع :

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلُّهُمْ	هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قَرِيشٌ قَالَ قَاتِلُهَا :	إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يَنْمِي إِلَى ذِرْوَةِ الْعِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ	عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ الْإِسْلَامِ وَالْعَجَمُ
يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ	رُكْنُ الْحَاطِئِينَ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
فِي كَفِّهِ خَيْرَ رَأَى رِيحُهُ عَيْقُ	مِنْ كَفِّ أَرَوَعٍ فِي عَرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَسَمُّ
يَنْشَقُّ نُورَ الْهُدَى عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الظُّلُمُ
مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ طَابَتْ عَنَاصِرُهُ وَالْخَيْمُ وَالشَّيْمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
اللَّهُ شَرَفُهُ قَدَمًا وَعَظَمُهُ جَرَى بِذَلِكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ

.....

مِنْ مَعْشَرِ حُبِّهِمْ دِينَ وَيُغْضُهُمْ كُفَّرَ وَقُرْبُهُمْ مَنَحَى وَمُعْتَصَمُ
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التَّقَى كَانُوا أَيْمَنَهُمْ أَوْ قِيلَ : مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ قِيلَ : هُمْ
لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادُ بَعْدَ غَايَتِهِمْ وَلَا يُدَانِيهِمْ قَوْمٌ وَإِنْ كَرُمُوا

.....

مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرَهُمْ فِي كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتَوِمٍ بِهِ الْكَلِمُ
يَأْبَى لَهُمْ أَنْ يَحُلَّ اللَّثْمُ سَاحَتَهُمْ خَيْمٌ كَرِيمٌ وَأَيْدٍ بِالْأَيْدَى هُضْمُ
أَيُّ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ لِأُولِيَّةٍ هَذَا أَوْ لَهُ نَعْمُ
مَنْ يَعْرِفِ اللَّهَ يَعْرِفُ أُولِيَّةَ ذَا وَالَّذِينَ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الْأَمَمُ ^(١)

ويقول ابن خلكان بعد إيراده القصيدة : « إِنَّ هِشَامًا غَضِبَ عِنْدَ سَمَاعِهَا فَأَمَرَ بِجَسِّ الْفَرَزْدَقِ ، وَأَنْفَذَ لَهُ زَيْنُ الْعَابِدِينَ اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، إِلَّا أَنَّ الشَّاعِرَ رَدَّهَا وَقَالَ : « مَدَحْتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى لَا لِلْعَطَاءِ . » فَقَالَ : « إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ إِذَا وَهَبْنَا شَيْئًا لَا نَسْتَعِيدُهُ . » فَقَبِلَهَا . »

وفي القصيدة - كما يقول الدكتور زكي مبارك ^(٢) - « نَفَحَاتٍ مِنْ

(١) الحطيم : بناءٌ قُبَالَةَ الْمِيزَابِ مِنْ خَارِجِ الْكُفَيْةِ ، يَسْتَلِمُ : يُقْبَلُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ ، عَيْقُ : طَلَبُ الرَّاحَةِ ، أُرُوعُ : مَاجِدٌ ، الْعَرَيْنَيْنِ : عَظَمُ الْأَنْفِ ، النَّبْعَةُ : نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ ، وَيُقَالُ هُوَ مِنْ نَبْعَةِ كَرِيمَةٍ أَيْ مَاجِدِ الْأَصْلِ ، الْخَيْمُ : كَرَمُ الْخَلْقِ ، قَدَمًا : فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ ، أَيْدٍ هُضْمٌ : تَجُودُ بِمَا لَدَيْهَا .

(٢) المدايح النبوية ، ص ٦٢ .

التصوف ، فالشاعر يَقْرِن شكر الله بشكر آل الرسول ، ويرى أن حبهم دين وبغضهم كفر ، وتلك أقصى غايات الصّدق في الحب . كذلك نرى فيها كثيراً من المعاني التي سيتداولها شعراء الصوفية ، مثل قوله إن ذَكَرَ الرسول ﷺ وآله وتشريفهم ، سَبَقَ به القلم في اللوح المحفوظ ، وإن معرفتهم إنما هي من معرفة الله .

وتبقى بعد ذلك نسبة الأبيات ، وهو أمر مُشْكِل ؛ فابن خلكان يُثبتها للفَرزدق ، وقد قِيلَ هذه النسبة بعض مؤرخي الأدب المتأخرين ، مثل زكي مبارك ^(١) وهرókلمان ^(٢) . غير أن أبا الفرج الإصفهاني اضطرب في نسبتها فقال إن هناك من ينسبها لداود بن سَلم في قُتَم بن العباس ، أو لخالد بن يزيد فيه ، على أنه بعد ذلك قال إن الصحيح هو أنها للحزين الكِناني ، وهو عمرو ابن عُبَيْد الدَّيْلي ، وقيل إنه قالها في عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، أو في عبد العزيز بن مروان ^(٣) .

والأرجح أنها للحزين الكِناني وأنها قيلت في علي زين العابدين ؛ لأن ما ورد فيها من أوصاف لا يَتَّفِق مع ما هو معروف عن أمراء بني أمية ، بل هو أقرب إلى أن يكون في أئمة الشيعة . أمّا نسبتها إلى الفرزدق فقد أنكرها أيضاً الدكتور شوقي ضيف ^(٤) ، مستنداً إلى أنها تخالف نَسَج شعر الفرزدق ، كما تخالف نَفْسِيَّتَهُ ؛ إذ كان لا يتعصّب لشيء سوى قبيلته .

السيد الحميري

هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري ^(٥) (عاش بين

(١) نفس المرجع ، ص ٥٨ . (٢) تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ٢١١ . (٣) الأغاني ، ج ١٥ ، ص ٣٢٦-٣٢٩ . (٤) العصر الإسلامي ، ص ٢٧٣ . (٥) عن السيد الحميري انظر تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص ٣٠٩-٣١٤ ، وهرókلمان ، ج ٢ ، ص ٦٨-٦٩ ، وقد جمع ديوانه شاكر هادي شكر ، بيروت ، وأفردت بالنشر قصيدته الملهبة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع شرحها للشريف المرتضى ، بيروت ١٩٦٩ .

سنتي ١٠٥ و ١٧٣) وعاش بين البصرة والكوفة ، وكان من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، بدأ حياته منتصفاً إلى فرقة الشيعة الكيسانية القائلين بإمامة محمد بن الحنفية ، وناصر الثورة العباسية على الأمويين ، ومدح خلفاءهم الأولين ، ولكنه انتقل بعد ذلك إلى مذهب الإمامية الاثنا عشرية ، وظلّ مخلصاً له حتى وفاته . وكان من علالة الشيعة ، ويكاد ما وصل إلينا من شعره - وقد جمع في ديوان - يكون كله في مديح آل البيت وهجاء خصومهم .

وتبرز في ديوان السيد قصيدة طويلة تبلغ مائة وسبعة عشر بيتاً ، تعدّ من أجود شعره ، حتى إنها لقبت بالقصيدة المذهبة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وقد لقيت من أدباء الشيعة عناية خاصة ، فكان من بين من قاموا بشرحها الشريف المرتضى ، علي بن محمد الموسوي ، وهو يفتتحها بقوله :

هَلَا وَقَفْتُ عَلَى الْمَكَانِ الْمُعْشَبِ بَيْنَ الطُّوَيْلِيقِ قَالِئِي مَنْ كَبَّكَ

وهي أشبه بملحمة يتتبع فيها الشاعر سيرة علي بن أبي طالب (رضه) ومناقبه ، وما تُنسب إليه من خوارق وكرامات ، ويحتج لحقه هو وذريته من بعده في الخلافة ، على أن الحديث عن آل البيت وعن فضائل علي وزوجه فاطمة بنت الرسول ﷺ لا يمكن أن يفصل عن سيرة النبي ، ولذلك نجده يعرض لبعض ملامح هذه السيرة ، كما نرى في هذه الأبيات التي يروي فيها عشية هجرة الرسول من مكة ، حينما رقد علي في فراشه حتى يموت على من اتّمروا بالرسول ﷺ من قريش وكانوا يعتزمون قتله :^(١)

صَهْرُ النَّبِيِّ وَجَارُهُ فِي مَسْجِدِ طَهْرٍ بِطَيْبَةِ لِلرَّسُولِ مُطِيبٌ
سَيَّانٍ فِيهِ عَلَيْهِ غَيْرُ مُدَمِّمٍ مَمَشَاهُ إِنْ جُبَّأَ وَإِنْ لَمْ يُجَنَّبِ
وَسَرَى بِمَكَّةَ حِينَ بَاتَ مَيِّتُهُ وَمَضَى بِرَوْعَةٍ خَائِفٍ مُتَرَقِّبِ

خَيْرَ الْبَرِيَّةِ هَارِبًا مِنْ شَرِّهَا بِاللَّيْلِ مُكْتَمًا وَلَمْ يَسْتَصْحِبِ
بَاتُوا وَبَاتَ عَلَى الْفِرَاشِ مُلْقَمًا قَيَّرُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَذْهَبِ
حَتَّى إِذَا طَلَعَ الشَّمِيطُ كَانَتْهُ فِي اللَّيْلِ صَفْحَةً خَدَّ أَدْهَمَ مُغْرِبِ
نَارُوا لِأَخَذِ أَخِي الْفِرَاشِ فَصَادَفَتْ غَيْرَ الَّذِي طَلَبْتَ أَكُفُّ الْخَيْبِ
وَتَرَا جَعُوا لَمَّا رَأَوْهُ وَعَايَنُوا أَسَدَ الْإِلَهِ مُجَالِدًا فِي مَنَهَبِ
فَوْقَاهُ بَادِرَةَ الْحَتُوفِ بِنَفْسِهِ حَذَرَكَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدُوِّ الْمُجْلِبِ^(١)

والسيد ينظم في البيتين الأولين خبراً يروى عن أم سلمة قالت فيه : « خرج
النبي إلى المسجد فنادى بأعلى صوته ثلاثاً : « ألا إن هذا المسجد لا يحل
لجنب ولا لحائض إلا لرسول الله ﷺ وأزواجه وعلي وفاطمة بنت محمد
ﷺ » وذلك حينما أمر بسد أبواب المسلمين الشارعة إلى المسجد ، فيما عدا
الباب الموصل بين دار علي وفاطمة .^(٢)

ثم يروي في الآيات التالية قصة مبيت علي في فراشه (عليه السلام) حين
عزم على الهجرة إلى مكة ، وكان المشركون قد تواعدوا على الإيقاع به ،
فتلفع علي ببرده . وتقول المصادر الشيعية إن المشركين حينما فطنوا إلى علي ،
نائماً مكانه هموا بقتله ، ولكنه وأثبهم بسيفه وأنجاه الله منهم . وهم يقولون
إن صنيع علي في هذا الموقف ليس بأقل من استسلام إسماعيل عليه السلام
لأبيه ، حين رأى أنه يذبحه .^(٣)

ويتحدث السيد الحميري في الآيات التالية عن هجرة الرسول ﷺ وخروجه
من مكة ولجؤه إلى غار ثور ، ثم تعقب المشركين له حتى انتهوا إلى باب

(١) طيبة : اسم مدينة الرسول ﷺ ، الشميط : الصبيح عند اختلاط بياضه بقيتي ظلمة الليل ، منهب : ضرب
من الركض ، المجلب : من أجلب الرجل ، إذا سمعت له صياحاً يقوم يستعين بهم على حرب .

(٢) شرح القصيدة الملتبة ، ص ١٢٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٤-١٢٥ .

الغار، ثم ما أكرم الله به نبيه حينما رأوا نسج العنكبوت على مدخل المغارة ؛
فأشعرهم ذلك بأنه لم يلجئه والنج وانصرفوا عنه خائبين :

صَلَّى إِلَهِ عَلَيْهِ مِنْ مُتَغَيِّبٍ	حَتَّى تَغَيَّبَ عَنْهُمْ فِي مَدْخَلٍ
أَدَّى رِسَالَتَهُ وَلَمْ يَتَهَيَّبِ	وَجَزَاهُ خَيْرَ جَزَاءٍ مُرْسَلِ أُمَّةٍ
فِي مُبْتَغَاهُ وَطَالِبٍ لَمْ يَرْكَبِ	قَالُوا أَطْلُبُوهُ فَوَجَّهُوا مِنْ رَاكِبٍ
أَلْقُوا عَلَيْهِ نَسِيجَ غَزَلِ الْعَنْكَبِ	حَتَّى إِذَا قَصَدُوا لِبَابِ مَغَارَةٍ
مَا فِي الْمَغَارِ لِطَالِبٍ مِنْ مَطْلَبِ	صَنَعَ إِلَهِ لَهُ فَقَالَ قَرِيبُهُمْ :
عَنِ الدَّفَاعِ مَلِكُهُ لَمْ يَعْطَبِ	مِيلُوا فَصَدَّهُمُ الْمَلِكُ وَمَنْ يَرُدُّ
خَوْصُ الرُّكَّابِ إِلَى مَدِينَةٍ يَثْرِبِ	حَتَّى إِذَا أَمِنَ الْعَيُونُ رَمَتْ بِهِ
آوَةٌ فِي سَعَةِ الْمَحَلِّ الْأَرْحَبِ ^(١)	فاحتلَّ دَارَ كَرَامَةٍ فِي مَعْشَرٍ

ولعل ما سقناه من أبيات السيد الحميري من أولى المحاولات لنظم أجزاء من السيرة النبوية شعراً ، لولا أن الهدف الأساسي الذي كان يتوخاه الشاعر لم يكن الحديث عن سيرة الرسول ﷺ ، وإنما عن مناقب علي بن أبي طالب (رضه) . ويلاحظ في كلامه عن هجرة الرسول أنه تجاهل تماماً صُحبة أبي بكر (رضه) للرسول في الغار ، فشاعرنا كان من غلاة الشيعة ؛ ولهذا فقد كان كثيراً ما يتعرض في شعره للطعن على كبار الصحابة ، مثل أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وبنو أمية . ولا شك في أن هذا هو السبب في ضياع كثير من شعره .

ويبدو الاتجاه القصصي في شعر السيد في هذه الأبيات التي ينظم فيها خبر ركوب الحسن والحسين ظهر الرسول ﷺ وهو ساجد ، وترقبه بهما حتى نزلا ، وكان عمر (رضه) من حضور هذا المشهد فقال : « نِعَمَ الْمَطِيِّ مَطِيَّكُمَا » .

(١) الديوان ، ص ٩٦-١٠٠ ، وشرح القصيدة المذهبة ، ص ١٢٧-١٣٠ ، يتهيب : يخاف ويفزع ، ويعطب : يهلك .

فقال الرسول ﷺ : « وَنِعَمَ الرَّكَّابَانِ هُمَا ! »^(١)

أَتَى حَسَنًا وَالْحُسَيْنَ النَّبِيَّ	وقد جَلَسَا حَجْرَةً ^(٢) يَلْعَبَانِ
فَقَدَّاهُمَا ثُمَّ حَيَّاهُمَا	وكانا لَدَيْهِ بِهَذَا الْمَكَانِ
فَرَاخًا وَتَحَنَّنَهُمَا عَاتِقَاهُ	فَنِعَمَ الْمَطِيَّةُ وَالرَّكَّابَانِ
وَلِيدَانِ أُمَّهُمَا بَرَّةٌ	حَصَانٌ مُطَهَّرَةٌ لِلْحَصَانِ
وَشَيْخُهُمَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ	فَنِعَمَ الْوَلِيدَانِ وَالْوَالِدَانِ

ويستوقف نظرنا من شعر السيد قطعة من قصيدة له طويلة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآل البيت ؛ إذ نرى فيها نواة مبكرة لفكرة الحقيقة المحمدية التي سوف يتوسّع في تفصيلها الصوفيّة . وفي شرح هذه الأبيات نموذج لتأويل آيات القرآن الكريم في خدمة العقيدة الشيعية^(٣) :

عُرِسَتْ نَخِيلٌ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ	شَرَفًا قَطَابَ يَفْخَرُ طَيْبِ الْمَوْلَدِ
زَيْتُونَةٌ طَلَعَتْ فَلَا شَرْقِيَّةَ	تُلْفَى ^(٤) وَلَا غَرْبِيَّةَ فِي الْمَخْدِ ^(٥)
مَا زَالَ يَشْرِقُ نُورُهَا مِنْ زَيْتِهَا	فَوْقَ السُّهُولِ وَفَوْقَ صَمِّ الْجَلَمَدِ
وَسِرَاجُهَا الْوَهَّاجُ أَحْمَدُ وَالَّذِي	يَهْدِي إِلَى نَهْجِ الطَّرِيقِ الْأَزْهَدِ
وَإِذَا وَصَلَتْ بِجَبَلِ آلِ مُحَمَّدٍ	حَبْلَ الْمَوَدَّةِ مِنْكَ فَاْبْلُغْ وَازْدَدِ
بِمُطَهَّرٍ لِمُطَهَّرِينَ أَبْوَةً	نَالُوا الْعُلَا وَمَكَارِمًا لَمْ تَنْقَدِ

فمن الواضح أن الشاعر يشير هنا إلى الآية الكريمة : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا

(١) الأغاني ، ج ٧ ، ص ٢٥٨-٢٥٩ ، وديوان السيد ، ص ٤٥٠-٤٥١ . (٢) حَجْرَةٌ : ناحية .

(٣) ديوان السيد ، ص ١٨٦-١٨٧ . (٤) تُلْفَى : تُوْجِدُ . (٥) الْمَخْدُ : الأصل .

يُضيء وكو لم تَمْسَسَهُ نَارُ نَوْرٍ عَلَى نَوْرٍ يَهْدِي اللَّهَ لِنُورِهِ مِنْ يَشَاءُ » (سورة النور، آية ٣٥) . وينقل مُحَقِّقُ الدِّيَّانِ فِي التَّعْلِيقِ عَلَى الْآيَاتِ مِنْ كِتَابِ التَّوْحِيدِ لِلْفَقِيهِ الشَّيْعِيِّ ابْنِ بَابُوئِيهِ الْقَمِّيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، مُسْتَدَكًا ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ قَوْلَهُ : « نَوْرُ الْعِلْمِ فِي صَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ : صَدْرُ عَلِيٍّ . عَلِمَ النَّبِيُّ عَلِيًّا فَصَارَ عِلْمُ النَّبِيِّ إِلَى صَدْرِ عَلِيٍّ ، يَوْقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مَبَارَكَةٍ : نَوْرُ الْعِلْمِ ، لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ : لَا يَهُودِيَّةَ وَلَا نَصْرَانِيَّةَ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ ، قَالَ : يَكَادُ الْعَالَمُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ يَتَكَلَّمُ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَ ، نَوْرٌ عَلَى نَوْرٍ : أَيُّ إِمَامٍ مُؤَيَّدٌ بِنَوْرِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، فِي أَثَرِ إِمَامٍ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ، وَذَلِكَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ . فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ خُلَفَاءَهُ فِي أَرْضِهِ ، وَحُجَّجَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، لَا تَخْلُو الْأَرْضُ فِي كُلِّ عَصْرِ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ »^(١)

على أن ما نلاحظه على شعر السيد الحميري ، وغيره من شعراء الشيعة ، أن تناولهم لجوانب من سيرة الرسول ﷺ لم يكن مقصوداً لذاته ، بل هو موظف لخدمة عقائدهم في آل البيت ، فهو مجرد مُنْطَلَقٍ لَهُمْ لِكَيْ يَسْتَطِيعُوا قَضِيَّتَهُمْ وَحُجَجَهُمْ لِأَحَقِّيَّةِ أُمَّةِ آلِ الْبَيْتِ فِي الْخِلَافَةِ . وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ ، فَإِنَّهُمْ بِوَجْهِ عَامٍّ تَقَدَّمُوا بِفَنِّ الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ خُطُوبَاتٍ إِلَى الْأَمَامِ ، وَأَثَرُوا مَوْضُوعَهَا بِعَنَاصِرٍ جَدِيدَةٍ لَهَا طَرَافَتُهَا وَتَأْثِيرُهَا الْعَمِيقُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْمُنْتَائِلِ لَذَلِكَ الْمَوْضُوعِ .

دِعْبِلُ الْخَزَاعِيِّ

يَعْدُ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ رُزَيْنِ الْخَزَاعِيُّ مِنْ أُبْرَزِ شُعْرَاءِ الشَّيْعَةِ فِي الْجِيلِ التَّالِيِ لِجِيلِ السَّيِّدِ الْحَمِيرِيِّ ، وَقَدْ وُلِدَ فِي الْكَوْفَةِ سَنَةَ ١٤٨ هـ لِلْهَجْرَةِ ، وَعَاشَ حَيَاةَ مُضْطَرِبَةٍ حَافِلَةً بِالْمَخَامِرَاتِ ، فَقَدْ بَدَأَ حَيَاتِهِ مَخَالِطًا لِلشُّطَارِ^(٢) وَقُطَّاعِ

(١) حاشية ديوان السيد ، ص ١٨٦-١٨٧ .

(٢) الشُّطَارُ : جَمْعٌ شَاظِرٌ ، وَهُوَ مِنْ عَصَى أَبَاهُ وَعَاشَ فِي الْخِلَافَةِ بَعِيدًا عَنْهُ ، ثُمَّ تَابَ وَرَجَعَ .

الطُّرُق ، ثم شَرَعَ يُجالس الشعراء ويتَّصل برجال الدَّولة في بغداد ، ثم رحل إلى خُرَّاسان و وُلِيَ هناك بعض المدن ، ورحل إلى مصرَ فاتَّصل بوالِيتها الذي ينتمي إلى نفس قبيلته ، المُطَلِّب بن عبد الله الخُرَّاعي ، ومدحه فولاه على أسوان ، وفسدت العلاقة بينه وبين المُطَلِّب ؛ فرحل عن مصرَ عائداً إلى بغداد وخراسان . وتوجَّه بمديحه للخليفة المأمون ، ولعلِّي بن موسى الرُّضا ، إمام الشيعة الذي أسند إليه ولاية عهده ، وأنشدهما تائيته المشهورة ونال عطاياهما .

على أنه كان هَجَاءً خبيث اللسان ، فقد أكثر من هجاء خلفاء بني العباس وغيرهم من رجال عصره ، بل إنه أَقْدَعَ في هجاء كثيرٍ ممَّن شملوه بعطايهم . ويُذَكَّر أن هذه التَّزعة إلى الشرِّ والنَّيل من الأعراض كانت سبباً في مصرعه ؛ فقد هَجَا مالِك بن طوق التَّغْلبيَّ فأرسل له من يعتاله في بعض قرى الأهواز . ولا يتفق الباحثون على تاريخ وفاته ؛ فبروكلمان يجعلها في سنة ٢٢٠ ، وبعض المصادر يجعلها في سنة ٢٤٦ ، ويتوسَّط الدكتور شوقي ضيف ، فيرى أنها كانت في أوائل عهد الخليفة المتوكِّل في نحو سنة ٢٣٥^(١) .

وعلى الرَّغم من أن دعبلاً كان من الشعراء المُكثَّرين - إذ يُذَكَّر أن الصُّولي جمع ديوانه في ثلاثمائة ورقة - فإن ما وصل إلينا من شعره بعد الجهد القيم الذي اضطلعَ به جامعُ الديوان ، الدكتور عبد الكريم الأشتر ، يزيد قليلاً على ألف وخمسمائة بيت ، والشعر الصحيحُ النسبة له من هذا القَدْر أقلُّ من ألف بيت . وهذا يدلُّ على أن معظم شعره ضاع ، ولا شك أن هناك سببين لذلك ، أولهما : أنه كان من غلاة الشيعة ، كثير الوقوع في الصَّحابة ، مما جعل الأوساط الأدبية تتحامى^(٢) رواية شعره ، والثاني : خُبثُ

(١) حول دعبل انظر : العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص ٣١٨-٣٢٤ ، وبروكلمان ج ٢ ،

ص ٣٩-٤٠ . وقد قام بجمع شعره وتحقيقه الدكتور عبد الكريم الأشتر ، دمشق ١٩٦٤ .

(٢) تتحامى : تجتنب وتوقى .

لسانه ، وكثرة هجائه ، ونيله من الأعراض .

وربما كان أشهر شعر دَعْبَل هو تائيته الكبرى المشهورة في مدح آل البيت وبكاء مصارعهم ، وهي تقع في سبعة وخمسين بيتاً ، غير أن المصادر الشيعة زادت فيها ، على ما يبدو ، جيلاً بعد جيل حتى إنها تبلغ في بعض مصادرهم المتأخرة مائة وأربعين بيتاً ^(١) وهي تبدأ على هذا النحو ^(٢):

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مُقْفِرِ الْعَرَصَاتِ
هُمْ أَهْلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا اعْتَزَوْا وَهُمْ خَيْرُ قَادَاتٍ وَخَيْرِ حُمَاةٍ

وسرعان ما تدرك دعبلاً طبيعة الشر المتأصلة في نفسه ، فإذا به يهجو الأمة كلها فيتهمها بمعادة الرسول وآله وبالنصب لهم ^(٣) ؛ انتقاماً لما وقع على المشركين في معارك بدر ، وخيبر ، وحنين ، وكأن أمة الإسلام كلها مسئولة عن مصارع من خرج من أئمة العلويين ! وهو يرمز إلى هؤلاء بالمواضع التي قُبروا فيها ، ويختم ذكرهم بسيد شباب أهل الجنة : الحسين بن عليّ قتيلاً كربلاء ، ويعبر عن تجنّب زيارتهم ؛ خوفاً مما قد يتعرض له من عقوبة سلاطين الجور :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ وَمُكَذِّبٌ وَمُضْطَغِنٌ ذُو إِحْنَةٍ وَتَرَاتٍ
إِذَا ذَكَرُوا قَتْلَى يَبْدُو وَخَيْرٌ وَيَوْمَ حَنْيْنٍ أَسْبَلُوا الْعَبْرَاتِ
وَكَيْفَ يُجْبُونَ النَّبِيَّ وَأَهْلَهُ وَقَدْ تَرَكَوْا أَحْشَاءَهُمْ وَغَرَاتِ
لَقَدْ لَا يَنْتَوُ فِي الْمَقَالِ وَأَضْمَرُوا قُلُوبًا عَلَى الْأَحْقَادِ مَنْطُوبَاتِ

(١) ديوان دعبل ، ص ٧٠-٨٠ ، وما ألحق بها من زيادات في ص ٢٢١-٢٤٠ .

(٢) ديوانه ، ص ٧١-٧٣ ، العرصات : جمع عرصة ، وهي ساحة الدار ، سُميت بذلك لاعتراض الصبيان

فيها ؛ أي للبهيم ومرحهم فيها ، واعتزوا : انتسبوا ، ومنه : اعتزى بعرّاء الجاهلية ؛ أي انتسب بنسبها .

(٣) نصب له : أظهر له الشر .

قُبُورٌ بِكُوفَانٍ وَأُخْرَى بِطَبِيعَةٍ وَأُخْرَى بَفَتْحٍ نَالَهَا صَلَوَاتِي
 وَقَبْرٌ بِأَرْضِ الْجَوْزَجَانِ مَحَلَّةٌ وَقَبْرٌ بِبَاخَمَرَا لَدَى الْعَرَمَاتِ
 وَقَبْرٌ بِيَغْدَادٍ لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ تَضَمَّنَهَا الرَّحْمَنُ فِي الْغُرَفَاتِ
 وَقَبْرٌ بِطُوسٍ يَا لَهَا مِنْ مُصِيبَةٍ تَرَدَّدُ بَيْنَ الصَّدْرِ وَالْحَجَبَاتِ
 فَأَمَّا الْمِصْنُاتُ الَّتِي كَسْتُ بِالْغَا إِلَى الْحَشْرِ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ قَائِمًا
 نَفُوسَ لَدَى النَّهْرَيْنِ مِنْ أَرْضِ كَرْبَلَا يُفَرِّجُ مِنْهَا الْهَمَّ وَالْكُرْبَاتِ
 أَخَافُ بَأَنَّ أَزْدَارَهُمْ وَيَشُوقُنِي مَعْرَسَهُمْ مِنْهَا بِشَطِّ قُرَاتِ
 تَقْسَمُهُمْ رَبُّ الزَّمَانِ فَمَا تَرَى مَعْرَسَهُمْ بِالْجِرْعِ مِنْ نَخَلَاتِ
 لَهُمْ عَقَوَةٌ مَغْشِيَةٌ الْحُجَرَاتِ^(١)

ولا ينسى الشاعر أن يشير في آخر الأبيات إلى انتظاره رجعة الإمام القائم من آل البيت ، الذي سوف يفرج الكرب ، ويملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

ويُعدّد الشاعر مآثر آل البيت ، وأكبرها فخرهم بانحدارهم من صلب الرسول ، وبما أحيط به ببيتهم من نور النبوة وتنزل الوحي على جدّهم ، وحظوتهم بتبليغ جبريل رسالة ربّه في حجراتهم . على أنه سرعان ما يعود إلى الهجوم على خصوم آل البيت ، فيسدّد سهام هجائه إلى معاوية بن هند بنت

(١) الإحنة : الحقد ، والتّرات : جمع نزة ، وهي الثّار ، وغرات : متولّدة من الغيط ، الحجّبات : مجاري النفس ، المعترس : اسم مكان من التّعريس ، وهو نزول القوم في السفر آخر الليل للاستراحة . العقوة : الساحة . والمواضع التي ذكرها دعيّل في هذه الأبيات هي التي فيها قبور العلويين الذين أوقع بهم وهي : كوفان ، اسم الكوفة ، وبها قبر علي بن أبي طالب (رضه) ، طيبة : اسم مدينة الرسول ﷺ وبها قبور فاطمة (رضه) بنت الرسول ، وابنها الحسن بن علي ، وعلي زين العابدين بن الحسين ، ومحمد بن عبد الله بن الحسن ، النفس الزكية ، الجوزجان : من كور بلخ بخراسان ، وبها قبر يحيى بن زيد بن علي زين العابدين ، باخمرًا : موضع قريب من الكوفة في أرض الطّف ، وبه قبر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، فُتْح : وإد قرب مكة ، قتل فيه الحسين بن علي بن الحسين في زمن الخليفة الهادي ، طوس : مدينة بخراسان دفن فيها الرشيد ، وإلى جواره دفن الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم .

عتبة ، وإلى زياد بن أبي سفيان ، وابن سمية ، ويعبر عن حبه لآل الرسول وهم خيرة العالم ، ويدعو الله أن يزيده بصيرة في حبهم والولاء لهم ، وأن يجعل ذلك الحب له في حسناته :

وإن فخرُوا يوماً أتوا بمحمدٍ	وجبريلَ والفرقانِ ذي السوراتِ
أولئك لا من شيخٍ هندٍ وترها	سميةً من نوكتي ومن قذراتِ
ملا مك في أهل النبي فإنهم	أحيائي ما عاشوا وأهل ثقتائي
تخيرتهم رشدًا لأمرِي فإنهم	على كلِّ حالٍ خيرة الخيراتِ
نبذت إليهم بالمودة جاهدًا	وسلمت نفسي طائعًا لولائي
فيارب زدني من يقيني بصيرة	وزد حبهم يارب في حسناتي ^(١)

وفي قصيدة أخرى يعود دِغبل المهاجمة المسلمين جميعاً ؛ لأنه يعدهم مسؤولين عن مصارع آل البيت ، فكلُّ قاتل العرب شركاء في دماءهم ، وهو يرى أن بني أمية قد يكونون معذورين في إيقاعهم بآل البيت ؛ لأنهم إنما كانوا ينتقمون لمن أوقع بهم الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب في معاركهم مع المشركين . أما بنو العباس فما عُذْرهم في ذلك ؟ ثم يختم القصيدة بالدعوة لزيارة طوس ، حيث دفن علي الرضا بن موسى ، ولا يفوته أن يعود لهجاء خلفاء بني العباس في إقذاع سليط ، فيقول إن طوساً ضمت قبرين : قبر خير الناس ؛ أي : علي الرضا ، وقبر شرهم ، وهو هارون الرشيد :

يا أمة السوء ما جازيتَ أحمدَ عن حُسن البلاءِ على التنزيلِ والسورِ
خلفتُموه على الأبناء حين مضى خلافة الذئب في أبقارِ ذي بقرِ
وليسَ حيٍّ من الأحياء نعلمه من ذي يمانٍ ومن بكرٍ ومن مضرِ
إلا وهم شركاء في دماءهم كما تشارك أيسار على جزرِ

قَتَلًا وَأَسْرًا وَتَحْرِيقًا وَمَنْهَبَةً فَعَلَ الْعَزَاةَ بِأَرْضِ الرُّومِ وَالْخَزَرِ
أَرَى أُمِيَّةً مَعْدُورِينَ إِنْ قَتَلُوا وَلَا أَرَى لِبَنِي الْعَبَّاسِ مِنْ عُدْرِ
أَبْنَاءِ حَرْبٍ وَمَرْوَانَ وَأَسْرَتَهُمْ بَنُو مُعَيْطٍ وَلَاةَ الْحِقْدِ وَالْوَعْرِ
قَوْمَ قَتَلْتُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَوْلَهُمْ حَتَّى إِذَا اسْتَمَكَّنُوا جَاوَزُوا عَلَى الْكُفْرِ
إِرْبَعٍ بِطُوسٍ عَلَى قَبْرِ الزَّكِيِّ بِهَا إِنْ كُنْتَ تَرَبُّعٌ مِنْ دَيْنٍ عَلَى وَطَرِ
قَبْرَانِ فِي طُوسٍ : خَيْرِ الْخَلْقِ كُلُّهُمْ وَقَبْرِ شَرِّهِمْ هَذَا مِنْ الْعَبْرِ
مَا يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قُرْبِ الزَّكِيِّ وَمَا عَلَى الزَّكِيِّ بِقُرْبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرٍ^(١)

ولا يزال دعبل يُكرَّر هذه المعاني في كلِّ قصائده الشيعية . والحقيقة أننا لا نكاد نرى في هذا الشعر حديثاً عن الرسول نفسه ؛ ذلك أنه هو ومعظم شعراء الشيعة لا يهتمون إلا بآل البيت من نسل عليّ ، وحديثهم عن الرسول حديث عارض يأتي مُقدِّمةً وتمهيداً للكلام عن فضائل آل البيت ، حتى إشارات دعبل التي رأيناها إلى بعض مشاهد الرسول ﷺ وغزواته ؛ مثل بدر وخيبر وحنين لم تأتِ للحديث عن انتصاراته ، وإنما للتعريض بمن قُتل فيها من أجداد خلفاء بني أمية الذين نكَلُوا بِالْعُلُوِّين . وإنما استحقَّ دعبل منا هذا الحديث ؛ لأنَّ التَّقَرُّبَ إلى آل البيت وطلب الشفاعة منهم قد أصبح بعد ذلك من العناصر الرئيسية في المدائح النبوية ، وأصبح يحتلُّ من جُمْلَتِها مساحة غير قليلة .

الشَّريْفُ الرُّضِيّ^٢

الشَّريْفُ الرُّضِيّ ومهيار الديلمي شاعران تجتمع بينهما صلوات وثيقة حميمة ؛ أولاها المذهب ، فكلاهما شيعيٌّ إماميٌّ يفرد جانباً من شعره لكرائي

(١) أيسار : جمع ياسر وهو الذي يقوم بقسمة الدِّيعة ، الجَزْر : جمع جَزَر : الناقة المَجْزُورَة ، أبناء حرب : يعني أبا سفيان بن حرب بن أمية وابنه معاوية ونسله ، ومَرْوَان : هو مَرْوَان بن الحكم جَدُّ الْفِرْع الآخر من فروع بني أمية ، بنو مُعَيْط : يعني عَقْبَةُ بن أَبِي مُعَيْط الذي قُتِلَ عَلَى شِرْكِهِ فِي بَدْرَ وَبَدْرَ وَبَدْرَ . أَرْبَع : انزل .

الحسين بن علي وآل البيت ، ويدافع عن قضية حق العلويين في الإمامة ، ويسدّد سهام هجائه لخصومهم . وثانية هذه الصّلات ما يجمع بين الأستاذ وتلميذه ، فقد كان مهيار تلميذاً للشّريف وعليه تخرّج في الشّعر ، بل يقال إنه اعتنق الإسلام على يديه ناجياً من إसार المجوسية ، وإذا كان هذا الفرض لم يقع عليه دليل من شعر مهيار ، فإنه لا يُستبعد مع ذلك أن تلمذته على الشّريف كان لها بعض الأثر في توجيهه إلى استبدال هذّي الإسلام بضلالة المجوسية . وثالثة الوشائج التي تربط بين الشّاعرين ؛ المذهب الفنيّ من الجمع بين رقة الحضارة وجزالة البداوة ، ولاسيّما في افتتاحيّات القصائد التي تقدّم لنا ألواناً من الغزل العذريّ ، لعلّه من أجمل ما نعرفه في الشّعر العربيّ من عاطفية رومانسية متسامية .

أما الشّريف الرّضي ، فهو محمد بن الحسين الموسويّ العلويّ ^(١) ، وُلد ببغداد سنة ٣٥٩ ، وكان أبوه من سادة العلويين ومن كبار رجال الدولة في ظلّ دولة بني بويه ، ووليّ نقابة الأشراف العلويين خلفاً لأبيه بعد موته في سنة ٣٩٧ ، وكان عظيم الحظوة لدى الخليفين العبّاسيين الطّائع ثم القادر ، وعند ملوك بني بويه ، وكانت وفاته في سنة ٤٠٦ ، ورثاه تلميذه مهيار بقصيدتين تُعدّان من أروع شعر الرّثاء في الشّعر العربيّ .

وقد تفتّحت موهبة الشّريف الشّعريّة وهو في سنّ مبكّرة ، وأقبل على العلم منذ غضاضة الصّبا ، فلم يكن شاعراً فحسب ، بل كان له باع في التّأليف ، فقد جمع خطب علي بن أبي طالب (رضه) وأقواله في كتاب « نهج البلاغة » ، وإن كان في هذه الخطب ما يُشكّ في نسبته إلى عليّ ، وله كتاب في تفسير القرآن سمّاه « حقائق التّأويل في مُتشابه التّنزيل » ، وكتاب

(١) عن الشّريف الرّضي انظر الدكتور شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ، ص ٣٧١-٣٧٥ ، و بروكلمان ، ج ٢ ، ص ٦٢-٦٥ ، وقد أفردت لدراسته كتب منها : عبقرية الشّريف الرّضي ، لزكي مبارك ، والشّريف الرّضي : للدكتور إحسان عباس ، ودراسة مُفصّلة لعبد الفتاح الحلّو .

في المجازات النبوية ، ومختارات من شعر ابن الحجاج البغدادي . ولم يمنع هذا الجهد العلمي ولا المناصب التي وليها من الإكثار من نظم الشعر ، فقد خلّف لنا ديواناً يشتمل على أكثر من سبعة عشر ألف بيت .

ومع أن شطراً غير قليل من شعر الشريف في مدح الخليفتين العباسيين اللذين عاصرهما ، وفي ملوك البويهيين ورجال دولتهم ، فإنه كان يشعر بالغضاضة من اضطرابه لهذا المديح ، فقد كان بعيد المطامح ، بل إنه كان يرى نفسه أجدر بالخلافة ، يرشحه لذلك في نظره نسبة العلوي وما اجتمع فيه من فضائل ، فهو يقول في قصيدة يمدح بها أباه ^(١) :

تطالّني نفسي بكلّ عزيمة	أرى دونها جاري دم يتصبّب
أبعد النبي والوصي تروفي	مناسب من يعزى لمجد وينسب
يقرّ بفضلني كلّ بادٍ وحاضر	ويحسّني هذا العظيم المحجّب
أريد من الله القضاء بحالة	تقرّ بها عين وقلب معذب

وكثيراً ما عبّر الشريف عن ثورته المكبوتة على العباسيين في مراثيه للحسين وآل البيت ، وقد اصطبغت مراثيه بالحزن العميق والتفجّع الصارخ ، حتى أطلق عليه الأدباء لقب « النائحة الثكلى » ، كما يذكر الصفدي .

ومن قصائده في رثاء الحسين مقصودته التي يفتتحها بقوله ^(٢) :

كربلا لا زلت كرباً وبلا	ما لقي عندك آل المصطفى
كم على تربك لماً صرّعوا	من دم سال ومن دمع جرى

ويخاطب الشاعر رسول الله مستثيراً حفيظته على قتلة سيّطه :

يا رسول الله لو عاينتهم	وهم ما بين قتلى وسبّا
من رميض يمتع الظلّ ومن	عاطش يسقى أنابيب القنا

وَمَسْجُودٍ عَائِرٍ يُسَعَى بِهِ
خَلَفَ مَحْمُولٍ عَلَى غَيْرِ وَطَا
لَرَأَتْ عَيْنَاكَ مِنْهُمْ مَنَظَرًا
لِلْحَشَا شَجَوًا وَلِلْعَيْنِ قَلْدَى^(١)

وهو لا يُنحي باللائمة على قَتْلَةِ الحسين فحسب ، بل يعتبر الأمة كلها مسئولة عن تلك الجريمة ، على نحو ما رأينا عند دِجْبَلِ الخُزَاعِي من قبل ، ويرى أن مصرع الحسين إنما كان أخذًا بثأر من قُتِلَ من كفار قريش في مشاهد الإسلام الأولى :

لَيْسَ هَذَا لِرَسُولِ اللَّهِ يَا
أُمَّةَ الطُّغْيَانِ وَالْبَغْيِ جَزَا
غَارِسٍ لَمْ يَأَلْ فِي الْغَرَسِ لَهُمْ
فَأَذَاقُوا أَهْلَهُ مَرَّ الْجَنَى
جَزَّروا جَزَرَ الْأَضَاحِيِّ نَسْلَهُ
ثُمَّ سَاقُوا أَهْلَهُ سَوْقَ الْإِمَا
هَاتِفَاتِ بَرَسُولِ اللَّهِ فِي
بُهِرِ السَّعْيِ وَعَشْرَاتِ الْخَطَى
أَدْرَكَ الْكُفْرَ بِهِمْ ثَارَاتِهِ
وَأَدْبَلَ الْغِيَّ مِنْهُمْ فَاشْتَفَى^(٢)

ويخاطب الحسين الشهيد مُسْتَلِدِرًا الدُمُوعَ ، وهو يصف مصرعه على أيدي قوم لم يراعوا رَحِمَهُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ ، ومن ابنته فاطمة (رضه) :

يَا قَتِيلًا قَوَّضَ الدَّهْرُ بِهِ
عُمَدَ الدِّينِ وَأَعْلَامَ الْهُدَى
قَتَلُوهُ بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُمْ
أَنَّهُ خَامِسُ أَصْحَابِ الْكِسَا
غَسَلُوهُ بِدَمِ الطُّعْنِ وَمَا
كَفَّنُوهُ غَيْرَ بَوْغَاءِ الثَّرَى
مُرْهَقًا يَدْعُو وَلَا عَوْتَ لَهُ
بَابٍ بَرٍّ وَجْدٌ مُصْطَفَى
وَبَأْمٌ رَفَعَ اللَّهُ لَهَا
عَلَمًا مَا يَبِينُ نِسَوَانِ الْوَرَى
يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا فَاطِمَةَ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤْتَصَى

(١) سيا : أسرى ، الرُمِيز : المُنْتَحِقُ القديمين من الحر ، القنا : الرماح .

(٢) جزروا : ذبحوا ؛ بُهِرِ السَّعْيِ : انقطاع النَّفْسِ عند الجري ؛ أَدْبَلَ الْغِيَّ : أخذ بثأره ، وفي طبعة الديوان « أزيل » وهو تحريف .

كَيْفَ لَمْ يَسْتَعْجِلِ اللَّهُ لَهُمْ
بِانْقِلَابِ الْأَرْضِ أَوْ رَجْمِ السَّمَاءِ ^(١)
وَفِي قَصِيدَةِ أُخْرَى يُنَدِّدُ بِجَرِيْمَةِ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ قَاتِلِ الْحُسَيْنِ ، وَبِزَيْدِ بْنِ
مَعَاوِيَةَ الَّذِي تَمَّتْ الْجَرِيْمَةُ فِي عَهْدِهِ فَيَقُولُ : ^(٢)

لِلَّهِ مُلْكِي عَلَى الرَّمْضَاءِ عَضُّ بِهِ قَمُ الرَّدَى بَيْنَ إِقْدَامِ وَتَشْمِيرِ
أَعْرَى بِهِ ابْنِ زِيَادٍ لَوْمْ عُنْصُرِهِ وَسَعِيَّهُ لِيَزِيدَ غَيْرَ مَشْكُورِ
وَيَتَّهَدُّ بَنِي أُمَيَّةَ بِالثَّأْرِ لِمَصَارِعِ آلِ الْبَيْتِ :

بَنِي أُمَيَّةَ ! مَا الْأَسْيَافُ نَائِمَةٌ عَنْ شَاهِرٍ فِي أَقَاصِي الْأَرْضِ مَوْتُورِ
إِنِّي لَأَرْقُبُ يَوْمًا لَا خَفَاءَ لَهُ عَرِيَّانَ يَقْلَقُ مِنْهُ كُلُّ مَغْرُورِ
وَقَدْ يَدُو مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ يُنْذِرَ الشَّرِيفُ بَنِي أُمَيَّةَ ؛ وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ دَوْلَتَهُمْ قَدْ
دَالَتْ وَانْقَرَضَتْ مِنْذُ عَهْدِ بَعِيدٍ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الشَّرِيفَ إِنَّمَا يَعْنِي الْخُلَفَاءَ
الْعَبَاسِيِّينَ الَّذِينَ اضْطَهَدُوا الْعُلُوِّيِّينَ أَيْضًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُصْرَحُ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ
يَعِيشُ فِي كَتْفِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَكَانَ هُوَ وَأُسْرَتُهُ يَتَوَلَّوْنَ مَنَاصِبَ لَهَا وَجَاهَتَهَا
وَمَكَاتِهَا فِي ظِلِّ تِلْكَ الْخُلَافَةِ . عَلَى أَنَّ مَا كَانَ يُعْرَضُ بِهِ الشَّرِيفُ فِي مِثْلِ
هَذَا الشَّعْرِ ، وَغَيْرِهِ كَثِيرٌ فِي دِيْوَانِهِ ، كَثِيرًا مَا جَرَى عَلَى لِسَانِهِ فِي صِرَاحِهِ ،
فَهُوَ يَخَاطِبُ بَنِي الْعَبَّاسِ قَائِلًا : ^(٣)

رُدُّوْا تُرَاثَ مُحَمَّدٍ رُدُّوْا لَيْسَ الْقَضِيبُ لَكُمْ وَلَا الْبُرْدُ
هَلْ عَرَّقَتْ فِيكُمْ كَفَاطِمَةٌ أَمْ هَلْ لَكُمْ كَمُحَمَّدٍ جَدُّ
جُلُّ افْتَخَارِهِمْ بِأَنَّهُمْ عِنْدَ الْخِصَامِ مَصَاقِقُ لُدُّ
إِنَّ الْخُلَافَةَ وَالْأَكْبَى فَخَرُوا بِهِمْ عَلَيْنَا قَبْلُ أَوْ بَعْدُ

(١) قوله « أَصْحَابُ الْكِسَا » فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : إِشَارَةٌ إِلَى خَبَرٍ يَقُولُ إِنَّ الرُّسُولَ ﷺ كَانَ مُلْتَفًا فِي بَيْتِ
فَاطِمَةَ هُوَ وَابْنَتُهُ وَعَلِيٌّ وَابْنَاهَا الْحُسَيْنُ وَالْحُسَيْنُ ، وَإِنَّهُ قَالَ : هُوَلَاءُ عَتَرَتِي وَأَهْلُ بَيْتِي . وَتَوَغَّاءُ الثَّرَى :
الْتَرَابُ الرَّخْوُ .

(٢) دِيْوَانُ الشَّرِيفِ ، ج ١ ، ص ٤٨٨-٤٨٩ . (٣) دِيْوَانُهُ ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

شَرُّفُوا بِنَا وَلَجَدْنَا خُلُقُوا وَهُمْ صَنَائِعُنَا إِذَا عُدُّوا ^(١)

وتتردّد هذه المعاني على نحو مُلحّ في شعر الشَّريف ، على أننا نلاحظ في حديثه عن الرُّسول ﷺ أنه لا يكاد يذكر من سيرته شيئاً إلا فيما يفيد تأكيداً لمناقب عليّ (رضه) وذريّته من بعد ، فهو إما يَفخر به ، عاداً انتسابه إليه مِنْ أهِمِّ حُجَجِهِ في المطالبة بالخلافة ، أو يناجيه مُستَعِدِّياً على قَتْلَةِ سِبْطِهِ ، وعلى كَلٍّ من ارتكبوا جريمة في حقّ آل البيت ، وهو بهذا لا يكاد يضيف شيئاً إلى ما هو معتاد في شعر الشيعة ، فيما عدا شيئاً واحداً : هو أن الشَّريف « ذا النَّسَبَيْنِ » ، يتميِّز على غيره من شعراء الشيعة بأنّه كان يطالب بالخلافة ويسعى لها ، بل إنه في أحلام يقظته يتوهم نفسه وقد آلت إليه الخلافة فعلاً :

هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ كَرَّمَتْ مَعَارِسُهُ وَطَابَ الْمَوْلِدُ
أَوْ مَا كَفَاكَ بَأْنَ أَمَلِكَ فَاطِمَ وَأَبُوكَ حَيْدَرَةٌ وَجَدُكَ أَحْمَدُ ^(٢)

مهيار الديلمي :

وُلد أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمي ^(٣) على ما يبدو في أوائل العقد السادس من القرن الرابع الهجري ، ويظهر أن مولده كان في بغداد من أسرة تنتمي إلى الديلم ، وهم فرع من الشعوب الفارسيّة كان يعيش على الضفاف الجنوبيّة لبحر قزوين ، وإلى الديلم ينتسب بنو بُويه الذين استطاعوا السيطرة على إيران ، ثم استبدّوا بالسلطة في بغداد مقرّ الخلافة العباسيّة .

(١) القضيبي والبُرْد : هما رمز للخلافة ، والبُرْد : هو البرّدة التي منحها الرسول ﷺ كعب بن زهير ، واشتراها معاوية من بعض ولده ، فكان خلفاء بني أمية وبني العباس يتوارثونها ويلبسونها في الأعياد ، عرّقت : كانت لهم أم ينتسبون إلى أعراقها ، مصّاع : جمع مصّع وهو الخطيب البليغ ، لُدّ : جمع لُدّ ، وهو الشليد الخصام .

(٢) ديوانه ، ج ١ ، ص ٤٠٩ ، وحَيْدَرَةٌ : من أسماء علي بن أبي طالب (رضه) .

(٣) عن مهيار الديلمي انظر : تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ، عصر الدول والإمارات ، ج ٥ ،

ص ٣٧٥ - ٣٧٨ ، وبروكلمان ، ج ٢ ، ص ٦٥-٦٦ .

والطريف في الأمر أن مهيار ولد مجوسيا ، وظلّ على مجوسيته شطراً من شبابه ، ولم يمنعه ذلك من استيعاب الثقافة العربية على نحو جدير بالإعجاب ، وقد اتصل منذ شبابه المبكر بالشريف الرضي وتخرّج عليه في الأدب والشعر ، وبظهر أنه وليّ منصباً من مناصب الكتابة في ديوان الرّسائل ، وهو لا يزال على مجوسيته ، ولكن أخذَه بأسباب الثقافة الإسلامية ، وتردّده على مجالس العلم في بغداد ، وصِلته الوثيقة بالشريف ، كلُّ ذلك جعل قلبه يتفتّح للإسلام ، فإذا به ينبذ مجوسيته ويعتق الإسلام في سنة ٣٩٤ .

وقد ذكر ابن الأثير أنه أسلم على يد الشريف الرضي ، ولكن ديوان الشعر يُسجّل أنه حينما اعتنق الإسلام كتب إلى أبي العباس أحمد بن إبراهيم الضبيّ، وزير فخر الدولة في الريّ (ت ٣٩٨) ييسره بذلك ويهجن ديانة قومه ويُسفّه ما هم عليه من مجوسية ، وهذا يدلُّ على أن الفضل في إسلامه يعود إلى هذا الوزير الأديب . وتدلُّ القصيدة التي كتبها في هذا الشأن على صدق إيمانه واستبصاره في دينه الجديد ، بل إنه سرعان ما يتحوّل إلى داعية للإسلام ، يهيب بقومه الباقين على مجوسيتهم باحتذاء مثله ، والاهتداء بهديّه ، وفي ثنايا هذه القصيدة أبيات جميلة يمدح بها الرسول ﷺ ويفاخر به أهل ملته القديمة :^(١)

وَبَلَغَ أَخَا صُحْبَتِي عَنْ أَخِيكَ	عَشِيرَتَهُ	نَائِيًا	أَوْ قَرِيبًا
تَبَدَّلْتُ مِنْ نَارِكُمْ رَبَّهَا	وَحَبَّبْتُ	مَوَاقِدَهَا	الْخُلْدَ طَيِّبًا
نَصَحْتُكُمْ لَوْ وَجَدْتُ الْمَصِيخَ	وَنَادَيْتُكُمْ	لَوْ دَعَوْتُ	الْمُحِبِّيَا
أَفِئُّوا فَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ فِي	ضَلَالَةٍ	مِثْلِكُمْ	أَنْ يَتُوبَا
وَالَا هَلُمُّوا أَبَاهِلَكُمْ	فَمَنْ قَامَ	وَالْفَخْرَ قَامَ	الْمُصِيبَا
أَمْثَلُ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى	إِذَا الْحُكْمُ	وَلَيْتَمَوْهُ	لِيبَا

يَعْدَلِي مَكَانَ يَكُونُ الْقِسِيمُ وَفَضْلُ مَكَانَ يَكُونُ الْخَطِيئَا
وَبَتَّتِ إِذَا الْأَصْلُ خَانَ الْفُرُوعَ وَفَضْلُ إِذَا النُّقْصُ عَابَ الْحَسِيئَا
وَصَدَّقِي بِإِقْرَارِ أَعْدَائِهِ إِذَا نَافَقَ الْأَوْلِيَاءُ الْكُذُوبَا
أَبَانَ لَنَا اللَّهُ نَهْجَ السَّبِيلِ بِبَعَثِهِ وَأَرَانَا الْغُيُوبَا
لَعْنُ كُنْتُ مِنْكُمْ فَإِنَّ الْهَجِيحَ سَنَ يُخْرِجُ فِي الْفَلَتَاتِ النَّجِيحَا^(٢)

وفي قصيدة أخرى يوجهها إلى أبي العباس الضبي أيضاً ، وذلك بمناسبة اعتزاله الوزارة وهجرته من الرِّيِّ ، يسجل صراحة أنه صاحب الفضل في هدايته إلى الإسلام ، ويقول إن ما بينه وبين أبي العباس من عهود سابقة قد زادت وثاقةً بفضل مائة الدين الجديد^(٢) :

سَيَلَقِي بِهَا « الْكَافِي » عُهُودًا وَثِيقَةً لَقَدْ زَادَهَا الْإِسْلَامُ حَقًّا وَأَكْدَا
هُوَ الْمُنْفِذِي مِنْ شِرْكِ قَوْمِي وَبَاعِثِي عَلَى الرَّشْدِ أَنْ أَصْنِي هَوَايَ مُحَمَّداً
وَتَارِكُ بَيْتِ النَّارِ يَبْكِي شَرَّاهُ عَلَيَّ دَمَا أَنْ صَارَ بَيْتِي مَسْجِداً^(٣)

وتجد الشاعر في هذه القصيدة نفسها يستوحي تاريخ الإسلام في مديحه لأبي العباس ، فهو يقول إن هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب كانت خيراً وبركة عليه وعلى دعوة الإسلام ، ويقيس على ذلك اعتزال ممدوحه للوزارة وهجرته من الرِّيِّ ؛ إذ يُبَشِّرُهُ بأن ذلك لن يضره في شيء :

فَإِنْ يَكُ ضَرَّتْ هِجْرَةُ بَعَثَ أَحْمَدِ

فَقَدْ حَطَّ هَجَرُ « الرِّيِّ » رُبَّةً « أَحْمَدَا »

وقد كان المنتظر أن يكون الإسلام هو طريق مهيار إلى التشيع ، ولكن الذي

(١) المصنح : المصنعي ، أفيئوا ، ارجعوا وتوبوا ، أباهلكم ، أفاخركم ، الهجين : القيم ، والتجيب : الفاضل

النفيس في نوعه . (٢) ديوان مهيار ، ج ١ ، ص ٢٣٢-٢٣٣ ، الملقاة : الصلة والوسيلة والحرمة .

(٣) الكافي أو كافي الكفاة : هو لقب الوزير أبي العباس الضبي ، وبيت النار : رمز للمجوسية .

يتبين لنا من ديوانه أن ميله إلى آل البيت كان قبل إسلامه وهو لا يزال يدين بالمجوسية ، تدل على ذلك قصيدة له مؤرخة في سنة ٣٨٩ أي قبل إسلامه بخمس سنوات ، وهي قصيدة تمثله متشيعاً وهو مجوسي متشبع بالشعووية الفارسية . ومطلع هذه القصيدة :^(١)

هَلْ تَعْلَمِينَ يَا ابْنَةَ الْأَعَاجِمِ كَمْ لِأَخِيكَ فِي الْهَوَى مِنْ لَائِمِ

وفيها يحمل على العرب في لهجة تذكرنا بما شهدناه من قبل في شعر دعبل والشریف الرضي ؛ لنكتهم عهدهم في آل النبي و غدرهم بهم ، وكان العرب جميعاً مسئولون عن جريمة اقترفها عبّيد الله بن زياد ، وذلك بعد أن عدّد مآثر نبي الإسلام على العرب واعتلاء شأنهم بفضله ، وتدّد بما لقيه من قومه قريش في حياته ، فهو يقول مخاطباً العرب :

مَا بَرَحَتْ مُظْلِمَةٌ دُنْيَاكُمْ	حَتَّى أَضَاءَ كَوَكَبٌ فِي هَاشِمِ
يَنْتَمُ بِهِ وَكُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ	سِرَا يَمُوتُ فِي ضُلُوعِ كَاتِمِ
حَلَلْتُمْ بِهِدْيِهِ وَيُمْنِهِ	بَعْدَ الْوَهَادِ فِي ذُرَى الْعَوَاصِمِ
تَخَفُّقُ رَايَاتِكُمْ مَنْصُورَةٌ	إِذَا أَدْرَعْتُمْ بِاسْمِهِ فِي جَاجِمِ
عُمَرُ مِنْكُمْ فِي أَدَى تَفْضُحِكُمْ	أَخْبَارُهُ فِي سَيْرِ الْمَلَا حِمِ
يَبْنَ قَتِيلٌ مِنْكُمْ مُحَارِبٌ	يَكْفُرُ أَوْ مُنَافِقٌ مُسَالِمٌ ^(٢)

ثم يصل ذلك بالحديث عن غدرهم بآل البيت بدءاً من مقتل علي بن أبي طالب (رضه) ، وانتهاءً بمصرع الحسين :

(١) ديوان مهيار ، ج ٣ ، ص ٣٣٤-٣٣٦ .

(٢) يَنْتَمُ : ظهرتم ، الوهاد : جمع وَهْدَة ، وهي الأرض المنخفضة ، والهَوَى في الأرض : وادّرع : لبس الدرع ، وكل ما أدخلته في جوف الشيء فقد أدْرعته ، والمراد اِحْمِيتُم ، الجاجيم : شدة القتل في الحرب ، وضيقتها وشذبتها .

ثُمَّ قَضَى مُسْلِمًا مِنْ رِيَّةٍ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَدْرِكُمْ بِسَالِمٍ
وقد شهدتم مَقْتَلَ ابْنِ عَمِّهِ خَيْرَ مُصَلٍّ بَعْدَهُ وَصَائِمٍ
وما اسْتَحَلَّ باغِيًا إِمَامُكُمْ يَزِيدُ بِالطُّفِّ مِنْ ابْنِ فَاطِمٍ
وَهَا إِلَى الْيَوْمِ الظُّلُمَا خَاضِيَّةٌ مِنْ دَمِهِ مَنَاسِرُ الْقَشَاعِمِ^(٢)

وهو يكرر هذا الهجوم على قريش وعلى العرب عامة في قصيدة من أول قوله بعد إسلامه ، فهو إذ يُندب ما يعانيه من حرمان ، يقول إنه يأتي بما لقيه الرسول ﷺ وآل بيته من قومه :^(٢)

لَعْنُ نَامٍ دَهْرِي دُونَ الْمَنَى وَلَمْ أَكُ أَحْمَدُ أَفْعَالَهُ
يَخَيِّرُ الْوَرَى وَبَنِي خَيْرِهِمْ وَأَكْرَمُ حَيٍّ عَلَى الْأَرْضِ قَامَ
وَيَبْتَ تَقَاصِرُ عَنْهُ الْبُيُوتُ وَطَالَ عَلِيًّا عَلَى الْفِرْقَدِ
تَحُومُ الْمَلَائِكُ مِنْ حَوْلِهِ وَيُصْبِحُ لِلْوَحْيِ دَارَ النَّدَى^(٣)

ويخاطب قريشاً فيقول متحدثاً عما لقيه الرسول ﷺ منهم بعد أن أعلن لهم أن علي بن أبي طالب هو « وَصِيُّهُ » و وارث خلافته من بعده ، وذلك حسب عقيدة الشيعة جميعاً :

أَ لَا سَلَّ قُرَيْشًا وَلَمْ مِنْهُمْ مَنْ اسْتَوْجَبَ اللَّوْمَ أَوْ قَدَّ

(٢) الطُّفُّ : ساحل الفرات بكرّ بلاء حيث قتل الحسين ، المناسير : جمع منسر وهو المنقار ، القشاعيم : النسور . ويريد بالبيت الأخير أن جث القتل بكر بلاء تركت نهياً للنسور ، وجوارح الطير تلغ في دماها ، ولهذا اضطربت مناقيرها بالدماء حتى اليوم .

(٢) ديوان مهيار ، ج ١ ، ص ٢٩٩-٣٠٠ .

(٣) اللحد : القبر ، الفرقد : من يجرم السماء . تقاصر : تتصغر ، أي لا تسمو سموه ، علياً : علياً .

وَقُلْ : مَا لَكُمْ بَعْدَ طُولِ الضَّلَا
أَنَا كُمْ عَلَى فِتْرَةٍ فَاسْتَقَامَ
وَوَلَّى حَمِيدًا إِلَى رَبِّهِ
وَقَدْ جَعَلَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ
وَسَمَاءَ مَوْلَى بِإِقْرَارٍ مَنْ
فَمِلْتُمْ بِهَا حَسَدَ الْفَضْلِ عَنْهُ
وَقُلْتُمْ بِذَاكَ قَضَى الْجَمَاعُ
لَوْ لَمْ تَشْكُرُوا نِعْمَةَ الْمُرْتَدِ ؟
بِكُمْ جَائِرِينَ عَنِ الْقَصِيدِ
وَمَنْ سَنُ مَا سَنَهُ يُحْمَدِ
لِحَيْدَرٍ بِالْخَيْرِ الْمُسْتَدِ
لَوْ أَتْبَعَ الْحَقُّ لَمْ يَجْهَدِ
وَمَنْ يَكُ خَيْرَ الْوَرَى يُحْسَدِ
أَلَا إِنَّمَا الْحَقُّ لِلْمُفْرَدِ ^(١)

ولمهيأ عينية تعد من أروع شعره الشيعي ، افتتحها بمطلع حزين يوحي بما
سيُعبر عنه من ألم لما حلَّ بال البيت :

هَلْ بَعْدَ مُفْتَرَقِ الْأَطْعَانِ مُجْتَمَعٌ أَمْ هَلْ زَمَانٌ بِهِمْ قَدْ فَاتَ يُرْتَجَعُ ^(٢)

وفي هذه القصيدة نرى مهيأ يحتج لحق آل البيت في الخلافة على نحو لم
يسبق لشاعر شيعي أن أداره بمثل هذه البراعة ، إلا ما سبق أن رأيناه لدى
الكميت ، ولن نُطيل باقتطاف هذا الحجاج الطويل ، وإنما يهمننا في موضوعنا
إشارته فيها إلى رسول الله ﷺ ، وما لقي آل البيت على أيدي الناكثين بعهد
الرسول من ولاة الجور :

هَذِي قَضَايَا رَسُولِ اللَّهِ مُهْمَلَةٌ
وَالنَّاسُ لِلْعَهْدِ مَا لَاقَوْا وَمَا قَرَّبُوا
وَالْخِيَانَةُ مَا غَابُوا وَمَا شَسَعُوا
رِعَاةُ ذَا الدِّينِ ضَيِّمُوا بَعْدَهُ وَرَعُوا
عَدْرًا وَشَمَلُ رَسُولِ اللَّهِ مُنْصَدِعُ

(١) قوله « وسماه مولى » يشير إلى خبر غدیر خم ، حيث أخذ الرسول ﷺ بيد علي بن أبي طالب وخطب
المسلمين فقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والي من والاه ، وعاد من عاداه ، وأذر الحق معه
حيث دار » . ويعني بالاجتماع في البيت الأخير اجتماع السقيفة الذي انتهى بالبيعة لأبي بكر الصديق .

(٢) ديوان ميهيار ، ج ٢ ، ص ١٨١-١٨٤ .

مِيثَاقُهُ فِيهِمْ مُلْقَى وَأَمَّتُهُ مَعَ مَنْ بَغَاهُمْ وَعَادَاهُمْ لَهُ شَيْعٌ^(١)

ولا ينسى مهيار في نهاية القصيدة فارسيته فيتوجه إلى الإمام عليّ طالباً شفاعته وماتاً له بصيلة سلمان الفارسيّ ، الذي قال فيه الرسول ﷺ : « سلمان من آل البيت » ، ويختم قصيدته بأن حبه لعليّ (رضه) وإخلاصه له هو ضمانه الوحيد لغفران ذنوبه :

آبَايَ فِي فَارِسِ وَالَّذِينَ دِينُكُمْ حَقّاً لَقَدْ طَابَ لِي أَسٌّ وَمُرْتَفَعٌ
مَا زِلْتُ مُذْ يَفْعَتُ سِنِّي أَلُودٌ بِكُمْ حَتَّى مَحَا حَقُّكُمْ شَكِّي وَأَتَتَجَعُّ
وَقَدْ مَضَتْ قُرْطَاتٌ إِنْ كَفَلْتَ بِهَا فَرَّقْتَ عَنْ صُحْبِي الْبَاسَ الَّذِي جَمَعُوا
سَلْمَانَ فِيهَا شَفِيعِي وَهُوَ مِنْكَ إِذَا أَلِ آبَاءُ عِنْدَكَ فِي أَبْنَائِهِمْ شَفَعُوا
فَكُنْ بِهَا مُنْقِداً مِنْ هَوْلٍ مُطْلَعِي عَدَاً وَأَتَتْ مِنَ الْأَعْرَافِ مُطْلِعُ
سَوَّلْتُ نَفْسِي غُرُوراً إِنْ ضَمِنْتَ لَهَا أَنِّي بِذُخْرِ سِوَى حُبِّكَ أَتَفَعُّ^(٢)

ولمهيار قصائد عديدة أخرى في سيرة الإمام عليّ (رضه) وفي مرآتي الحسين ، بلغ فيها ذروة التعبير الذي يجمع بين رقة التّفجّع وقوة الحِجاج ، بل إننا نراها أجرد مما نظمه أستاذه الشريف الرضي الذي كان في شعره دائم الإدلال بنسبته إلى بيت النبوة ، وكانت لا تفارق مخيلته أحلامه في تولي الخلافة ، مما جعل الفخر والوعيد أغلب على شعره من الرثاء .

أما مهيار فكان رجلاً من عامة الشعب حديث عهد بالإسلام ، وكان حب آل بيت هو طريقه إلى الإسلام ، فكان تعبيره عن ولاءه لهم والتّفاني في الدفاع عن قضيتهم يتسم بالصدق والحرارة . ومن ناحية أخرى ، فإن في شعر مهيار من التعبير عن حب الرسول ﷺ ومناجاته ما لا نجد منه إلا القليل في شعر الشيعة الآخرين ؛ إذ شغلهم عن ذلك اهتمامهم بتعداد مناقب آل البيت .

(١) شَسَعُوا : بَعَدُوا . (٢) يَفَعُّ : تَرَعَرَعَ وَنَاهَزَ الْبُلُوغَ ، أَتَتَجَعُّ : أَطْلَبُ مَعْرِفَتَهُمْ ، قُرْطَاتٌ : ذُنُوبٌ سَابِقَةٌ .

ومع ذلك ، فإن لشعراء الشيعة فضلاً لا يُنكر في العودة إلى موضوع المديح النبوي ، حتى وإن كان ذلك يأتي عندهم تابعاً للحديث عن آل البيت ؛ ولهذا فإنهم هم الذين يُمثلون استمرار هذا الموضوع ومواصلته حتى القرن السادس ، الذي يُقيل فيه الشعراء من شيعة وأهل سنة على المديح النبوي بصورة بالغة الاتساع .

وإنما نقول ذلك لأن من الغريب أننا حينما نتأمل دواوين الشعراء الكبار منذ القرن الثاني الهجري حتى السادس ، من أمثال : أبي تمام ، والبُحتري ، والمتنبي ، فإننا لا نكاد نجد واحداً منهم يخصص بالحديث سيرة الرسول ﷺ ، أو يعود إلى تأمل جوانب شخصيته وشماله ، وأنه لا تأتي الإشارة إلى شيء من ذلك إلا على نحو عارض في المديح ، أو في غير ذلك من أغراض الشعر .

شعراء آخرون :

ولسنا نرى بأساً في تتبع تلك الإشارات إلى الرسول لدى الشعراء غير المتشيعين ؛ فهي - على قلتها - لا تخلو من قيمة ودلالة . على أننا نسجل أن معظمها لشعراء مغمورين أو مجهولين ، ولعلّ القصاص الشعبيين هم أكثر الناس نظاماً لمثل هذا الشعر ، ولا بدّ أن الشعر الكثير الذي نجده في كتب السيرة والذي يتناول معجزات الرسول ﷺ ، مما تتبّعه العلماء وتشكّكوا في نسبته ، من وضع أولئك القصاص الذين لم تُفدنا كتب التراجم عنهم بالكثير ، فهم في الغالب ينتمون إلى طبقات شعبية ، وليسوا على درجة عالية من الشهرة ، ولا من إجادة بحيث كانوا من الشعراء الفحول ، غير أن إيمانهم الساذج وحُبهم الخالص للرسول هو الذي حملهم على التنظيم في هذا الموضوع .

مُحمّد بن المستنير « فطرب » :

ربّما كان من الغريب أن يكون من أوّل المشاركين في المديح النبوي من

رجال القرن الثاني هذا التحوي اللغوي ، الذي لم يُعرف بالشعر ، ولم تحفظ عنه المصادر إلا مشاركته في علوم العربية التي كان من أعلامها المبرزين ؛ فقد كان قُطرب تلميذاً لسيبويه ملازماً له . واشتهر بعد ذلك بأنه من أئمة النحو واللغة البصريين ، كذلك عُرف بأخذه بمذهب الاعتزال ، وقد اتصل بأبي ذُلف العجليّ وأدب ولده ، وكان له نشاط كبير في التأليف ؛ إذ يُنسب إليه عددٌ كبير من الكتب ، يدور كلُّه حول : النحو ، وغريب اللغة ، ومعاني القرآن وإعرابه ، ويقال إنه أول من ألف في المثلث في اللغة . وكانت وفاته في سنة ٢٠٦ .^(١)

وقد روى له ياقوت قطعيتين من الشعر ، لا تدلان على طبقة عالية في الشعر ، ومع ذلك فإننا نجد قصيدة طويلة منسوبة إليه في كتاب « نور القبس » لليغموري^(٢) يناجي فيها الرسول ﷺ ويتحدث عن معجزاته ، ولسنا على يقين من أن هذه القصيدة له ، فهو لم يُعرف بهذا الطراز من الشعر ، ولكننا لا نرى بأساً في إثباتها :

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ مِنَّا تَحِيَّةٌ وَصَلَّى عَلَيْكَ الْعَابِدُ الْمُتَهَجِّدُ
فَأَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ هَادٍ وَمُهْتَدٍ نَبِيٌّ هُدَى ، لِلْأَنْبِيَاءِ مُؤَيَّدُ
وَقَدْ قَالَ « حَسَّانَ » وَفِي الشَّعْرِ شَاهِدٌ تُجَدِّدُهُ الْأَيَّامُ يُرَوِّى وَيُنْشِدُ :
« أَغْرَ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ مِنَ اللَّهِ مَشْهُورٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَأَعْطَاهُ مِنْ لَفْظِ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ قَدُّو الْعَرْشَ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ »

(١) ترجمة قُطرب في طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ص ٩٩-١٠٠ ، معجم الأدباء لياقوت ، ج ١٩ ، ص ٥٢-٥٤ ، بُيَّةُ الرُّعَاةِ للسيوطي ، ج ١ ، ص ٢٤٢-٢٤٣ ، والمعارف النحوية للدكتور شوقي ضيف ، ص ١٠٨-١١١ ، وروكلمان ، ج ٢ ، ص ١٣٩-١٤٢ .

(٢) أورد هذه القصيدة الينموري في : « نور القبس المختصر من المقتبس » بتحقيق رودلف زلهام ، النشرات الإسلامية ، سنة ١٩٦٤ ، ولم أتمكن من الرجوع إلى هذا المصدر ؛ فقللت القصيدة من كتاب : « شعر الدعوة الإسلامية » جمع وتحقيق الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجيثن ، الرياض ١٩٧٤ - ج ٣ ، ص ٥٣-٥٥ .

فَقُلْتُ شَبِيهَا بِالَّذِي قَالَ : إِنِّي به مؤمنٌ حقاً لِرَبِّي مُوحِّدٌ
فَلَا يُقْبَلُ التَّوْحِيدُ إِلَّا بِذِكْرِهِ لِيَقْرَنَهُ عِنْدَ النَّدَاءِ الْمُوَحِّدُ

ثم يسوق عدداً من معجزات الرسول التي أشارت إليها كتب السيرة ، والتي أصبحت موضوعاً يلج عليه كل من نظموا في المدائح النبوية ، مثل : حنين الجذع إليه ، وإضرار اللبن من الشاة العجفاء ، وخبر الإسراء ، وحديث العير التي مر بها وهو على البراق ، وتسليم الأحجار والجمادات عليه ، والسحابة التي كانت تظله والتي شهدا بحيرا الراهب :

وما جاء يدْعُونَا بِغَيْرِ دَلَالَةٍ ولكن بآياتٍ تَدُلُّ وَتَشْهَدُ
ومن ذاك جِدْعٌ حَنٌّ شَوْقًا إِلَى الرِّضَا فما زَالَ سَاعَاتٍ يَمِيلُ وَيُسْنِدُ
وقد سَمِعُوا صَوْتًا مِنَ الْجِدْعِ يَنِينًا فَيَا عَجَبًا مِمَّنْ يَشْكُ وَيُلْحِدُ
ومن ذاك شاةٌ خِلْوَةٌ الضَّرْعِ مَسْنَاهَا فَدَرَّتْ يَغْزِرُ حَافِلٍ يَتَرَبَّدُ
فَقَامَ إِلَيْهَا الْحَالِبَانِ فَأَتَرَعَا أَوَانِيَهُمَا وَالضَّرْعُ رَيَّانُ أَبْرَدُ
يَدٌ مَسَّتِ الْأَطْبَاءَ طَابَتْ وَبُورَكَتْ مُؤَيَّدَةٌ بِاللَّهِ وَهُوَ الْمُؤَيَّدُ
مُطَهَّرَةٌ التَّرْكِيبِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ مَبَارَكَةٌ الْأَفْعَالِ مَا مِثْلُهَا يَدُ
وسَارَ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَيْلَةً مَسِيرَةً شَهْرٍ وَارِدًا لَيْسَ يَطْرُدُ
يُخَبِّرُ بِالْعِيرِ الَّتِي فِي طَرِيقِهِ لِيُوقِنَ أَهْلُ الشَّرْكِ ذَاكَ فَيَسْعُدُوا
ومن ذاك أَخْبَارٌ عَنِ الْغَيْبِ قَالَهَا يُعَايِنُ مِنْهَا الصَّدُقُ فِيهَا وَيُوجَدُ
تُسَلِّمُ أَحْجَارٌ عَلَيْهِ فَصِيحَةٌ إِذَا مَا خَلَا فِي حَاجَةٍ يَتَفَرَّدُ
وَيَسْمَعُ مِنْ أَصْوَاتِهَا فِي طَرِيقِهِ تُمَجِّدُهُ ، إِنَّ النَّبِيَّ مُمَجَّدُ
وَأَنشَأَ رَّبِّي مَزَنَةً فَوْقَ رَأْسِهِ رَأَاهَا « بَحِيرَا » الرَّاهِبُ الْمُتَعَبَّدُ
تَظَلَّلَهُ مِنْ كُلِّ حَرٍّ يُصِيبُهُ تَقِيمُ عَلَيْهِ مَا أَقَامَ فَيْرَكُدُ
وإن سَارَ سَارَتْ لَا تُفَارِقُ رَأْسَهُ فَقَالَ لَهُمْ : هَذَا النَّبِيُّ مُحَمَّدُ

حليمٌ رحيمٌ لَيْنٌ مُتَوَاضِعٌ سَخِيٌّ حَيٌّ عَابِدٌ مَتَرَهَّدٌ
وكانَ رسولُ اللهِ قَوْقَ صِفَاتِنَا يُقَصِّرُ فِيهِ مِنْ يَقُولُ فَيَجْهَدُ^(١)
أبو العتاهية :

إسماعيل بن القاسم المعروف بكُنْيَتِهِ أبي العتاهية ، من أعلام شعراء العصر
العبَّاسيِّ الأوَّل ، وُلِدَ فِي سَنَةِ ١٣٠ وعاش في الكوفة مُخَالَطًا الْمَجَانَّ مِنْ
الشُّعْرَاء ، وَاتَّصَلَ بِالْخَلِيفَةِ الْمَهْدِيِّ وَنَالَ عَطَايَاه ، كَمَا اتَّصَلَ أَيْضًا بِالْهَادِي
وَالرَّشِيد ، وَحِينَمَا أَخَذَ مِنْهُ الْكِبَرُ انْتَقَلَ إِلَى حَيَاةِ الزُّهْد ، وَنَظَّمَ فِي ذَلِكَ أَشْعَارًا
كثيرة ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةَ ٢١٣ عَلَى الْأَرْجَحِ^(٢).

ومن بين هذه الأشعار الزُّهْدِيَّةُ قِطْعٌ التَفَتَ فِيهَا أَبُو الْعَتَاهِيَةِ إِلَى شَخْصِيَّةِ
الرَّسُولِ ﷺ ، مَادِحًا وَرَائِيًا عَلَى نَحْوِ يَكَادُ يَنْفَرِدُ بِهِ دُونَ شُعْرَاءِ عَصْرِهِ . ففِي
الْقِطْعَةِ الْأُولَى يَرَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَ النَّاسَ بِبَعَثِهِ رَسُولَهُ إِلَيْهِمْ ، فَهَمَّ جَدِيرُونَ
بِأَنْ يَكْرِموهُ جِزَاءً وَفَاقًا عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ كَانَ أَوْلَى بِالشُّعْرَاءِ أَنْ يَتَوَجَّهُوا
بِمَدِيحِهِمْ إِلَى الرَّسُولِ ، بَدَلًا مِنْ إِهْدَاءِ مَدَائِحِهِمْ إِلَى أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ^(٣) :

يا بني آدَمَ صُونُوا دِينَكُمْ	يَنْبَغِي لِلدِّينِ أَلَا يُطْرَحُ
وَاحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي أَكْرَمَكُمْ	بِنَبِيِّ قَامَ فِيكُمْ فَفَضَحُ
بِنَبِيِّ فَتَحَ اللَّهُ بِهِ	كُلَّ خَيْرٍ نَلْتَمُوهُ وَشَرَحُ
مُرْسَلٌ لَوْ يُوزَنُ النَّاسُ بِهِ	فِي الثَّقَى وَالْبِرِّ شَالُوا وَرَجَحُ
فِرْسُولُ اللَّهِ أَوْلَى بِالْعَلَا	وَرَسُولُ اللَّهِ أَوْلَى بِالْمَدَحِ ^(٤)

(١) خِلَوةٌ : خَالِيَةٌ ، يَتَرَدَّدُ الضَّرْعُ ، أَيْ ظَهَرَتْ فِيهِ لَمَعٌ سَوَادٌ وَبَيَاضٌ ، أَرَعَ : مَلَأَ ، مَزَّةٌ : سَحَابَةٌ ، يَجْهَدُ :
يَبْلُغُ الْمَشَقَّةَ . (٢) عَنْ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ ، انْظُرِ الْعَصْرَ الْعَبَّاسِيَّ الْأَوَّلَ لِلدَّكْتُورِ شَوْقِيِّ ضَيْفٍ ، ج ٣ ،
ص ٢٢٧-٢٥٣ ، وَبِرُوكْلَمَانَ ، ج ٢ ، ص ٣٤-٣٦ ، وَدِرَاسَةَ الدَّكْتُورِ مُحَمَّدٍ مَحْمُودِ الدَّشِّ : أَبُو
الْعَتَاهِيَةِ ، حَيَاتُهُ وَشِعْرُهُ ، الْقَاهِرَةُ ١٩٦٨ .

(٣) أَبُو الْعَتَاهِيَةِ : أَشْعَارُهُ وَأَخْبَارُهُ لِأَبِي بَكْرٍ الصَّنُولِيِّ ، بِتَحْقِيقِ الدَّكْتُورِ شَكْرِيِّ فَيْصَلٍ ، دِمَشْقَ ١٩٦٥ ،
ص ١٠٠ نَقْلًا عَنْ شِعْرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، ج ٣ ، ص ٥٥ . (٤) شَالُوا : خَفَّتْ كِفَتُهُمْ .

ولأبي العتاهية مراتٍ للرَّسول ﷺ تبدو لنا شيئاً فريداً في عصره ، ولرثاء الرَّسول ﷺ بعد مُضيِّ نحو قرنين على وفاته دلالةٌ خاصَّةٌ ؛ لأننا نرى الشَّاعر فيها يَستحضر شخصيَّة الرَّسول ﷺ كما لو كان قد مات لِتَوْه ، ونُحِسُّ في هذه المراثي حُباً وإخلاصاً بعيدين عن التَّكَلُّف ، ولعلَّ هذا الشَّعر يُغيِّر ما يكادُ يَتَّفِق عليه دارسو أبي العتاهية من أمر زَنَدَقَتَه . ولنتأمَّل هذه القطعة :^(١)

سَلامٌ على قَبْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	نَبِيِّ الْهُدَى والمُصْطَفَى والمُؤَيَّدِ
نَبِيِّ هَدَانَا اللَّهَ بَعْدَ ضَلَالَةٍ	به لم نَكُنْ لولا هُدَاهُ لِنَهْتَدِي
فَكَانَ رَسولُ اللَّهِ مِفْتَاحَ رَحْمَةٍ	مِنَ اللَّهِ أَهْدَاها لِكُلِّ مُوحَّدِ
وَكَانَ رَسولُ اللَّهِ أَفْضَلَ مَنْ مَشَى	على الأَرْضِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُخْلَدْ
شَهِدْتُ على أَنْ لا نُبُوَّةَ بَعْدَهُ	وَأَنْ لَيْسَ حَيٌّ بَعْدَهُ بِمُخْلَدْ

ويقول في قطعة أخرى تبدو ثمرةً لوقوفه على المشاهد النبوية في الحرمين:^(٢)

لَيْلِكَ رَسولَ اللَّهِ مَنْ كَانَ بِاَكْبَا	ولا تَنسَ قَبْرًا بالمدينةِ ثاوبا
جَزَى اللَّهَ عَنَّا كُلَّ خَيْرٍ مُحَمَّدًا	فقد كَانَ مَهْدِيًا دليلاً وهاديًا
ولَنْ تَسْرِي الذِّكْرَى بما هُوَ أَهْلُهُ	إِذَا كُنْتَ لِلْبُرِّ الْمُطَهَّرِ ناسِيا
أَتَنسَى رَسولَ اللَّهِ أَفْضَلَ مَنْ مَشَى	وأثارُهُ بالمَسْجِدَيْنِ كما هِيا
تَكَلَّرَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	عليه سَلامُ اللَّهِ ما كَانَ صَافِيا

القاسم بن يوسُف :

القاسم بن يوسُف الكوفي هو أخو الكاتب المشهور أحمد بن يوسُف ، أحد أعلام كُتَّاب الرِّسائل في عصر المأمون ، وكان أَسَنَ من أخيه . ويقول الصُّولي

(١) أبو العتاهية : أشعاره وأخباره ص ١١٦ ، عن شعر الدُّعُوَّة ج ٣ ، ص ٥٦ .

(٢) تَوْرَى بالمكان وفيه : أَقام ، وثاوباً ، واقفاً ، أبو العتاهية ، ص ٤٣٣ ، عن شعر الدعوة ج ٣ ، ص

عنه إنه أكثر شعراً منه وأفصح ، ولا سيما في فنٍ غريب انفرد به في عصره ، وهو رثاء البهائم ! كما يذكر أنه كان أحد متكلمي الشيعة . وجمع الصولي أشعاره ورتبها على حروف المعجم ، واختار منها مقتطفات كثيرة في كتاب « الأوراق » ، وكانت وفاته في نحو سنة ٢٢٠ .^(١)

وللقاسم قصيدة جعل جانباً كبيراً منها في المديح النبوي يقول فيها :^(٢)

أَلَا إِنَّ خَيْرَ بَنِي آدَمَ	نَبِيُّ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالْكَرَمِ
مُحَمَّدَ الْمُصْطَفَى وَالرَّسُولَ	إِلَى النَّاسِ مِنْ عَرَبٍ أَوْ عَجَمَ
فَأَدَّى الرِّسَالَةَ عَنْ رَبِّهِ	وَلَمْ يَتَّخِذْ مَلَّةً أَوْ سَأَمَ
فَنَوَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْهُدَى	وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيَاجِي الظُّلَمِ
بِأَحْمَدَ أَغْلَقَ بَابَ الضَّلَالِ	وَهَدَمَ أَرْكَانَهُ فَانْهَدَمَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَلَّى عَلَيْهِ	رَبُّ الْعِبَادِ وَبَارِي النَّسَمِ
وَأَمَّتْهُ جُعِلَتْ فِي الْكِتَا	بِ وَحْيًا مِنَ اللَّهِ خَيْرَ الْأُمَمِ

ويصل ذلك بالحديث عن آل البيت ، ويتفجع لما أصابهم من ظلم .

(١) ترجمة القاسم بن يوسف في الأوراق للصولي ، تحقيق هيوارت دن ، ص ١٦٣-٢٠٦ ، والأغاني حيث

يورد ذكره عرضاً في أثناء ترجمته لأخيه أحمد بن يوسف ، ج ٢٣ ، ص ١١٨ ، ومعجم الشعراء

للمرّزباني ، ص ٢١٦-٢١٧ .

(٢) الأوراق للصولي ، ص ١٩٢ .

الفصل الثالث

المولّد النبويّ والمولّديات

ليس الاحتفال بالموالد من التّقاليد الإسلاميّة الأصيلّة ؛ ولهذا فإن المسلمين لم يتخذوا من مولد الرّسول ﷺ مُبتدأً للتّاريخ الإسلاميّ ، كما فعلت المسيحيّة بالنّسبة لمولد السيّد المسيح ، وإنما اتّخذوه من الهجرة ، وهي - في الحقيقة - ميلادٌ للجماعة الإسلاميّة في المدينة ، ولكنّ احتكاك المسلمين بغيرهم من الأمم ، أصحاب الدّيانات القديمة ، جعلهم يتأثّرون ببعض عاداتهم ومنها الاحتفال بتاريخ المولد . ولسنا نعرف متى بدأ الاحتفال بمواليد الأشخاص في العالم الإسلاميّ ، ولكننا نعتقد أنّ ذلك بدأ في نحو منتصف القرن الرابع الهجريّ .

ويظهر أنّ الأصل في ذلك هو الاحتفال بالذّكرى السنويّة لحدّث جليل يَسْتَأْثِرُ باهتمام عامّة الناس ، وأنّ أوّل عيد من هذا النّوع هو احتفال الشيعة بالذّكرى السنويّة لعيد الغدير ، والمقصود غدير خُـم ، الذي قال رسول الله ﷺ فيه تلك العبارة المشهورة ، التي أصبحوا يستندون إليها في إثبات « الوصاية » لعلي بن أبي طالب (رضه) ، وهي : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ » . يقول المقرئ في « الخطط » : « وأوّل ما عُرِفَ هذا العيد في الإسلام كان في العراق أيّام مُعِزِّ الدّولة ابن بُوَيّه ، أحدثه في سنة ٣٥٢ فأتّخذته الشيعة عيداً منذ ذلك الوقت ، وهو يوم الثّامن عشر من ذي الحِجّة . »^(١)

(١) الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ .

وانتقل الاحتفال بهذا العيد من الشيعة الاثنا عشرية في العراق وفارس إلى الشيعة الإسماعيلية في مصر الفاطمية ، إذ يقول المقرئ أيضاً : « إن أول احتفال بعيد الغدير في مصر في أيام المعز لدين الله الفاطمي كان سنة ٣٦٢ ، وهي التي قدّم فيها من إفريقية إلى مصر . »^(١) وفي السنة التالية انتقل إلى مصر أيضاً الاحتفال بالذكرى السنوية لمصرع الحسين في يوم عاشوراء ، وذلك بالثياحة وخروج المنشدين وإعلان ماتم الحزن وتعطيل الأسواق^(٢) . واستمر الاحتفال بهذين العيدين في العراق وإيران حتى اليوم ، وفي مصر الفاطمية حتى نهاية هذه الدولة ، وإن كان قد قُطِعَ خلال بعض السنوات^(٣) ، وظلّت بقايا من الاحتفال بيوم عاشوراء بمآتمه الصاخبة في القاهرة حتى عهد قريب^(٤) .

ويُلحق بذلك الاحتفال بأعياد ميلاد الأشخاص ، وهي عادة لا ندري مبدأها على وجه التحديد ، ولكننا نراها منتشرة في العراق وإيران في ظلّ الدولة البويهية ، وكانت تُسمّى « التحويل » ؛ أي مرور حَوْلٍ على مولد الشخص . وفي « يتيمة الدهر » للثعالبي رسالة لإبراهيم بن هلال الصّابي يهنئ فيها عضد الدولة (ت ٣٧٢) بتحويل سنّته^(٥) ، وفي ديوان الشريف الرضي تهنئة لبهاء الدولة (ت ٤٠٣) بالتحويل^(٦) ، وكذلك في ديوان الشريف المرتضى قصائد عديدة في تهنئة جلال الدولة (ت ٤٣٥) والوزير أبي

(١) أتماظ الحفّا ، ج ١ ، ص ١٤٢ . (٢) أتماظ الحفّا ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٣) أتماظ الحفّا في الكلام عن أحداث سنوات ٣٨١ - ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ،

٤١٥ (ج ١ ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، و ٢٤٢/٢ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٩٣ ، ١٦٨) .

(٤) وصف الدكتور زكي مبارك مشاهد من الاحتفال بيوم عاشوراء ، ومنها المواكب التي كانت تطوف بمسجد الحسين بالقاهرة ، وهم يعلنون بالبكاء والنواح وقد خَضَبُوا أجسادهم بالدماء ويكون وبصرخون وهم يسمعون سيرة الحسين وقصة مصرعه ، وذلك خلال السنوات الأولى من هذا القرن . انظر المذاهب النبوية ، ص ٧٠ .

(٥) يتيمة الدهر للثعالبي ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ . (٦) ديوان الشريف الرضي ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

سعد بن عبد الرَّحِيم (ت ٤٤٧) بمثل هذه المناسبة ^(١).

المَوْلِدِيَّات في المَشْرِق :

ولعلَّ بعض المُتَدَبِّين رأوا أنَّ الاحتفال بعيد مولد الرُّسُول ﷺ أوَّلَى من الاحتفال بمواليد الأفراد ، ويقول « آدم متر » إنَّ هذا الاحتفال بدأ منذ أوائل القرن الرَّابِع الهجريِّ ، ولكننا لا نراه يتَّخذ صفةً رَسميَّةً ، ولا نجد شواهدَ على الاحتفال به بشكل منتظم فيما بين أيدينا من مصادرٍ ، على حين نجد أنَّ الخلافة الفاطميَّة في مصرَ قد أوَّلَتْ اهتماماً كبيراً بعددٍ من الموالد ، أصبحت أعياداً رَسميَّةً ، وأهمُّها أربعة : مَوْلَد الرُّسُول ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأوَّل ، ومَوْلَد علي بن أبي طالب (رضه) ، ومَوْلَد فاطمة بنت الرُّسُول (رضه) ، ومولد الخليفة الحاضر .

وقد انقطع الاحتفال بهذه الموالد فترةً ، منذ أن وليَّ الوزارة الأفضَلُ بن بَدْر الجماليِّ ؛ إذ إنه كان سَنِيًّا ، غير أنهم عادوا للاحتفال بها بعد ذلك ، وكان للخليفة جلوس عامٌّ بهذه المناسبة . وقد وصف لنا المقرئُ بالتفصيل مَراسِمَ هذا الاحتفال الكبير ، وما كان يُقدَّم فيه من أطعمة ، وأشار إلى ما يُلقَى فيه من خُطَب وأشعار ^(٢).

ولا شكَّ في أنَّ التَّشْييع ، سواء منه الاثنا عشريُّ أو الإسماعيليُّ ، كان له أثرٌ في توجيه الاهتمام إلى المولد النَّبَوِيُّ ، وقد رأينا - فيما مرَّ بنا من شعر الشيعة وقصائدهم في مرثي الحُسين ، أو في الاحتجاج لحَقِّ آل البيت في الإمامة - أنها كانت تتَّخذ من وصف شمائل الرُّسُول ، والإشادة بالمناقب النَّبَوِيَّة مُنْطَلَقًا للحديث عن فضائل آل البيت ؛ ولهذا يُمكن اعتبار كثير من هذا

(١) ديوان الشَّريف المَرْتَضَى ، بتحقيق رشيد الصَّفَّار . القاهرة ١٩٥٨ - ج ١ ، ص ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٤٠ .

(٢) خُطَط المقرئِ ، ج ١ ، ص ٤٣٢-٤٣٣ ، وكذلك : صَبِيحُ الأَعْنَى للقلقَشْنَدِي ، ج ٣ ، ص

الشعر الشيعي ضرباً من المدائح النبوية ، أو على الأقل نرى فيه نواة مبكرة لهذه المدائح .

وحينما نؤمن النظر في الفكر الشيعي الإسماعيلي ، الذي كان مذهب الدولة الرسمي في ظل الدولة الفاطمية بمصر ، نجد أن فكرة الحقيقة المحمدية ، التي سوف نراها ماثلة بعد ذلك في المدائح النبوية المتأخرة منذ القرن السابع ، تبدو كامنة في كتابات دعاة الفاطميين . ولتر كيف يُفسر المؤيد في الدين الشيرازي داعي الدعاة (المتوفى في القاهرة سنة ٤٧٠) الآية القرآنية الكريمة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ... » (سورة النساء ، آية ١) :

« قال المفسرون : النفس الواحدة التي خلق الناس منها : آدم ، وزوجه المخلوقة منه : حواء . ونحن نقول إنه في ضمن الآية من معنى الحكمة التنبيه على منازل النبي والوصي والأئمة . وقوله : خلقكم من نفس واحدة ، النفس الواحدة التي خلقنا منها خلق الدين : هو النبي ﷺ . والزواج المخلوقة منه ضلعاً من أضلاعه ، ككون حواء ضلعاً من أضلاع آدم (عليه السلام) هو وصيه (عليه السلام) الذي كان أحد حجب فصار زوجاً له ، حاملاً لعلمه ، وخازناً لسره ، ومستودعاً لعلمه وحكمته . » (١) فنحن نرى من هذا النص كيف يورد تفسير الآية على ظاهرها ثم يؤولها تأويلاً باطنياً ، فيرى النبي ﷺ أصلاً « في الخلق الديني » (أي الروحي) ، وأن علياً هو المنبثق منه . وسنرى كيف يلتقي الفكر الصوفي لدى ابن عربي مع هذا الفكر الإسماعيلي .

والواقع أن نواة هذه الفكرة الصوفية توجد منذ قديم لدى الحسين بن منصور الحلاج ، (ت ٣٠٩) الذي ربما كان أول معبر عنها ؛ إذ كان يرى

(١) المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران الشيرازي : المجالس المؤيدية ، تلخيص حاتم بن إبراهيم ، تحقيق

محمد عبد القادر عبد الناصر ، القاهرة ١٩٧٥ ، المجلس ٧٩ ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، وكذلك :

المجلس ١٧ ، ص ٩٤-٩٧ .

أنَّ الرُّسُولَ ﷺ بِحَقِيقَتِهِ الْمَحْمُودِيَّةِ ، لَا بِصُورَتِهِ الْجَسَدِيَّةِ ، يُعَدُّ مَبْدَأَ الْعَالَمِ ؛ إِذْ هُوَ النُّورُ الَّذِي تَفَجَّرَتْ مِنْ يَنَابِيعِهِ جَمِيعُ أَنْوَارِ النَّبَوَّاتِ ، وَ وَجُودُهُ هُوَ السَّابِقُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ .^(١)

وَحِينَمَا قَضَى صِلَاحَ الدِّينِ الْأَيُّوبِي عَلَى الْخِلَافَةِ الْفَاطِمِيَّةِ فِي سَنَةِ ٥٦٧ وَأَبْطَلَ رَسُومَهَا وَأَعْيَادَهَا ، لَمْ يَسْتَقْبِ مِنْ هَذِهِ الْأَعْيَادِ إِلَّا الْمَوْلَدَ النَّبَوِيَّ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ رَاجَعَ إِلَى عَمَقِ الشُّعُورِ الدِّينِيِّ لَدَى الْمَصْرِيِّينَ ، وَإِلَى التَّأَثُّرِ الْمُتَزَايِدِ لِلْحَرَكَاتِ الصُّوفِيَّةِ فِي مِصْرَ وَمَا جَاوَرَهَا مِنَ الْأَقْطَارِ . فَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الْفَتْرَةَ مِنْ أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ ، كَانَتْ هِيَ الَّتِي بَدَأَتْ فِيهَا الطَّرِيقُ الصُّوفِيَّةُ تَتَّخِذُ شَكْلَ مُؤَسَّسَاتٍ مُحَكَّمَةِ التَّنْظِيمِ ، وَشَرَعَتْ تَسْتَهْوِي قُلُوبَ النَّاسِ ، وَمِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ : الْقَادِرِيَّةُ ، طَرِيقَةُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٦١) ، وَالرُّفَاعِيَّةُ ، طَرِيقَةُ أَحْمَدَ الرُّفَاعِيِّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٧٨) ، وَشَجَّعَ صِلَاحُ الدِّينِ نَفْسَهُ هَذِهِ الْحَرَكَاتِ ؛ فَقَدْ أَقَامَ أَوَّلَ خَانِقَاهُ لِلصُّوفِيَّةِ فِي سَنَةِ ٥٦٩ ، وَوَقَّفَ عَلَيْهِ أَوْقَافًا كَثِيرَةً . وَظَهَرَ فِي مِصْرَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فِي أَوَاخِرِ الْعَصْرِ الْفَاطِمِيِّ ابْنُ الْكَيْزَانِيِّ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٥٦٢) وَفِي الْعَصْرِ الْأَيُّوبِيِّ سُلْطَانُ الْعَاشِقِينَ ، عُمَرُ بْنُ الْفَارَضِ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦٣٢) .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مِنَ الْعَوَامِلِ الَّتِي أَعَانَتْ عَلَى نَشْرِ التَّصَوُّفِ ، وَحَمَلَتْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْعُودَةِ إِلَى شَخْصِيَّةِ الرُّسُولِ ﷺ وَسِيرَتِهِ ، يَسْتَخْلَصُونَ مِنْهَا الْعِبْرَةَ ، وَيَسْتَمِدُّونَ مِنْهَا الْعَوْنَ ، هُوَ تَعَرُّضَ عَالَمِ الْإِسْلَامِ لِتِلْكَ الْهَجَمَاتِ الْجَائِحَةِ الَّتِي نَفَذَتْ إِلَى صَمِيمِ الْبِقَاعِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ ، وَالَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي الْمَغُولِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَالصَّلِيبِيِّينَ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ ؛ فَقَدْ أَيْقَظَتْ هَذِهِ الْهَجَمَاتُ - الَّتِي اسْتَهْدَفَتْ الْإِسْلَامَ فِي عَقْرِ دَارِهِ - مَشَاعِرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلَتْ لِلْمُتَصَوِّفَةِ فِي نَفُوسِ الشَّعْبِ مَكَانَةً رَاسِخَةً مَرْمُوقَةً ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّ

(١) لِّلْمَشْرِقِيِّينَ دَرَسَةٌ طَوِيلَةٌ قِيَمَةُ اللَّحَاجِ وَمِحْنَتُهُ ، نَشَرَتْ فِي بَارِيسَ سَنَةَ ١٩٢٢ ، وَانْظُرْ تَارِيخَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، الْعَصْرِ النَّبَاسِيِّ الثَّانِي ، ج ٤ ، ص ٤٨١ ، حَيْثُ يَقْدَمُ خُلَاصَةً لِفِكْرِهِ .

الكثيرين منهم كانوا يتصدّرون صفوف المجاهدين . ولعلّ المسلمين في مصر والشّام بصفة خاصّة رأوا كيف يُمجّد الصّليبيّون شخصيّة المسيح (عليه السّلام) ويقدّسون رموز المسيحيّة ، فحرّصوا بدورهم على ألا يكونوا دونهم تمجيداً لمحمّد ﷺ ولهجاً باسمه .

وربما كان من أولى قصائد المديح التي أنشئت خالصةً للرّسول ﷺ خلال العصر الفاطمي ، دون أن يكون المديح فيها تابعاً لتعداد مناقب آل البيت أو رثائهم ؛ القصيدة المعروفة بـ « الشّقراطيّة » ، نسبةً إلى مؤلفها أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن يحيى الشّقراطيّ التّوزري ، وكان فقيهاً مالكيّاً وشاعراً ، وُلد بتوزر (في تونس) وأخذ عن علماء القيروان ، ثم رحل إلى مصر ، وخاض هناك معركة ضدّ الفرنج وعاد إلى توزر ، حيث اشتغل بالتدريس والإفتاء إلى أن توفّي سنة ٤٦٦ . وقصيدته في المديح النبويّ هي التي ختم بها كتابه « الإعلام بمعجزات النّبيّ عليه السّلام » ، ومطلعها : « الحمد لله مِنّا باعث الرّسل » ، وتقع في ١٣٥ بيتاً .

وقد اهتمّ بها الأدباء بعد ذلك اهتماماً كبيراً ؛ فقد أحصى بروكلمان ستّة شروح لها ، أحسنّها شرحُ أبي شامة (ت ٦٦٥) ، وشرح محمد بن علي بن الشّباط ، المُسمّى « صِلَة السَّمْطِ وَسِمَة المِرْطِ » ، في شرح سِمْط الهديّ في الفخر المحمديّ » ، وشرح ابن عزيمة الإشبيليّ (المتوفّي سنة ٥٤٣) ^(١) كما اهتمّ الشعراء بتخميسها وتشطيرها . ولعلّ هذه القصيدة كانت ممّا يردّده المنشدون في الاحتفالات التي كانت تقام إبّان العصر الفاطميّ بالمولد النبويّ . وقد سبق أن ذكرنا أن صلاح الدين الأيوبي حينما قضى على الدّولة

(١) عن الشّقراطيّ انظر الثّيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشيّ ، ج ٦ ، ص ٣٥٩ ، ونفح الطّيب للمقريّ ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، و بروكلمان ، ج ٥ ، ص ١٠٨ ، ومقدمة الدكتور أحمد مختار العبادي لتاريخ الأندلس لابن الكردبوس و وصفه لابن الشّباط . مدريد ، ١٩٧١ ، ص ١٦-١٨ ، والأعلام للزّركليّ ، ج ٤ ، ١٤٤ ، وانظر قهرّسة ابن خير ، ص ٤١٩ .

الفاطميّة ، ومحا رسومها ، لم يستبق من الأعياد التي استحدثتها إلا عيد المولد النبويّ ، الذي ظلّ المسلمون في شرق العالم الإسلاميّ يحتفلون به ، على أننا لا نلبث أن نرى هذا العيد يتخذ طابعاً من الجلال والفخامة لا عهد لنا به من قبل ، على يد قائد من قوَاد صلاح الدين وكبار رجاله ، هو الملك المظفّر أبو سعيد كوكبوري بن علي كُجَك صاحب مدينة إربل بقرب الموصل ، وكان من القوَاد الذين شاركوا صلاح الدين في كثير من مشاهدِهِ وقائعه ، وأبدى شجاعة ونجدة ، مثل موقفه معه في معركة حطين ، فكافأه صلاح الدين بأن أعاده إلى ولاية إربل بعد خلّعه عنها في سنة ٥٨٦ .

ومع أن ياقوت لم يُخلِه من النقد مُتَّهِماً إِيَّاه بِعَسْفِ الرِّعْيَةِ ، فإن ابن خَلْكَان أثنى عليه ثناءً مُستفيضاً ، فقال إنّ سيرته كانت عجبية في فعل الخيرات ، وإفشاء الصدقات ، وبناء الخانقاهات للمرضى والعميان والأيتام والأرامل واللّقطاء ، وإنشاء المدارس وروابط الصّوفيّة ، وغير ذلك من أعمال البرّ والعُمران . ويضيف ابن خَلْكَان إلى ذلك قوله : « وأما احتفاله بمولد النّبيّ ﷺ فإن الوصف يَقتصر عن الإحاطة به . » ثم يُفصّل هذه العبارة ، فيذكر أنه كان يصل إليه كلّ سنة من البلاد القريبة من إربل خلُق كثير من الفقهاء والصّوفيّة والوعاظ والشّعراء ، ويقوم بنصب قباب من الخشب من طبقات عديدة يُزيّنها بالزينة الفاخرة ، ويُقعد في كلّ قبة جَوْقاً من المغاني وأرباب الخيال (خيال الظل) لأصحاب الملاهي ، ويُعمل السّماعات في ليلة المولد ، ويقوم الوعاظ والخطباء والشّعراء بإلقاء مواعظهم وأشعارهم ، فإذا فرغوا جَهّز كلّ من قدِم منهم بنفقة ومال ليعود إلى بلده .^(١)

وهكذا يتحوّل الاحتفال بالمولد النبويّ على يد هذا الأمير التُركماني الأصل ، إلى مهرجانٍ شعبيّ على أعظم جانبٍ من الفخامة والبهجة ، ويذكر

(١) انظر معجم البلدان لياقوت ، ج ١ ، ص ١٣٨ (مادة إربل) ، وترجمة كوكبوري في وثائق الأعيان

ابن خَلِّكان بعد ذلك أن الأديب المُحدِّث الأندلسيَّ ، أبا الخطاب عُمر بن الحسن المعروف بابن دِحْيَة الكلبي (ت ٦٣٣) ، قدّم على الأمير كُوكبوري بإربل في سنة ٦٠٤ ، ولما رآه مولعاً بالاحتفال بالمولّد النبويّ ألف له كتاب « التّؤيّر في مولّد السّراج المنير » وقرأه عليه بنفسه . ولعلّ هذا هو أوّل كتاب في هذا النّوع من التّأليف الذي توالّت بعده كتب « الموالّد » . وظلّ الملك المظفّر يقرأ كتاب ابن دِحْيَة في مشهدٍ حافل في أيّام المولّد من كلّ سنة ، حتى إن ابن خَلِّكان يقول إنه سمعه منه في ستة مجالس سنة ٦٢٥ .^(١)

وهكذا يمكن أن نقول إن الفضل الأكبر في الاحتفال بالمولّد النبويّ على هذا النّحو الرّسميّ والشّعبيّ ، وإشاعة هذا الاحتفال في العالم الإسلاميّ ببلاد المشرق ، هو هذا الأمير الذي عاش في النّصف الثاني من القرن السّادس والثّلث الأوّل من القرن السّابع (عاش بين سنتي ٥٤٩ و ٦٣٠) .

وكان ذلك منطلقاً لحركة شعريّة واسعة النّطاق ، موضوعها تلك المدائح النبويّة مما كان يُنشد بمناسبة هذه الاحتفالات ، التي أصبحت منذ ذلك الوقت تقليدًا ثابتاً في جميع بلاد المشرق في العراق والشّام ومصر ، حتى إننا نرى دواوينَ كاملة تُفرّد لهذا الموضوع ، وشعراءٌ كادوا يتخصّصون فيه .

وربما كان من أوّل هؤلاء الشعراء جمال الدين يحيى بن يوسف الأنصاري ، المعروف بالصرّصريّ (نسبةً إلى صرّصر ، وهي قرية قرب بغداد) الذي وُلد سنة ٥٨٨ ، واستشهد عندما اقتحم مغول هولاكو بغداد وأطاحوا بالخلافة العبّاسيّة سنة ٦٥٦ . ويقول عنه ابن شاعر الكُتّبيّ : « إنه صاحب المدائح النبويّة السّائرة في الآفاق ، لا أعلم شاعراً أكثر من مدائح النّبيّ ﷺ أشعر منه ، وشعره طبقة عالية . »^(٢) ثم يفتّطف من مدائحه النبويّة قدراً موفوراً ، منها قوله :

(١) وقيّات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٢٠ ، وج ٣ ، ص ٤٤٨-٤٥٠ .

(٢) قوآت الوقيّات ، ج ٤ ، ص ٢٩٨-٣١٩ .

إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ أَهْدِي مَدَائِحِي فَتَكْسِبُ مِنْ رِيَاكَ نَشْرًا مُؤَرَّجًا
وَتُلْبِسُهَا أَوْصَافَكَ الزُّهْرَ حُلَّةً الـ سِبْهَاءٍ وَرَوْضًا مِنْ حِلَاكَ مُدَبَّجًا
أُسُوتَ بِمَا بَيَّنْتَ دَاءَ قُلُوبِنَا كَمَا كُنْتَ تَأْسُو قَبْلَ أَوْسَا وَخَزَرَجَا
وَكُنْتَ نَبِيًّا قَبْلَ آدَمَ مُرْتَجَى لِتَفْتَحَ بَابًا لِلْهُدَايَةِ مُرْتَجَا ^(١)

ونحن نراه في البيت الأخير يُشير إلى الحديث النبوي : « كنت نبيا و آدم بين الماء والطين ^(٢) » ، ثم يناجي الرسول ﷺ مُسْتَشْفِعًا به فيقول :

أَجِرْنِي فَقَدْ أَصْبَحْتُ فِي زَمَنٍ لَهُ عُرَامٌ لِأَهْلِ الْجِلْمِ أَصْبَحَ مَزْعِجَا
وَلَسْتُ أَرَى خِلَا مَعِينَا أَهْلُهُ شُجُونِي فَمَا أَرْدَادُ إِلَّا تَوَهُجَا
لَأَنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْجَحُ شَافِعٍ لِدَفْعِ الْمِلَمَاتِ الشَّدَائِدِ تُرْتَجَى ^(٣)

وفي قصيدة أخرى يتجلى دافعُ نَفْسِي لِلْإِكْثَارِ مِنْ هَذِهِ الْمَدَائِحِ الَّتِي عَبَّرَ الشُّعْرَاءُ فِيهَا عَمَّا كَانَتْ تَقَاسِيهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ كَوَارِثَ ، مَا بَيْنَ هِجَمَاتِ شَرَسَةِ أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ ؛ مِنَ الصَّلَيبِيِّينَ مِنْ نَاحِيَةِ وَمِنَ التُّتَارِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى ، ثُمَّ مِنْ فِسَادِ كَثِيرٍ مِنَ الْحُكُومَاتِ وَظُلْمِهَا لِلرَّعِيَّةِ ، فَالْبَصْرَصَرِيِّ لَا يَرَى مَلَاذًا لَهُ وَلِلْأُمَّةِ مِنْ تِلْكَ الْأَهْوَالِ إِلَّا فِي التَّوَسُّلِ إِلَى الرَّسُولِ ، يَبْنِيهِ تِلْكَ الْأَلَامَ :

يَا خَيْرَ مِنْ بَرٍّ أَلْمِهُنَّ وَارْتَضَى لِبَلَاغِ حُجَّتِهِ الَّتِي لَا تُقْطَعُ
أَشْكُو إِلَيْكَ - وَأَنْتَ تَعْلَمُ - فَتَنْتَهَ كَادَتْ لَهَا الصُّمُّ الصَّلَابُ تَصْدَعُ

(١) الرِّثَا : الرائحة الطيبة ، والنَّشْرُ : الريح الطيبة أو الريح عموماً . يقال له نَشْرٌ طيب ، والمُؤَرَّجُ : المعطر والمتطيب ، والزُّهْرُ : جمع أزهر وزهراء ، وهو الثَّيَرُ والصَّافِي اللون ، أو المشرق الوجه ، والمدَّبَّجُ : المزِين بالنبات ، وهو الثوب من الحرير الدخايل ، وأُسُوتَ : داوَّنت ، مُرْتَجَى : مغلَق .

(٢) صحيح البخاري ، أدب : ١١٩ ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة : ٢٨ ، مسند أحمد بن حنبل ، ٤ رقم ٤٠٦ . (٣) العُرَامُ هنا : الشَّرَاسَةُ والأذى . يقال « به شِرَّةٌ وغَرَامٌ » أي شراسة وأذى ، والمِلَمَاتُ : جمع مُلِمة وهي النازلة الشديدة من نوازل الدنيا .

فِيمَنْ أَعَزَّكَ وَاصْطَفَاكَ فَأَجَزَلَ الـ سُنْعَمَى عَلَيْكَ فَحَوْضُ فَضْلِكَ مَتَرَعُ
سَلِّ جَبَر أَمَلِكَ الْكَسِيرَةَ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي قَوْسِ التَّجَلُّدِ مَنَزَعُ
مَحَقَّتْ طُغَاةَ التُّرْكِ أَطْرَافَ الْقُرَى فَاِلْمَالُ نَهَبَ وَالْمَنَازِلُ بَلْقَعُ
وَاشْفَعُ إِلَى الرَّحْمَنِ فِي عُقْرَانِ مَا هَذِي عُقُوبَتُهُ فَأَنْتَ مُشَفِّعُ^(١)

فنحن نرى الشاعر هنا - وكأنه ينطق باسم الأمة كلها - يتحدث عما
أصاب البلاد من اجتياح التُّرك ، ويعني بهم المغول الذين قُدِّرَ أن يكون الشاعر
نفسه واحداً من أولى ضحايا اكتساحهم لبغداد .

وكما ارتبط المديح النبوي في العراق بصلاح الدين الأيوبي ، وبالرجال
الذين حَقَّقُوا به وشاركوا في جهاده الإسلامي ، كذلك كان الأمر في بلاد
الشَّام ومصر . ففي هذه الفترة من أواخر القرن السادس وأوائل السَّابع نجد
في الشَّام كَوَكْبَةً من كبار الشعراء الذين نَظَّمُوا في هذا الفن كثيراً من
قصائدهم ، منهم علي بن محمد الدَّمَشَقِيُّ المعروف بابن السَّاعَتِي
(عاش بين ٥٥٣ و ٦٠٤) وهو الذي تَنَبَّأ له بفتح القدس ، وهنَّاه بعد ذلك
بهذا الفتح العظيم وغير ذلك من انتصاراته^(٢) ، كما نرى في قوله :

لَقَدْ سَاعَ فَتَحُ الْقُدْسِ فِي كُلِّ مَنْطِقٍ وَشَاعَ إِلَى أَنْ أَسْمَعَ الْأَسَلَ الصَّمَا
فَلَيْتَ فَتَى الْخَطَابِ شَاهِدَ فَتَحِهَا قَيْشَهْدَ أَنَّ السَّهْمَ مِنْ يُوسُفٍ أَصْمَى^(٣)

(١) برأ : خلق ، الصَّمُ الصَّلَاب : الصُّخُور الصَّلْبَة ، مَتَرَع : مليء ، وجَبَر : سلامة ، خِلَاف الكسر ، ولم يبق
في قَوْسِ التَّجَلُّدِ مَنَزَع : كناية عن فروغ الصَّبَر . محقت : أهلكت ومحت ، وبلقع : فقر خالية من
مظاهر الحياة .

(٢) عن ابن السَّاعَتِي انظر : عصر الدَّول والإمارات للدكتور شوقي ضيف ، ج ٦ ، ص ٦٤٠-٦٤٢ ،
وبروكلمان ، ج ٥ ، ص ٤٩-٥٠ .

(٣) ساع : حلا ، الأسَل : الرماح ، فتى الخطاب يعني عمر بن الخطاب (رضه) الذي تم في عهده فتح
بيت المقدس ، يوسف هو اسم صلاح الدين الأيوبي ، أصمى : أصاب .

وكان ابن السَّاعَتِي من عارضوا قصيدة كعب بن زهير بمدحة نبوية يكرّر فيها ما استقرّ لدى المتصوّفة في أمر الحقيقة المحمّدية ، وأن الرّسول ﷺ هو جوهر الوجود وعِلّة الكون ، وأنه صاحب الشّفاة ، والذي بشرت به الكتب السماوية السابقة :

هُوَ الْبَشِيرُ النَّذِيرُ الْعَدْلُ شَاهِدُهُ	وَالشَّهَادَةُ تَجْرِيجٌ وَتَعْدِيلُ
لَوْلَاهُ لَمْ تَكْ لَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ	وَلَا الْفُرَاتُ وَجَارَاهُ وَلَا النَّيْلُ
وَسَيِّدُ الرُّسُلِ حَقًّا لَا خَفَاءَ بِهِ	وَشَافِعٌ فِي جَمِيعِ النَّاسِ مَقْبُولُ
بُثَّتْ نُبُوَّتُهُ الْأَخْبَارُ إِذْ نَطَقَتْ	فَحَدَّثَتْ عَنْهُ تَوْرَةُ وَإِنْجِيلُ ^(١)

ومن شعراء الشّام أيضاً في هذه الفترة فِتْيَانُ الشّاعُورِيِّ (المتوفى سنة ٦١٥)^(٢) ، وكان شيعي المذهب ، ومع ذلك فقد كان معلماً لابن أخي صلاح الدين ، وفي ديوانه تلتقي مراثي الحسين وآل البيت مع المديح النبوي ، الذي يُعبّر فيه عن شوقه لزيارة قبر الرّسول ﷺ وتغفير خطئه في ترابه :^(٣)

أَوْمَلُ مِنْ خَيْرِ الْأَنَامِ شَفَاعَةً	بِهَا فِي نَعِيمٍ بِالْجَنَانِ أَخْلَدُ
وَدِدْتُ بِأَنِّي زُرْتُ قَبْرَكَ رَاجِلًا	وَقَبِلْتُ تَرَبًّا أَنْتَ فِيهِ مُوسِدُ

ويكاد المديح النبوي منذ بداية القرن السابع يكون موضوعاً لا يتخلّف عنه شاعر في مصر ، فمنهم المقلّ ومنهم الكثير ، ومنهم من كانوا يُفردون له دواوين كاملة ، وأعان على ذلك ازدهار الفكر الصوفيّ والقبول العظيم الذي لقيته الطّرق الصّوفيّة ، التي كانت حلقاتها تعمل على استشارة المواجد بإنشاد « السّماعات » وترتلها ، وطبيعي أن يكون الكثير من هذه السّماعات في المديح النبوي ، ويرز في مصر في الثّلاث الأوّل من القرن السابع صوفيها

(١) عصر الدّول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٧٦١ .

(٢) عن فِتْيَانِ الشّاعُورِيِّ انظر : عصر الدّول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٦٧١ ، وروكلمان ، ج ٥ ، ص ٥٠ .

(٣) عصر الدّول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٧٦١ ، راجلاً : ماشياً .

الكبير عمر بن الفارض (المؤفى سنة ٦٣٢) ^(١) ، وهو الذي كان أكثر تغنيّه بالحبّ الإلهي .

وإذا كان هذا الحبّ هو الذي استغرق كلّ حواسّه واستأثر بنتاجه الشعريّ ، فإنّ شعره لا يخلو من إشارات إلى الرسول ﷺ يذكر فيها - في لغة معقّدة تشيع فيها الرموز - أن كلّ الأنبياء السابقين إنما كانوا تبعاً لمحمد ﷺ ، ويفرق بين نبوتهم ورسالته على نحو ما نرى في تأييده الكبرى : ^(٢)

وجاءَ بأسرار الجميع مُفِيضُهَا عَلَيْنَا لَهُمْ خَتَمًا عَلَى حِينِ قَتْرَةٍ
وما منهمُ إلا وقد كانَ داعياً به قَوْمُهُ لِلْحَقِّ عَنْ تَبَعِيَّةِ
فعالمنا منهم نبيٌّ ومَنْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ مِنَّا قَامَ بِالرُّسُلِيَّةِ
وعارفنا في وَفْتِنَا الْأَحْمَدِيِّ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنْهُمْ أَخَذَ بِالْعَزِيمَةِ
وما كانَ منهم مُعْجِزًا صَارَ بَعْدَهُ كَرَامَةً صِدِّيقٍ لَهُ أَوْ خَلِيفَةٍ
كراماتهمُ من بَعْضِ ما خَصَّصَهُمْ بِهِ بِمَا خَصَّصَهُمْ مِنْ إِرْثِ كُلِّ فَضِيلَةٍ

فهو يرى أن الأنبياء السابقين استمدوا من محمد ﷺ معجزاتهم التي أصبحت كراماتٍ لدى صحابته وأوليائه من بعده .

البوصيري :

ويطول بنا الأمر لو عددنا شعراء المديح النبويّ على طول القرن السابع وما بعده ، غير أن هناك من هؤلاء الشعراء من يستحقّ منا وقفة خاصة ؛ لمعق تأثيره على هذا الفنّ في العصور التالية ، بل حتى اليوم ، ونعني به شرف الدين البوصيري .

(١) عن ابن الفارض انظر : عصر الدول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٣٥٧-٣٦١ ، وهركلمان ج ٥ ، ص

٦٧-٧٧ .

(٢) ديوان ابن الفارض ، ص ٥٩-٦٠ .

وهو محمد بن سعيد بن حمّاد الصنّهاجيّ (نسبةً إلى هذه القبيلة البربريّة التي تدلّ على أصله المغربي) ، وُلد في دلاص ، وهي قرية تقع غربيّ النيل وتتبع البهنسا ، في نحو سنة ٦٠٨ ، واشتغل كاتباً في بلبس (بمحافظة الشّرقية) ، ثم عاد إلى القاهرة فاحترف إقراء القرآن ، ومدح بعض وزراء الدّولتين الأيوبيّة والمملوكيّة وبعض ولاة الأقاليم المصريّة ، وكان كثيراً ما يشكو حاجته وفقره ، ويهجو موظفي الدّواوين ، ويذكر مساوئهم وخياناتهم في أسلوب فكّه ظريف . وقد امتدّت الحياة به حتى توفيّ سنة ٦٩٨ على الأرجح ^(١).

وقد اتّصل البوصيريّ بالشّيخ أبي الحسن الشاذليّ ، صاحب الطّريقة الصّوفيّة المشهورة المنسوبة إليه ، فلما توفيّ الشّيخ لازم تلميذه و وارث طريقتِهِ أبا العباس المُرسِيّ وليّ الإسكندريّة الكبير ، وانتظم في سلك مُريديه ، ومدح هذين الشّيخين بشعر يبدو فيه صدقُ عقيدته فيهما ؛ إذ يشبّههما ، في الهداية واستقامة الطّريقة ، بموسى ويوشع :

اليومَ قامَ فتى عليّ بعده كيما يُبلّغَ مُرشدَ عن مُرشدِ
فكأنّ يوشعَ بعدَ موسى قائم بطريقِهِ المثلى قيامَ مُؤكّدِ

ولم يكن البوصيريّ صوفياً ، وإنما كان رجلاً يضطرب في الحياة ، ويسعى لكسب رزقه سعياً رجال الدّنيا ، ولكنه كان رجلاً فيه صلاحٌ وطيبة ، أمّا ثقافته فكانت متوسطة .

وإن كنّا نسجّل له عنايته بدراسة أديان أهل الكتاب ، كما يبدو من قصيدته اللاميّة الطويلة (في مائتين وسبعين بيتاً) التي ردّ فيها عليهم وفدّ ما رمّوا به الإسلامَ ورسوله عليه الصّلاة والسّلام ، كذلك يُذكر له أنّ اثنين من كبار

(١) عن البوصيريّ انظر : عصر الدول والإمارات ، ج ٦ ، ص ٣٦١-٣٦٥ ، ومقدمة ديوانه الذي قام بتحقيقه الأستاذ محمد سيد كيلانيّ ، القاهرة ١٩٥٦ ، وهرزكلمان ، ج ٥ ، ص ٨١-١٠٤ .

العلماء قد أخذوا عنه ؛ وهما ابن سيّد النَّاسِ (المتوفى سنة ٧٣٤) وهو صاحب السِّيرة المشهورة ، وأبو حَيَّانَ الغَرْنَاطِي (المتوفى سنة ٧٤٥) إمام النَّحو والتَّفْسِير . على أن أخذَهُما عنه لم يكن لِقَضَلِ عِلْمٍ فيه ، وإنما لِصَلاحِهِ وروايَةِ لِمَدائِحِ النَّبَوِيَّةِ .

وللبوصيري قصائدٌ عديدة في المديح النَّبَوِيَّةُ ، منها ما نظَّمه قبل توجُّهِهِ لِلْحَجِّ ، وأهمُّها معارَضَتُهُ لكَعْبِ بن زهير ، ولا مِيتَهُ في الرَّدِّ على أهل الكِتَابِ ، وقد ختمها بمدح الرُّسول ﷺ وبالتعبير عن شوقه لزيارته . وله قصائدٌ في أثناء رحلته لِلْحَجِّ وأمام الضَّرِيحِ النَّبَوِيَّةِ ، وعلى أثر أداء الفريضة . وبعد عودته إلى مصر نظَّم أشهرَ مدائحه ، وهما قصيدتان : هَمْزِيَّتُهُ التي سَمَّاها « أَمَّ الْقُرَى في مدح خير الورى » ، وَبُرْدَتُهُ التي دعاها « الكواكب الدُّرِّيَّةُ في مدح خير البرِّيَّةِ » .

أما الهَمْزِيَّةُ فإنها تبلغ أربعمئة وخمسة وخمسين بيتاً ، والشَّاعِرُ يبدوها بغير مقدِّمات ؛ فيتحدَّث عن فضل رسول الله ﷺ وتَقَدِّمِهِ على سائر الأنبياء ، ويكرِّر ما سبق أن رأيناه لدى الصَّوْفِيَّةِ ومُدَّاحِ الرُّسولِ السَّابِقِينَ من أمر الحقيقة المحمَّديَّةِ السَّابِقَةِ على خلق الكون :

كَيْفَ تَرَقَّى رُقِيَّكَ الْأَنْبِيَاءُ	يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
لَمْ يُسَاوَوْكَ فِي عِلَّاكَ وَقَدْ حَا	لَ سَنَا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
أَنْتَ مِصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا تَصَبُّ	لِئْزِلَا عَنْ ضَوْوِكَ الْأَضْوَاءُ
لَكَ ذَاتُ الْعُلُومِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ	سَبِّ وَمِنْهَا لَأَدَمُ أَسْمَاءُ
لَمْ تَزَلْ فِي ضَمَائِرِ الْكَوْنِ تُخْتَا	رُ لَكَ الْأَمْهَاتُ وَالْآبَاءُ
مَا مَضَتْ قَتْرَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا	بَشَرَتْ قَوْمَهَا بِكَ الْأَنْبِيَاءُ

ويتحدَّث عن شرف نسب الرُّسولِ ثم عن بشائر مولده ، مُرَدِّداً ما يُذكر من تداعي إيوان كسرى وخمود نار المجوس ، ثم معجزاته أثناء رضاعه ، وما أسبَغ

اللَّهِ عَلَى مُرْضِعَتِهِ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ مِنْ بَرَكََةِ أَنْصَبَ بِهَا عَيْشَهَا ، ثُمَّ قِصَّةُ شَقِّ الْمَلِكَيْنِ عَنْ قَلْبِهِ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) .

وَيَتَّبِعُ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْدَاثَ حَيَاةِ الرَّسُولِ وَتَعْبُدِهِ فِي غَارِ حِرَاءَ ، ثُمَّ بَعَثَهُ وَمَا لَاقَاهُ مِنْ أَذَى قَوْمِهِ ، وَهَجْرَتِهِ وَمَا أَحَاطَ بِهَا مِنْ مُعْجَزَاتِ : الْحَمَامَةِ الَّتِي عَشَّشَتْ عَلَى بَابِ غَارِ ثَوْرٍ ، وَنَسَجَ الْعَنْكَبُوتُ ، وَمَا وَقَعَ لِسُرَاقَةِ حِينَمَا اقْتَفَى أَثَرَهُ ، وَلَكِنْ قَوَائِمُ فَرَسِهِ سَاخَتْ بِهِ فِي الْأَرْضِ :

أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَ آوَاهُ غَارَ وَحَمَتَهُ حَمَامَةُ وَرَقَاءَ

.....

وَاخْتَفَى مِنْهُمْ عَلَى قُرْبٍ مَرًّا هُ مِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الْخَفَاءَ
وَنَحَا الْمُصْطَفَى الْمَدِينَةَ وَاشْتَا قَتَ إِلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ الْأُنْحَاءَ

.....

وَاقْتَفَى إِثْرَهُ سُرَاقَةَ فَاسْتَهَ سَوْتَهُ فِي الْأَرْضِ صَافِنَ جَرْدَاءَ
ثُمَّ نَادَاهُ بَعْدَمَا سَيِمَتِ الْخَسْفَ سَفَاقَ وَقَدْ يَنْجِدُ الْغَرِيقَ النَّدَاءَ (١)

وَيَتَحَدَّثُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ خَبَرِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ ، وَالْمُكَذِّبِينَ لِلْخَبَرِ مِنْ كَفَّارِ قُرَيْشٍ ، وَمَا حَلَّ بِهِؤَلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْخَمْسَةِ مِنْ عَقُوبَةٍ بَعْدَ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِمْ :

قَطَوَى الْأَرْضَ سَائِرًا وَالسَّمَاءَ تِ الْعُلَا قَوْقَهَا لَهُ إِسْرَاءُ
فَصِيفِ اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ لِلْمُخْ سَتَارِ فِيهَا عَلَى الْبَرَّاقِ اسْتِوَاءُ

.....

وَكَفَاهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَكَمْ سَا ءَ نَبِيَا مِنْ قَوْمِهِ اسْتِهْزَاءُ
وَرَمَاهُمْ بِدَعْوَةٍ مِنْ فِنَاءِ الْ سَبِيَتِ فِيهَا لِلظَّالِمِينَ قَنَاءُ

(١) الرَّقَاءُ : الرَّمَادِيَّةُ الْأَوْنُ ، وَنَحَا : قَصَدَ ، وَالصَّافِنَ يَعْنِي الْفَرَسَ ، وَالْجَرْدَاءُ : الْقَصِيرَةُ الشَّعْرُ .

.....
خَمْسَةٌ كُلُّهُمْ أَصِيبُوا بِدَاءٍ وَالرَّذَى مِنْ جُنُودِهِ الْأَدْوَاءُ

ويمضي بعد ذلك إلى ذكر الصحيفة التي تخالفت فيها بطون قريش على مقاطعة بني هاشم ، ومعجزة الأرضة التي قرضتها ، وما لقيه الرسول من أذى عتاة المشركين من أمثال أبي جهل وأبي لهب . وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن خلال الرسول ﷺ وشماله ، وعن إعجاز القرآن ، ويناقش أهل الكتاب في معتقداتهم ، ويعود مرة أخرى لاستعراض بعض وقائع السيرة حتى فتح مكة ، وعفو الرسول عن أهلها بعد اقتداره عليهم :

فَدَعَوْا أَحْلَمَ الْبَرِيَّةِ وَالْعَفْ
وَجَوَابُ الْحَلِيمِ وَالْإِعْضَاءُ
نَاشِدُوهُ الْقُرَيْبَى الَّتِي مِنْ قُرَيْشٍ
قَطَعَتْهَا التَّرَاتُ وَالشُّحْنَاءُ
فَعَفَا عَفْوً قَادِرٍ لَمْ يَنْغَضْ
سُهُ عَلَيْهِمْ بِمَا مَضَى إِعْرَاءُ^(١)

وبعد الانتهاء من أحداث السيرة يذكر آل البيت مادحا ورائيا ، ومشبها نفسه في الحاليتين بحسان بن ثابت وبالحنساء :

أَلْ يَبْتَ النَّبِيُّ إِنْ فَوَّادِي
لَيْسَ يُسْلِيهِ عَنْكُمْ النَّسَاءُ
أَلْ يَبْتَ النَّبِيُّ طِبْتُمْ فَطَابَ الْـ
مَدْحُ لِي فِيكُمْ وَطَابَ الرُّثَاءُ
أَنَا حَسَانٌ مَدْحِكُمْ فَإِذَا نُحِ
سْتُ عَلَيْكُمْ فَإِنِّي الْخُنْسَاءُ
سُدَّتُمْ النَّاسَ بِالتَّقَى وَسَوَاكُمُ
سَوْدَتُهُ الْبَيْضَاءُ وَالصُّفْرَاءُ^(٢)

ويذكر أيضا صحابة الرسول مختصا منهم العشرة المبشرين بالجنة . ويختتم القصيدة طالبا شفاعة الرسول ويعترف بذنوبه ، ولكنه يرجو رحمة الله وعفوانه مُسْتَدِمًا بمديحه لرسوله :

(١) الترات : جمع ترة ، وهي الثار ، والشحناء : البغض .

(٢) النساء : التنزية ، والبيضاء والصفراء : كناية عن المال .

يا شفيعاً في المذنبين إذا أشد
جُدَّ لِعَاصِرٍ وما سِوَايَ هُوَ العَا
تَدَارَكُهُ بالعناية ما دا
فَقَّ من خَوْفِ ذَنبِهِمْ بُرَاءً
صَبِي وَلَكِنْ تَنْكُرِي اسْتِحْيَاءً
مَ لَهُ بِالذَّمَامِ مِنْكَ دَمَاءٌ^(١)

ويختم القصيدة بالصلاة والسلام على الرسول :

وسلام من كُلِّ ما خَلَقَ الْكَ
وصلاة كالمِسْكِ خَمْلُهُ مِذْ
ما أَقَامَ الصَّلَاةَ مَنْ عَبَدَ الْكَ
لِتَحْيَا بِذِكْرِكَ الْأُمْلَاءُ
سِي شَمَالٍ إِلَيْكَ أَوْ نَكْبَاءُ
لَهُ وَقَامَتْ بِرَبِّهَا الْأَشْيَاءُ^(٢)

وتعدُّ هذه الهمزية من أجمل قصائد المديح النبوي ، وفيها يعرض الشاعر - كما رأينا - جانباً كبيراً من السيرة النبوية ، ومع ذلك فإنها ليست نظماً تاريخياً بارداً ، بل نُحِسُّ فيها دائماً بحرارة الإخلاص واتقاد العاطفة ، فهي تجمع بين القصصية والغنائية في مزيج رائع .

أما البردة فقد روى لنا البوصيري نفسه مناسبة نظمها ؛ وهي أن الشاعر أصابه فالج أبطل نصفه ؛ فنظم هذه القصيدة مُسْتَشْفِعاً بها إلى الله وطالبا منه العافية ، وحينما نام رأى الرسول ﷺ فمسح وجهه بيده المباركة وألقى عليه برده ، وانتبه فإذا به يرى نفسه سليماً معافى . وليس من شأننا تحقيق هذا الخبر والتأكد من مدى صحته ؛ فالواقع أن صاحب القصيدة كان صادقاً في تصوُّره ، ثابت العقيدة في صحته ، وأن جمهور الناس من معاصريه كانوا يعتقدون في بركة « البردة » ، حتى إنه لا يخلو مجلس من مجالس الأذكار الصوفية إلا كان ترتيل « البردة » من أهم عناصره . بل يذكر الدكتور زكي مبارك أن « من كتبة الأحجية والتمايم من يعرف لكل بيت فائدة : فهذا البيت يشفي »

(١) برء : جمع بريء ، والذماء : بقية الروح .

(٢) الأملاء : جمع ملاء وهو الجماعة ، وشمال : ريح الشمال ، والنكباء : الريح المنحرفة بين ريحين .

من الصرّح ، وذاك ينفع في حفظ المزارع والمنازل من التلف والحريق ، وذلك يفيد في الجمع بين النافرين من الأحياب ، إلى آخر ما ابتدعوا لها من الفوائد الحسّية والمعنويّة ^(١) .

وتتألف البردة من مائة وسبعة وستين بيتاً موزعة على عشرة فصول :
فالفصلان الأول والثاني يضمّان مقدّمة غزليّة تقليديّة ، غير أننا نلاحظ فيها تسامياً روحياً واضحاً ، فليس فيها تغنّ بمحاسن محبوبية ، كما رأينا في مدحة كعب بن زهير ، وإنما نرى الشاعر يشكو آلام الغرام ويتحدّث عن زيارة الطيف وعن لائميّه في حبّه « العُدري » ، والوشاة الكاشفين لِسِرّه مهما بالغ في كتمانها ، كذلك نراه يُردّد أسماء مواضع حجازيّة ونجدية ، مثل ذي سَلَم وكاظمة وإضمّ ، على النحو الذي أشاعه في الشعر العربيّ الشريف الرضيّ ومهيار الديلمي . وكلّ ذلك دليل على أن هذه المقدّمة الغزليّة الأولى إنما هي تعبير رمزيّ عن حبّه للرّسول ﷺ وشوقه لزيارته ، والمقدّمة الثانية مجموعة من الوصايا والنصائح يتحدّث فيها عن النّفس الأمارة بالسوء ، والتّحذير من الانقياد لهواها وشهواتها ، وفيها تشبيهات جميلة مثل قوله :

والنّفس كالطّفْل إنّ تَهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاع وَإِنْ تَقَطَّعَتْهُ يَنْقَطِعْ
أو قوله :

كَمْ حَسَنْتَ لَذَّةَ الْمَرْءِ قَاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرْ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
كما تتردّد خلالها عبارات أصبحت من الجِكم الجارية على الألسنة ؛ لما فيها من إيجاز وإحكام تعبير ، من أمثال قوله :

« إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهْمِ »
« إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِرُ أَوْ يَصِمِ »

« قُرْبٌ مَخْمَصَةٌ شَرٌّ مِنَ التَّحَمِّ » ^(١)

ويُنْتَقَلُ بعد هاتين المقدّمتين إلى مديح الرّسول ﷺ ، فيتحدّث عن زُهدِه مع ما عُرِضَ عليه من كنوز الأرض ، وعن كَمالِ شمائله واصطفاء الله تعالى له ، وفي هذا المديح تتكرّر المعاني القائمة على أساس التّصوّر الصّوفيّ للحقيقة المحمّديّة : فهو سيّد الكونين السّماء والأرض ، والثّقَلَيْنِ : الإنسان والجنّ ، والجنّسين : العرب والعجم ، وهو حبيب الله وصاحب الشّفاعَةِ يوم الحساب ، ومَرَبَّتُهُ أرفعُ من مراتب سائر الأنبياء ، وفضائله تُعْجِزُ ألسنة الواصفين ، حتى إن اسمه يكاد يحيي الموتى . على أنه بعد ذلك يعود إلى تأكيد بشريّته حتى لا يَتَوَهَّم في عباراته السّابقة ما يَشِي بالتّقديس أو العبادة :

محمّد سيّد الكونين والثّقَلَيْنِ	من والفريقَيْنِ من عَرَبٍ ومن عَجَمٍ
هو الحبيب الذي تُرَجَى شفاعَتُهُ	لِكُلِّ هَوَلٍ من الأهوالِ مُقْتَحِمٍ
فاق النّبيّين في خَلْقٍ وفي خَلْقٍ	ولم يُدَانُوهُ في عِلْمٍ ولا كَرَمٍ
فإنّ فَضْلَ رَسولِ اللهِ ليسَ لَهُ	حدٌّ فيُعَرَبَ عنه ناطِقٌ بِقَمٍ
لو ناسَبَتْ قُدْرَةُ آيَاتِهِ عِظَمًا	أحيا اسمُهُ حينَ يُدْعَى دارِسَ الرّمَمِ

.....

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فيه أَنَّهُ بَشَرٌ	وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِم
وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرّسُلُ الكِرَامُ بها	فإنّما اتّصَلَتْ من نُورِهِ بِهِم
فإنّهُ شَمْسٌ فَضْلُ هَمٍّ كواكِبهَا	يُظْهِرُنْ أَتوارَهَا للنّاسِ في الظّلَمِ

وفي الفصل الرّابع يتحدّث عن مولده (عليه السّلام) وما صاحبه من بشائر، حتى بدا وكأنّ الكون كلّهُ يحتفل بهذا المولد في نشوة وطرب ، ويذكر من هذه البشائر تصدّع إيوان كِسرى ، وخمود نار المجوس ، وجفاف بُحيرة

(١) يُضَمِّي : مضارع أضَمَى ، يقال أضَمَى الرّميّة : أنفد فيها السهم ، ويَصِم : مضارع وَصَمَ : عاب ، والمَخْمَصَةُ : الجرع .

ساوَةٌ ، هذا على حين يملأ هُتافُ الجِنِّ أرجاءَ السماءِ ويعمُّ الكَوْنُ كلُّهُ نورٌ
ساطعٌ :

وباتَ إيوانُ كِسْرَى وهو مُنْصَدَعٌ كَشَمَلُ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَمِعِ
والنَّارُ خَامِدَةٌ الْأَنْفَاسُ مِنْ أَسْفٍ عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ
وسَاءَ سَاوَةٌ أَنْ غَاضَتْ بِحَيْرَتِهَا وَرَدَّ وَارِدَهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمِي
وَالجِنُّ تَهْتِفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلِمِ^(١)

وينتقل في الفصل الخامس إلى الحديث عن بعض ما تتناقله كتب السيرة
عن معجزات الرسول ﷺ ، وما ظهر على يده من خوارق العادات : سجود
الشجرة ومشيها نحوه ، وتظليلُ الغمامة إياه ، وانشقاقُ القمر ، وهنا نرى
البوصيري يعقد مقارنةً لطريفة لعله أوّل من ذكرها بين هذا الانشقاق ، وما
يُذكر من شقّ الملكين لقلبه رمزاً لتطهير روحه من كلّ رجس ، ثم وقاية الله له
من تعقّب مُشركي قريش حينما لجأ إلى الغار ، فصرف الله كيدهم عنه بعد
أن رأوا الحمام مُعشّشاً والعنكبوتَ ناسجاً خيوطه على بابه :

جاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةٌ تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلا قَدَمِ
مِثْلَ الْغَمَامَةِ أَتَى سَارَ سَائِرَةً تَقِيهِ حَرَّ وَطَيْسٍ لِلْهَاجِرِ حَمِي
أَفْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ إِنَّ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ
وما حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمِ وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي
ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ^(٢)

ومع أن الإسلام لا يعتد كثيراً بهذه المعجزات ، ولم يرد بعضها في كتب
السيرة الأولى فإن عامة المسلمين يُردّدونها في انبهار وإعجاب ، وقد ضخمها

(١) السَّدَمُ : الغيظ والحزن ، غَاضَتْ : جَعَتْ .

(٢) الْوَطَيْسُ : اللّهب ، وَالْهَاجِرُ : ساعة الظّهيرة عند اشتداد الحر .

الخيالُ الشعبيُّ كثيرًا وأضاف إليها تفاصيل عديدة شائقة ، قد لا تُرضي العقل ولكنها تستهوي الأخيَّة ، وتستثير العاطفة الدنيَّة عند الجماهير .

وفي الفصل السادس يتحدَّث عن معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ؛ وهي القرآن الكريم ، وهو هنا يصف القرآن بأنه قديمٌ ومُحدَّث في الوقت نفسه ، وكأنه في ذلك يأخذ برأي الأشاعرة الذين وقفوا موقفًا وسطًا بين المعتزلة وأهل السلف ؛ فقد رأى الإمام الأشعري أن كلام الله تعالى يُطلق إطلاقين : المعنى النَّفْسِي القائم بذاته وهو أزليٌّ قديم ، والقرآن المكتوب والقروء وهو حادثٌ مخلوق ، وإنما يُطلق عليه « كلام الله » على المجاز لا على الحقيقة ^(١).

ويُصف البوصيري وقوف العرب عاجزين عن معارضة بلاغة القرآن ، وأن عجائب الكتاب المنزل لا تُحصى ومعانيه لا تنفد ، فكأنه البحرُ في تتابع أمواجه ، وكأن ألفاظه لآلئ البحر في الحُسن والقيمة :

آياتُ حقٍّ من الرحمن مُحدَّثةٌ	قديمةٌ صِفَةُ الموصوفِ بالقِدَمِ
لم تَقْتَرِنْ بزمانٍ وهي تُخَبِّرُنَا	عَنِ المَعَادِ وعن عَادٍ وعن إِرَمَ
دامتْ لَدَيْنَا ففَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ	مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمْ
رَدَّتْ بِلَاغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا	رَدَّ الغَيُورِ يَدَ الجَانِي عَنِ الحَرَمِ
لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ فِي مَدَدٍ	وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الحُسْنِ والقِيَمِ
فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا	وَلَا تُسَامُ عَلَى الإِكْتَارِ بالسَّامِ ^(٢)

وفي الفصل السابع يتحدَّث عن الإسراء والمعراج ، وكيف مضى الرسول ليلاً من الحرم المكي إلى حرم بيت المقدس ، ثم عن معراجِهِ في السَّمَوَاتِ السَّبْعِ حتى صار « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » (سورة النَّجْم ، آية ٩) وهناك أم

(١) ضحى الإسلام ، لأحمد أمين ج ٣ ، ص ٤٠ .

(٢) تُسام : مضارع وَسَمَ ، ومعناه جعل له علامة يُعرف بها ، والمعنى هنا : توصف .

الأنبياء في الصلاة وظهرت فضيلته على سائر الأنبياء :

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاغٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَبْتَ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تَرَمِ
وَقَدَّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسُلُ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِهِمْ فِي مَوَكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعِلْمِ
حَتَّى إِذَا لَمْ تَدْعُ شَاوَا لِمُسْتَقِيمٍ مِنَ الدُّنْوِ وَلَا مَرْقَى لِمُسْتَنِمٍ
خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِذْ تُودِيتَ بِالرُّفَعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعِلْمِ^(١)

وهي أبيات تناسب في جلالها وتساميها الروحي ذلك المعراج السماوي الذي يأخذ بمجامع القلوب ، ولا يعيها إلا هذا التلاعب البعيد عن التوفيق بمصطلحات النحر في البيت الأخير .

وفي الفصل الثامن يتحدث الشاعر عن جهاد النبي ﷺ ، وهو لا يتتبع مَشَاهِدَ الرُّسُولِ فِي مَعَارِكِهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنَّمَا يُشِيدُ بِشَجَاعَتِهِ وَشَجَاعَةِ مَنْ التَّفُّ بِهِ مِنْ صَحَابَتِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْجُزْءُ فِي قُوَّةِ سَائِرِ أَجْزَاءِ الْقَصِيدَةِ ؛ إِذِ الْمَدِيحُ فِيهِ لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ عَمَّا كَانَ الشُّعْرَاءُ يَتَوَجَّهُونَ بِهِ إِلَى الْمُلُوكِ وَالْقَادَةِ ، هَذَا وَإِنْ لَمْ يَخُلْ مِنْ أَيْيَاتٍ يَصِفُ فِيهَا أَصْحَابَ الرُّسُولِ ﷺ بِالشُّجَاعَةِ النَّابِعَةِ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ ، وَيُرَدُّ انْتِصَارَاتُهُمْ إِلَى مَا بَنَى فِيهِمُ الرُّسُولُ ﷺ مِنْ رُوحِ التَّضَحِّيَةِ وَالْفِدَاءِ :

مَنْ كُلُّ مُنْتَدِبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكَفْرِ مُصْطَلِمٍ
حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ
وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ إِنْ تَلَقَّه الْأَسَدُ فِي أَجَامِهَا تَجِمِ

(١) سَرَى : سارَ لَيْلًا ، وَتَرَمَ : تَرَامَ ، أَيْ تَطَلَّبَ ، وَالشَّأَوُ : الْأَمَدُ وَالْغَايَةُ وَالْمَطْلَبُ . مُسْتَنِمٍ : صَاعِدٌ إِلَى الْقِمَّةِ .

وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيِّ غَيْرٍ مُنْتَصِرٍ بِهِ وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرٍ مُنْقَصِمٍ^(١)
والفصلان الأخيران ، وهما خَتَامُ القصيدة ، مجموعة من الابتهالات
والتوسُّل برسول الله ، تتَّسِمُ بالصدق وحرارة العاطفة ، وهو يبدأ بالاعتراف ،
في تواضع ومَدْلَكة ، بأنه قضى شطراً كبيراً من حياته ييذل شعره في خدمة
أصحاب الجاه والسُّلطان ؛ فلم يَجُنْ من ذلك إلا النَّدم والخُسران ، ولكنه في
النهاية وجد خلاصه في إلزام نفسه بأن يجعل مديحه خالصاً للرسول ﷺ ، لا
يبتغي به شيئاً من عَرَض الدُّنيا ، وهو يرى أن ذنوبه مهما عظمت فإنه يطمع في
شفاعة الرسول له ؛ لغفران تلك الذُّنوب :

خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ ذُنُوبَ عَمْرٍِ مَضَى فِي الشَّعْرِ وَالْخِدَمِ
أَطَعْتُ غَيَّ الصَّبَا فِي الْحَالَتَيْنِ وَمَا حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْآثَامِ وَالنَّدَمِ
فِيَا خُسَارَةَ نَفْسِي فِي تِجَارَتِهَا لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسْمِ
إِنْ آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرِمٍ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي فَضْلاً وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
وَمُنْذُ أَلَزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ وَجَدْتُهُ لِيَخْلَصَنِي خَيْرَ مُلْتَزِمٍ^(٢)

* * *

تَعُدُّ الْبُرْدَةُ - بِحَقٍّ - مِنْ خَيْرِ مَا نُظِمَ فِي الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ ، والغريبُ أن
البوصيري في سائر شعره الذي احتفظ به ديوانه ، لا يعدو مرتبة الشعراء
المتوسطين ، وأنه عاش في عصرٍ غلب على الشعر فيه الزُّخرفُ المتكلفُ
والصَّنعة التي تُفقد الشعر روحه ، وتجعله أشبه بجسدٍ مُحَنَط . والبردة نفسها لا

(١) مُنْقَصِمٌ : مُتَمَاضِلٌ ، وهو يعني بذلك السَّيف ، والآجام : جمع أجمَة ، وهي الشجر الملتف ، يعني به
عرين الأسد ، وتَجِمٌ : تصبُّح واجمة ، أي ساكنة على غيط ، ومُنْقَصِمٌ : منكسر .

(٢) أَسْتَقِيلُ : أنهض من العثرة ، والخِدَم : جمع خدمة ، لم تَسْمِ : لم تفاوض في البيع ، مُنْصَرِمٌ : مقطوع .

تخلو من هذا التكلّف ومن المحسنات البديعية ، ولكن البوصيري بلغ فيها من صِدْق التعبير ما ارتفع بها إلى مستوى لم يقاربه سائر شعره ، وحتى الرّخارف اللفظية نفسها أتت - في أكثر الأحيان - مقبولة لا يضيق بها الذوق . وهذا هو ما ضمن للبردة شهرةً وذيوها لم تبلغهما أيّ مدحة نبوية أخرى ، على كثرة ما نُظِمَ في عصرها وبعد ذلك حتى اليوم ؛ وهو ما يفسّر اهتمام الأدباء والعلماء بها من عرب وغير عرب ، بشكل لا نكاد نجد له مثيلاً مع أيّ نصّ شعريّ آخر .

فقد أحصى بروكلمان من شروحها المخطوطة المحفوظة في مكتبات العالم أكثر من مائة شرح ، فضلاً عمّا قُفِد ، ومن التّشظّيرات والتّخمينات وما إليها ما يزيد على هذا العدد . أما المعارضات فإنها لا تكاد تُحصى ، وما زلنا نرى حتى اليوم من الشعراء من تستهويهم معارضة البردة والنّظم على نهجها . وسوف نرى من بين هذه المعارضات مجموعة ذات هدف مزدوج : مدح الرسول من ناحية ، وتفصيل أنواع البديع من ناحية أخرى ، وهي المعروفة باسم البديعيات التي تستحقّ وقفة خاصّة .

* * *

المدائح النبوية في المغرب العربي

شهدنا في الصفّحات السّابقة العوامل التي أحاطت بنشأة المدائح النبوية وتطوُّرها في الشّرق العربيّ ، والآن لِنَرّ كيف كان أمر هذه المدائح في الجّناح الغربيّ من عالم الإسلام .

إن بلاد المغرب العربيّ الممتدّة من حدود مصر الغربيّة إلى الأندلس ، لم تصبح جزءاً من « دار الإسلام » إلا في زمن متأخّر نسبياً ، فالمغرب لم يتمّ فتحه إلا في حدود سنة سبعين للهجرة ، والأندلس بعد هذا التاريخ بنحو عشرين سنة (في سنة اثنتين وتسعين) ، ومنذ ذلك الوقت بدأت تتشكّل في هذه الرّقعة

الفسيحة مجتمعات إسلامية الدين عريّة اللغة . وكان من الطبيعي أن يحرص الأندلسيون والمغاربة على أداء فريضة الحجّ إلى البقاع المقدّسة ، وأن يُصبح الحجّ من أهمّ الوشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب ، وعملت على توحيد الثقافة في سائر أنحاء الوطن الإسلاميّ . ولعلّ البعد الجغرافيّ بين بلاد المغرب والبقاع المقدّسة قد زاد حرص أهل تلك البلاد على أداء فريضة الحجّ ، والتردّد على مراكز الثقافة الإسلامية في الشرق : في مكة والمدينة والفسطاط والبصرة والكوفة وبغداد .

ومن أوّل ما يَصوّر هذا الشوق إلى البقاع المقدّسة هذه الأبيات التي قالها العالم الأندلسيّ عبد الملك بن حبيب الإليبريّ (المتوفّى سنة ٢٣٨) مصوّراً فيها تجرّبة رحلته لزيارة قبر الرّسول ﷺ :^(١)

لِلَّهِ دَرْ عِصَابَةٍ صَاحِبَتَهَا	نَحَوَ الْمَدِينَةِ نَقْطَعُ الْفَلَوَاتِ
وَمَهَامِهِ قَدْ جُبَّتْهَا وَمَقَاوِزُ	مَا زِلْتُ أَذْكُرُهَا بِطُولِ حَيَاتِي
حَتَّى أَتَيْنَا الْقَبْرَ قَبْرَ مُحَمَّدٍ	خَصَّ الْإِلَهِ مُحَمَّدًا بِصَلَاةِ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَالنَّبِيِّ الْمُصْطَفَى	هَادِي الْوَرَى لِطَرَائِقِ الْجَنَاتِ
لَمَّا وَقَفْتُ بِقُرْبِهِ لِسْلَامِهِ	جَادَتْ دُمُوعِي وَاكِفَ الْعَبْرَاتِ
وَرَأَيْتُ حُجْرَتَهُ وَمَوْضِعَهُ الَّذِي	قَدْ كَانَ يَدْعُو فِيهِ فِي الْخَلَوَاتِ ^(٢)

ثم يُعَدّد المشاهد التي زارها : حجرات الرّسول ﷺ ، وغار حراء حيث كان يخلو للعبادة ، والرّوضة الشريفة ، ومنازل الأنصار ، وقبر حمزة (رضه) ، وقبور غيره من الصّحابة . ويختم القصيدة بقوله :

(١) نفع الطّيب ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٢) عِصَابَةٌ : جماعة ، مَهَامِهِ : جمع مِهْمَةٍ ، وَمَقَاوِزُ : جمع مَقَاوِزَ ، وكلاهما بمعنى صحراء ، وَاكِفَ : غزير ، والتَّعْبَرَاتِ : الدُّمُوعُ .

سَقِيًّا لَتِلْكَ مَعَاهِدًا شَاهَدَتْهَا وَشَهِدَتْهَا بِالْخَطْوِ وَاللِّحَظَاتِ
لَا زِلْتُ زَوَّارًا لِقَبْرِ نَبِيِّنَا وَمَدِينَةِ زَهْرَاءَ بِالْبَرَكَاتِ
صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى هَادِي الْبَرِّيَّةِ كَاشِفِ الْكُرْبَاتِ
وَعَلَى ضَجِيعِهِ السَّلَامُ مُرَدِّدًا مَا لَاحَ نُورُ الْحَقِّ فِي الظُّلُمَاتِ^(١)

وقد اهتمَّ الأندلسيون منذ وقت مبكر بالسيرة النبوية ، فبدأوا بتدريس السير التي كتبها علماء المشرق ؛ مثل سيرة موسى بن عَقْبَةَ الأَسَدِيِّ (ت ١٤١) وسيرة محمد بن إسحاق المِطْلَبِيِّ (ت ١٥٠) ، وتهذيب هذه السيرة لابن هشام (ت ٢١٨) . ومغازي الواقدي (ت ٢٠٧) ، ومغازي عبد الرَّزَّاق ابن هَمَّام الصَّنْعَانِي (ت ٢١١) ، و « تاريخ » خليفة بن خياط البَصْرِيِّ (ت ٢٤٠) . وحينما نضجت الثقافة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس رأينا الأندلسيين أنفسهم يشاركون في التأليف في السيرة النبوية ، ومن أجل العلماء الذين اضطلعوا بذلك ابنُ حَزْم القرطبي (ت ٤٥٦) صاحب « جوامع السيرة » ، وصديقه أبو عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣) صاحب « الدرر في اختصار المغازي والسير » و « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » .

وبعد ذلك بنحو قرنٍ يتجلى اهتمام الأندلسيين والمغاربة بالسيرة النبوية ، ووصف شمائل النبي ﷺ في كتابين أصبحت لهما مكانة عظيمة وذووع هائل في العالم الإسلامي بأسره ؛ أولهما كتاب « الشفا في التعريف بحقوق المصطفى » للقاضي عِيَاض بن موسى السَّبْتِي (ت ٥٤٤) ، والثاني « الرُّوض الأنف » في شرح سيرة ابن هشام لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله السُّهَيْلِي (ت ٥٨١) .^(٢)

(١) يعني بضمجيِّي الرسول ﷺ : أبا بكر وعمر اللذان وثق بهجواره .

(٢) سبق أن قمنا ببحث مفصل لما كتبه الأندلسيون حول هذا الموضوع في مقالنا : « السيرة النبوية في التراث الأندلسي » ، المنشور في مجلة « الهلال » القاهرة ، عدد شهر أغسطس سنة ١٩٧٨ ، ص

كذلك كان من مظاهر هذا الاهتمام ابتداعُ الأندلسيين لفنٍ نثريٍّ ، يبدو أنهم أوَّل من كتبوا فيه ثم أصبح بعد ذلك تقليدًا شائعًا ، هو الرِّسائل التي تُوجَّه إلى قبر الرُّسول ﷺ ، وربما كان أوَّل من فتح هذا الباب الوزيرُ الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الإشبيلي (ت سنة ٥١٥) ، على لسان رجل صدَّر من بيت الله الحرام بعد زيارة قبر النبي^(١) ، وهي في التَّوسُّل له وطلب الشِّفاعة منه . وسار الأدباء الأندلسيون بعد ذلك على هذا النهج من كتابة الرِّسائل إلى الرُّوضة النَّبَوِيَّة الشَّريفة ، لاسيَّما بعد أن اعتقد كثير من المسلمين في قدرة هذه الرِّسائل على أن تكفُل الاستجابة لدعوات كاتبها ، فالمُقرِّي يورد رسالة لرجل من أهل قرطبة هو عبد الله بن عبد الحق الصِّيرفي ، وكان عليل الجسم ، فلما وصلت رسالته إلى القبر الشَّريف برئَ من علته^(٢) .

كما نقل لنا عدَّة رسائل أخرى مماثلة كتبها ابن العَمَّاد المالقي (ت ٥٣٠) ، والكاتب المعروف ابن أبي الخِصال (ت ٥٤٠) ، والقاضي عِياض (ت ٥٤٤)^(٣) . واستمرَّ هذا التَّقْلِيد حتَّى نهاية الإسلام في الأندلس ، فنحن نجد لسان الدين بن الخطيب ، الكاتب الوزير المعروف ، يكتب رسالتين عن سُلْطَانِي غَرْناطة : أبي الحَجَّاج يوسُف (ت ٧٥٥) وابنه محمد الغني بالله (ت ٧٩٣) يصفُ فيهما أحوال بلاده ، ويطلب منه العون في دفاعه عن كلمة الإسلام وجهاد أعدائه^(٤) .

وليس من العسير أن نقدر العامل النَّفسيَّ المَوْجَّه لكتابة مثل هذه الرِّسائل ؛

(١) احتفظ لنا بهذه الرِّسالة ابن تيمِّم في كتاب الأُخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، ج ١ ، ص ٢٨٦-٢٨٨ .

(٢) أزهار الرياض ، ج ٤ ، ص ٢٩-٣٢ .

(٣) انظر هذه الرِّسائل الثلاث في أزهار الرياض ، ج ٤ ، ص ٣٣-٣٤ ، و ٢١-٢٩ ، و ١١-٢٠ على التوالي .

(٤) نص الرسلتين في أزهار الرياض ، ج ٤ ، ص ٣٤-٤٥ و ٧٩ .

فقد كانت أحوال المسلمين في الأندلس تسير منذ بداية القرن السادس الهجري في طريق التدهور والضعف ، وألحت عليهم قوى المسيحية الأوربية التي شرعت في انتزاع الحواضر الأندلسية واحدة بعد أخرى ، فكانوا يبتون شجونهم ويفرغون همومهم في هذه الرسائل التي يتوسلون بها إلى الرسول ، ويستمدون بها العون منه .

وهذا هو العامل الرئيسي الذي جعل فن المدائح النبوية يعود للازدهار في الأندلس والمغرب منذ القرن السادس الهجري . ومن أولي هذه القصائد قصيدتان لابن السيد البطليوسي (ت ٥٢١) ، في مخاطبة مكة ، والتعبير عن الشوق إلى زيارة البقاع المقدسة ، مع الحديث عن سيرة الرسول ﷺ ، ومطلع الأولى :

أ مَكَّةُ تَفْدِيكَ النُّفُوسَ الْكَرَّامُ وَلَا بَرَحَتْ تَنْهَلُ فِيكَ الْغَمَائِمُ
ومطلع الثانية :

إِلَيْكَ أَفِرُّ مِنْ ذُلِّي وَذَنْبِي فَأَنْتَ إِذَا لَقِيتُ اللَّهَ حَسْبِي ^(١)

وفي هذه الظاهرة نرى تشابها بين المشرق والمغرب ، في العامل الذي أدى إلى إكثار الأدباء من المديح النبوية ، والتوسل للرسول ، واليوق له بالهموم والأشجان ؛ فقد كان في بلاد المشرق ما أصاب الأمة من محنة الغزو الصليبي القادم إليها من الغرب ، والهجوم التتري الكاسح المنطلق من الشرق ، وفي الأندلس ما تعرضت له البلاد من زحف مسيحي لم تفلح في صد تياره جهود المرابطين ثم الموحدين ، وهكذا شعر المسلمون هنا وهناك بالضعف وقلة الحيلة ، ولم يكن لدى الأدباء والشعراء - وهم ضمير الأمة ولسانها الناطق - إلا أن يتوجهوا إلى الرسول ﷺ يستشفعون به ويطلبون منه العون والنصرة .

ولعل الأديب الكاتب الشاعر محمد بن مسعود ، المعروف بابن أبي

الخِصَال (ت ٥٤٠) ، هو أوَّل من أقرَد للمدائح النَّبَوِيَّةُ في المغرب تَأْلِيفَ شعريَّةً كاملةً ؛ فالمَقْرِي يورد له قصيدة طويلة سَمَّاها « مِعْراج المَناقِبِ وَمِنْهاج الحَسَبِ الثَّاقِبِ » وهي في ذِكر نَسَبِ الرَّسُول ﷺ وسيرته ومعجزاته ومناقبِ صحابته ، ومطلعُ هذه القصيدة :

إِلَيْكَ فَهَمِّي وَالْفَرَادُ يَبْثُرِبْ وَإِنْ عَاقَبَنِي عَنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ مَغْرِبِي

وتقع في ٣٦٦ بيتاً . وقد قام بتخميس هذه القصيدة الأديب النحوي أبو بكر محمد بن الحسن بن حَبِيش المُرْسِيّ ، نزيلُ تونس (المتوفى بعد سنة ٦٧٩) ^(١) وكان ابن خبير الإشبيليّ من بين رُواتها وناشريها في الأندلس والمغرب . ^(٢)

ولابن أبي الخِصَال أيضاً مجموعة من القصائد سَمَّاها « النَّبَوِيَّاتُ » ، وهي خمس مراتٍ للرَّسُول ﷺ عَارِضٌ بها مرثيَّ حَسَّان بن ثابت للرَّسُول ، وهي ثلاث دَلِيَّةٌ و واحدة رائيَّةٌ ، يقول في مطالعها :

- بَطِيَّةٌ آثَارُ تُحَجُّ وَتُقَصَّدُ وَدَارٌ بِهَا لِلَّهِ نُورٌ مُخَلَّدُ
- هَلْ يَجْمَعَنَّ صَبَاحُ يَوْمٍ أَوْ غَدٍ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَبْرِ قَبْرِ مُحَمَّدٍ
- قَلْبِي إِلَى طَبِيعَةِ دُو غَلَّةٍ صَادِي إِلَى الْبَشِيرِ النَّذِيرِ الْخَاتَمِ الْهَادِي
- هَوْنٌ عَلَيْكَ مِنَ الْأَرْزَاءِ مَا حَضَرَ بَعْدَ النَّبِيِّ وَلَا تَعْدِلْ بِهِ خَطَرًا ^(٣)

وقام ابن حَبِيش المُرْسِيّ بتخميس هذه القصائد أيضاً ، كما قام بتخميس قصائد حسان بن ثابت نفسها في تَأْلِيفٍ سَمَّاها : « الْحَدَائِقُ النَّبَسَانِيَّةُ وَالطَّرَائِقُ الْحَسَّانِيَّةُ » . ^(٤)

(١) أورد للمَقْرِي القصيدة كاملة مع تخميسها لابن حَبِيش في أزهار الرِّياض ، ج ٥ ، ص ١٧٤-٢٤٩ .

(٢) فهرسة ابن خبير ، ص ٤١٨-٤٢٠ ، وانظر كذلك كتاب الاكتفا لأبي الربيع الكلاعي ، ج ١ ، ص ٣٦-٤٣ ، حيث يقتطف من هذه القصيدة ما يتصل بنسب الرسول .

(٣) غَلَّةٌ : عطش شديد ، وصادي : ظمآن ، والأَرْزَاءُ : جمع رَزءٍ ، وهو المصيبة العظيمة .

(٤) أزهار الرِّياض ، ج ٥ ، ص ٢٥٠-٣٠٠ .

المولد النبويّ والمولّدِيّات في المغرب

ومّا زاد الاهتمام بالمذاهب النبويّة في المغرب والأندلس بدء الاحتفال بالمولد النبويّ في المغرب ، ابتداءً من أوائل القرن السّابع الهجريّ ، وربما كانت هناك أصول قديمة لهذا الاحتفال منذ أن كان المغرب ، أو شطر كبير منه ، خاضعاً للخلافة الفاطميّة في مصر ، فقد سبق أن رأينا كيف كان المولد النبويّ من الأعياد التي احتفل بها الفاطميّون ، على أننا لم نعر على شواهد تدلّ على ذلك .

والذي يُسجّله التاريخ هو أن بداية هذا الاحتفال ، ارتبطت في المغرب بشخصيّة أمير يرجع له الفضل في ذلك ، تماماً كما ارتبط المولد النبويّ في المشرق بشخصيّة الملك المظفرّ كوكبوري صاحب إربل ، منذ السّنات الأولى للقرن السّابع الهجريّ ، على نحو ما رأينا في صفحات سابقة . أمّا هذا الأمير فهو أبو العبّاس أحمد بن محمد بن الحسين ، الشهير بابن أبي عرّفة اللّخميّ ، وكان أميراً على مدينة سبّته التي كانت دائماً - بموقعها على مضيق جبل طارق - حلقة صليّة ثقافيّة بين المغرب والأندلس ، وكان أبو العبّاس العزّفيّ يحكم هذه المدينة شبه مستقلّ ، وإن كان يدين بالطّاعة شكلاً لسلطان الموحّدين ، وتوفيّ في رمضان سنة ٦٣٣ . ويرجع احتفاله بالمولد إلى كتاب بدأ بتأليفه بعنوان : « الدر المنظّم في مولّد النبيّ المعظّم » ، ثم أكمله ابنه وتلميذه أبو القاسم محمد الذي حكم سبّته أيضاً حتى وفاته سنة ٦٧٧ .

ويستحقّ هذا الكتاب منّا وقفة خاصّة ؛ إذ إنه يعدّ نقطة البداية في الاحتفال بالمولد النبويّ في جميع بلاد المغرب . وكان من حسن الحظّ أن احتفظ الزّمن لنا بنسختين منخطوطتين من هذا الكتاب ، في مكتبة الإسكوريال وفي المتحف البريطانيّ ، وقد توفّر على دراسته مستشرق إسبانيّ جليل ، هو الأستاذ فرناندو دي لاجرانخا ، ونشر أبحاثاً حوله ونصوصاً منه في مجلة الأندلس ^(١) .

(١) عن العزّفيّ انظر بروكلمان ، ج ٦ ، ص ٢٥٥ ، ومقال الأستاذ فرناندو دي لاجرانخا عن « الأعياد المسيحيّة في الأندلس » في مجلة الأندلس ، المجلد ٣٤ سنة ١٩٦٩ .

ويتبيّن من هذا البحث القيم ، ومن النصوص التي أوردها الأستاذ دي لاجرانخا من الكتاب ، أن العزفي لاحظ أن أهل الأندلس والمغرب عامة كانوا يشاركون مساكينهم وجيرانهم من المسيحيين أعيادهم ، ويحتفون بها احتفاءً عظيماً ؛ فيتوسعون في النفقات واستجادة المطاعم وألوان الحلوى ، ويخصّ العزفي من هذه الأعياد ما يسميه « ليلة العجوز » ، وهي آخر ليالي السنة الميلادية الموافقة للحادي والثلاثين من شهر دجنبر (ديسمبر) . واسم « ليلة العجوز » هو الترجمة العربية لما يسميه الإسبان حتى اليوم La Nochevieja (أي ليلة رأس السنة) .

وظاهرة مشاركة المسلمين لجيرانهم من المسيحيين في أعيادهم كانت من الظواهر الشائعة في العالم الإسلامي كله ؛ مشرقه ومغرب على السواء ، كما يسجل ذلك المقرئ في كتاب « الخطط » . على أن ذلك لم يُعجب الفقهاء المتزمّتين ، من أمثال العزفي الذي حمّل على مواطنيه من أجل ذلك ، بل إنه ندب نفسه لتغيير هذه البدعة ؛ فألف كتاب « الدر المنظم » ساعياً بذلك إلى هدّفين : الأول هو قطع عادة مسلمي الأندلس بالاحتفال بالأعياد المسيحية ولاسيما عيد الميلاد ، والثاني هو الاستبدال بهذا العيد عيد مولد النبي ﷺ^(١) .

وقد استطاعت هذه الحملة التي اضطلع بها الأمير الفقيه العزفي أن تؤتي ثمارها ؛ فتحقّق له هدفه من إقلاع مسلمي الأندلس والمغرب عن الاحتفال بعيد الميلاد المسيحي ، وإن لم تقض تماماً على بعض الأعياد الأخرى التي لم يكن لها طابع ديني واضح . أمّا الهدف الثاني وهو الاحتفال بعيد مولد النبي ﷺ فقد تحقّق أيضاً . واستقرّت هذه العادة التي اتّخذت ، منذ ذلك الوقت ، مظهراً من الفخامة يضارع ما اتّسمت به أكبر الأعياد الإسلامية

الأخرى ، مثل عيد الفطر وعيد الأضحى . ويذكر الأستاذ جرانخا - الذي درس هذا الموضوع - أن الاحتفال بالمولد النبويّ أصبح عيداً رسمياً في المغرب والأندلس في سنة ٦٩١ ، ولو أن هناك شواهد كثيرة تدلّ على أنه كان يُحتفل به في مملكة بني الأحمر في غرناطة قبل هذا التاريخ بوقت طويل .

واستمرّ الاحتفال بالمولد النبويّ في المغرب والأندلس على المستويين الشعبيّ والرسميّ طوال العصور التالية ، واتخذ في القرن الثامن الهجريّ بصفة خاصّة من مظاهر الفخامة ما أصبح به أعظم الأعياد الإسلامية . وتنوّه المصادر المغربية بالاحتفالات التي كان يقيمها بهذه المناسبة السلطان أبو حمّو موسى ابن يوسف الزيانيّ ملك تلمسان (في غربيّ الجزائر) . وقد حكم هذا الأمير من أمراء بني عبد الواد تلك المنطقة من المغرب الأوسط قرابة ثلاثين عاماً (بين سنتي ٧٦٠ و ٧٩١)^(١) ، وكان يتميز بثقافة رفيعة ، فقد ألف كتاباً في السياسة عنوانه « واسطة السلوك » قصد به تأديب ابنه و وليّ عهده أبي تاشفين ، وضمّن هذا الكتاب بعض شعره ومنه بعض قصائده المولديّة التي تدلّ على قُدَم راسخة في ميدان الشعر ، ويقول في إحداها :^(٢)

يَحْرَمَةِ أَحْمَدَ خَيْرَ الْوَرَى	رَجَائِي وَطَنِي بِهِ لَنْ يَخِيَا
نَبِيّ أَتَى رَحْمَةً لِلْعِبَادِ	فَمَحَى وَمَحَصَ عَنَا الدُّنُوبَا
وَسَنَّ الشَّرِيعَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ	وَشَنَّ عَلَى الْكَافِرِينَ الْحُرُوبَا
بِمَوْلِدِهِ أَشْرَقَ الْأَفَقُ نُورَا	وَالْبَسَتْ الْأَرْضُ حُسْنًا قَشِيَا

ويُنوّه أبو عبد الله التَّنسيّ التلمسانيّ في كتابه « نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيّان »^(٣) بفخامة تلك الاحتفالات المولديّة ، التي كان يُقيمها

(١) عن هذا الأمير ، انظر الدراسة التي اختصّه بها الأستاذ عبد الحميد حاجيات بعنوان « أبو حمّو موسى الزيانيّ ، حياته وآثاره » ، الجزائر ١٩٧٤ . (٢) للمرجع السابق ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .

(٣) تحقيق الأستاذ محمود بوعيّاد ، الجزائر ١٩٨٥ ، ص ١٦٢-١٦٤ ، وقد نقل هذا الوصف المقرّي في نفع الطيّب ، ج ٦ ، ص ٥١٣-٥١٤ ، وأزهار الرياض ، ج ١ ، ص ٢٤٣-٢٤٥ .

أبو حَمَو الزَّيَّانِي ؛ إذ يقول : « وكان يقوم بحقّ ليلة مولد المصطفى ﷺ ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يُقيم مَدْعَاةً يحشر لها الأشراف والسَّوْقَة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزراريّ مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحضرة على مراتبهم ، تطوف عليهم ولَدَانٌ قد لبسوا أَقْبِيَةَ الخَزِّ الملوّن ، وبأيديهم مباخرٌ ومرشات ، ينال كلُّ منها بحظّه ، وخزانة المنجاة (آلة لرصد الوقت) ذات تماثيل لجيّن مُحَكَّمَة الصَّنْعَة . والمُسمِع قائمٌ يُنشِد أمداح سيّد المرسلين ، سيّدنا ومولانا محمد ﷺ ، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دوراً ، قد اشتملت من أنواع محاسن الطّعام على ألوان تشتهيها الأنفُسُ ، وتستحسنها الأعيُنُ ، والسُّلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه ، وكلُّ ذلك بمرأى منه ومسمع ، حتى يصلّي هنالك صلاة الصُّبح . وما من ليلة مولدٍ مرّت في أيامه إلا نظّم فيها قصيداً في مدح المصطفى ﷺ أوّلَ ما يتندى المُسمِع في ذلك المَحْفَل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوهُ إنشادٌ مَن رُفِعَ إلى مقامه العليّ في تلك الليلة نظماً . »

ولم ينفرد بلاطُ تِلْمِسان بهذه الظّاهرة من العناية بالمولد النبويّ ، بل يمكن أن نقول إن هذا الوصف السّابق يمكن أن ينسحب أيضاً على سائر بلدان المغرب : في غرناطة ، وفي فاس ، وفي تونس .

وهكذا نرى كيف التقى شرق العالم الإسلاميّ وغرّبه على العناية بالمولد النبويّ ، ابتداءً من القرن السّابع الهجريّ : في المشرق بفضل الملك المظفّر صاحب إربل في شماليّ العراق ، وفي المغرب بفضل الأمير الفقيه أبي العباس العزّفيّ صاحبِ سبّته في أقصى المغرب ^(١) ، ولعلّ من العوامل التي زادت الاهتمام بهذا العيد ، وبما رافقه من أدبٍ شعريّ ونثريّ وفير ؛ ما قدّر

(١) يُمثّل هذا اللقاء أيضاً بين المشرق والمغرب الإسلاميين ما سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن الملك المظفّر كوكبوري ، من وفود الأديب المُحدّث الأندلسي ابن دحية الكلبي (ت ٦٣٣) على هذا الملك في إربل ، ومن تأليفه كتاب « التّوثيق في مولد السّراج المنير » الذي كان يقرأ على الملك نفسه كل عام .

للفكر الصَّوْفِيَّ من انتشار عظيم في أوساط المسلمين في كلِّ مكان . أمَّا في الشَّرْق فقد رأينا كيف نشأت طُرُق صُوفِيَّة أصبحت لها أتباع كثيرون خلال القرن السَّادس ؛ مثل القادرِيَّة والرَّفاعِيَّة وغيرهما . وأمَّا في المغرب فقد بدأ التَّصَوُّف ضعيفاً يُنكره الفُقهاء والمُحدِّثون من أهل الظَّاهر ، ولكنه لم يلبث أن أصبح له من الانتشار ما أصبح الصَّوْفِيَّة به أكثرَ المشتغلين بأمور الدِّين حظوةً وشعبيةً عند الجماهير .

وكان هذا التَّحوُّل خلال القرن السَّادس ، فظهر في الأندلس أبو القاسم ابن العَرِيف (ت ٥٣٦) ، ثمَّ أبو مَدَّيْن شُعَيْبُ بن الحُسَيْن الإشبيليَّ ، نزِيل بُجَايَة في المغرب (ت ٥٩٤) ، وتلميذه الصَّوْفِيُّ الأكبر محيي الدين بن عربي المُرسي (ت ٦٣٨) . كما أسَّس أبو الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦) طريقتَه المشهورة التي نشرها في مصر وفي المشرق ، تلميذه أبو العباس المُرسي نزِيل الإسكندرية (ت ٦٨٦) ، ويكفي لتقدير مدى انتشار التَّصَوُّف في المغرب النَّظَرُ في كتاب ابن الزَّيَّات التَّادِلِيَّ (ت بعد ٦١٧) « التَّشَوُّف إلى معرفة رجال التَّصَوُّف » ؛ إذ نرى عدداً هائلاً من الأولياء ومشايخ الصَّوْفِيَّة المنتشرين في كلِّ أنحاء المغرب .

وقد ترتَّب على كلِّ هذه العوامل أن أقبل الشُّعراء على النُّظم في المدائح النَّبَوِيَّة إقبالاً عظيماً نافس المغربُ فيه المشرق ، ونشأ فنٌّ جديد متفرِّع من هذه المدائح ، أصبح يُدعى بـ « المَوْلِدِيَّات » ، أي القصائد التي كانت تُنظَّم خصيصاً لكي تُنشد في احتفالات المولد النَّبَوِيِّ ، التي اهتمَّ بها السُّلاطين والأمراء وعامةُ الشَّعب ، ولا يكاد ديوانُ شاعر مغربيٍّ أو أندلسيٍّ - بدءاً من القرن السَّابع - يخلو من عدد كبير من هذه المَوْلِدِيَّات . هذا فضلاً عن المدائح النَّبَوِيَّة التي كان الشُّعراء ينظمونها دون أن تكون مرتبطةً بمناسبة المولد .

ومن الشُّعراء الذين نظموا أكثرَ شعرهم في المديح النَّبَوِيَّة محمد بن محمد

ابن الجَنّان المُرسِي ، الذي كان كاتباً لبعض أمراء الأندلس ، وخرج من بلده مُرسِيّة في سنة ٦٤٠ ، عندما ساءت أحوال شرق الأندلس ، فوَقَدَ على سَبْتَةٍ ، وهي بلد العَرَفِيّ الذي سبق أن تَوَهَّنَا بفضلِه في إحياء المولد النَّبَوِيّ ، ثم توجّه إلى إفريقيّة واستقرَّ بِبُجَايَة (شرقيّ الجزائر) حيث أدركته وفاته في نحو سنة ٦٥٠ .^(١) ولابن الجَنّان خطبٌ ومواعِظٌ ورسائلٌ كُلُّها في مدح الرُّسول ﷺ . أمّا شعره ، فمن قصائده التي أصبحت نموذجا يَحْتَذِيهِ المَدَّاحُ بَعْدَهُ ؛ تخميسٌ تتردّد فيه لازمةُ الصَّلَاةِ والسَّلَامِ على الرُّسول ، وهو مِمَّا كان الصَّوْفِيّةُ يتناشدونه في مجالسهم :^(٢)

اللَّهُ زَادَ مُحَمَّدًا تَكْرِيماً وَحَبَّاهُ فَضْلاً مِنْ لَدُنْهُ عَظِيماً
وَاخْتَصَّهُ فِي الْمُرْسَلِينَ كَرِيماً ذَا رَأْفَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

وبعد أن يتحدّث عن نَسَبِه الشَّريف وعلو رُتَبته على سائر الأنبياء ، يمضي في ذِكر معجزاته ، ومنها شقُّ الملكَيْن صدرَه وتطهيرهما قلبه على هذا النحو :

لَمَّا تَرَعَرَعَ جَاءَهُ الْمَلَكَانِ بِالطُّسْتِ فِيهَا حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ
فَاسْتَخْرَجَا الْقَلْبَ الْعَظِيمَ الشَّانِ مِنْهُ وَطَهَّرَ ثُمَّ عَادَ سَلِيماً
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

ويقول المُقَرِّي إنه كثيراً ما كان ينشد هذه القصيدة في مجالس التدريس بُرْكَاً بها ، ثم يورد مجموعة كبيرة من القصائد والتخميسات المماثلة .

ومن بين هذه التخميسات ما نظمه شاعر معاصر لابن الجَنّان كان يهوديا

(١) انظر ترجمة ابن الجَنّان في الإحاطة لابن الخطيب ، ج ٢ ، ص ٣٤٨-٣٥٩ ، وعنوان الدِّرَاية للمُقَرَّبِيّ ،

ص ٣٤٩-٣٥٠ ، ونفع الطَّيِّب ، ج ٧ ، ص ٤٤٤-٤٤٥ .

(٢) نفع الطَّيِّب ، ج ٧ ، ص ٤٣٢ .

وأسلم ، وهو إبراهيم بن سهل الإشيلي المعروف بالإسرائيلي (المتوفى في منتصف القرن السابع) . يقول في مطلع هذا التخميس :^(١)

جَعَلَ الْمُهَيْمِنُ حُبَّ أَحْمَدَ شَيْمَةً وَأَتَى بِهِ فِي الْمُرْسَلِينَ كَرِيمَةً
فَغَدَا هَوَاهُ عَلَى الْقُلُوبِ تَمِيمَةً وَغَدَا هَذَا لَهُدْيَهُمْ تَتْمِيمَةً
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ولسنا ندري لماذا شكك المقرئ في صحة إسلام ابن سهل ؛ فنحن نرى في سائر شعره ما يشهد بصدقه وإخلاصه ، تدلُّ على ذلك قصيدته في التشويق للمشاهد المقدسة ، وفيها يقول :^(٢)

وَرَكِبَ دَعَتَهُمْ نَحْوَ يَثْرَبَ نِيَّةً فَمَا وَجَدَتْ إِلَّا مُطِيعًا وَسَامِعًا
يَسَاقُ وَخَلَدَ الْعَيْسَ مَاءُ شَثْنِهِمْ فَيُفْتَنُونَ بِالشُّوقِ الْمَكْدَى وَالْمَدَامِعَا
تُضْيِءُ مِنَ التَّقْوَى حَنَائِيَا صُدُورَهُمْ وَقَدْ لَيْسُوا اللَّيْلَ الْبَهِيمَ مَدَارِعَا
تَلَاقَى عَلَى وَادِي الْيَقِينِ قُلُوبُهُمْ خَوَافِقَ يُدَكِّرُنَ الْقَطَا وَالْمَشَارِعَا
قُلُوبَ عَرَفْنَ الْحَقَّ فَهِيَ قَدْ انْطَوَتْ عَلَيْهَا جُنُوبٌ مَا عَرَفْنَ الْمُضَاجِعَا
تَكَادُ مُنَاجَاةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدَ تَنِمُّ بِهَا مِسْكًا عَلَى الشَّمِّ ذَائِعَا^(٣)

وقصيدته التي يمتزج فيها المديح النبوي بدعوة حارة إلى الجهاد ، حينما حاصر العدو بلده إشيلية قبل سقوطها الأخير :^(٤)

(١) نفع الطيب ، ج ٧ ، ص ٤٤٥ ، وعن ابن سهل الإسرائيلي انظر مقدمة ديوانه بقلم الدكتور إحسان عباس وما أورده فيها من مصادر .

(٢) ديوان ابن سهل ، ص ٢٣٢-٢٣٤ .

(٣) الوخذ : نوع من السير السريع ، والعيس : المطايا ، والشثون : مجاري الدَّمع ، والمدارع : الثياب ، يُدَكِّرُنَ : أذكركه الشيء ، جعله يذكركه . والقطا من الطيور المائية ، والمشارع : مولد الماء .

(٤) ديوان ابن سهل ، ص ١٤٠-١٤٢ .

كَمْ أَبْطَلُوا سُنَنَ النَّبِيِّ وَعَظَلُوا
أَيْنَ الْحَقَائِظُ مَا لَهَا لَمْ تَتَّبِعْتُ
أَيُّهُزُّ مِنْكُمْ فَارِسَ فِي كَفِّهِ
مِنْ حِلْيَةِ التَّوْحِيدِ ذُرَّةَ مِنبَرٍ
أَيْنَ الْعَزَائِمُ مَا لَهَا لَا تَنْبَرِي
سَيْفًا وَدِينَ مُحَمَّدٍ لَمْ يُنْصَرِ

وفي هذا دليل على أن المدائح النبوية لم تكن مجرد ابتهالات ومناجيات ، وإنما كانت توظف أيضاً في تصوير واقع المسلمين ، والاهتمام بقضاياهم ، والدعوة إلى إصلاح أحوالهم .

وعلينا أن نشير أيضاً إلى أثر بعض الأفكار الصوفية في شعر المدائح النبوية ؛ لا سيما وأن مشايخ التصوف قد شاركوا مشاركة واسعة في هذا المجال . ولننظر كيف يعلّق محيي الدين بن عربي على حديث « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » في خطبة « الفتوحات المكية » :^(١)

وَيَكُونُ هَذَا السَّيِّدُ الْعَلَمُ الَّذِي
وَجَعَلْتَهُ الْأَصْلَ الْكَرِيمَ وَآدَمَ
وَنَقَلْتَهُ حَتَّى اسْتَدَارَ زَمَانُهُ
فَأَقَمْتَهُ عَبْدًا ذَلِيلًا خَاشِعًا
حَتَّى أَنَاهُ مُبَشِّرًا مِنْ عِنْدِكُمْ
قَالَ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَنْتَ مُحَمَّدٌ
جَرَّدْتَهُ مِنْ دَوْرَةِ الْخُلَفَاءِ
مَا بَيْنَ طِينَةِ خَلْقِهِ وَالْمَاءِ
وَعَظَمْتَ آخِرَهُ عَلَى الْأَبْدَاءِ
دَهْرًا يَنَاجِيكُمْ بِغَارِ حِرَاءِ
جَبْرِيلَ الْمُخْصُوصُ بِالْأَنْبَاءِ
سِرُّ الْعِبَادِ وَخَاتَمُ النَّبَاءِ

ففي هذه الأبيات تعبير عما سماه ابن عربي في « فصوص الحِكَم »^(٢) « الكَلِمَةُ الْمُحَمَّدِيَّة » ويقصد بها أزلية النور المحمدي ، استناداً إلى الحديث

(١) الفتوحات المكية ، بتحقيق الدكتور عثمان يحيى ، ج ١ ، ص ٤٦-٤٧ ، و الأبداء : جمع بدء ، وهو أول كل شيء ، والأنبياء والنبياء : جمع نبي .

(٢) فصوص الحِكَم لابن عربي ، بتحقيق الدكتور أبو العلا عفيفي ، الفصل ٢٧ بعنوان « حكمة فردية في كلمة محمدية » ، ج ١ ، ص ٢١٤ . وانظر التعليق في ج ٢ ، ص ٣١٩-٣٢١ .

الذي أوردناه ، وأحاديثَ أخرى منسوبة للرَّسول ﷺ ، منها : « أنا أوَّلُ النَّاسِ فِي الْخَلْقِ » و « أوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نوري » ، فقد اسْتَنْجَ ابن عربي ومعه كثيرٌ من الصَّوْفِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَجُودٌ قَبْلَ وَجُودِ الْخَلْقِ ، وقَبْلَ وَجُودِهِ الزَّمَانِي فِي صُورَةِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ ، وَأَنَّ هَذَا الْوُجُودَ قَدِيمٌ غَيْرُ حَادِثٍ ، وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْهُ بِالنُّورِ الْمُحَمَّدِيِّ .

وفي ديوان ابن عربي عِدَّةُ قَصَائِدَ فِي الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ ، كَانَ تَعْبِيرُهُ فِيهَا أَكْثَرَ سِلَاسَةً وَأَقْلَ غُمُوضًا مِنَ الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ يَقُولُ فِي إِحْدَاهَا :^(١)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَ أَحْمَدًا	وَنَادَى بِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْمَدَى
تَلَقَّاهُ بِالْقُرْآنِ وَحْيًا مُنْزَلًا	فَكَانَ لَهُ رُوحًا كَرِيمًا مُؤَيَّدًا
وَأَعْطَاهُ مَا أَبْقَى عَلَيْهِ مَهَابَةً	فَأَوْرَثَهُ عِلْمًا وَحِلْمًا وَسُؤْدَادًا
وَأَعْلَى بِهِ الدِّينَ الْحَنِيفِيَّ وَالْهُدَى	وَصَيَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيِّدًا

* * *

ويطول بنا الأمر لو تتبعنا مسيرة المَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ مِنْذُ الْقَرْنِ السَّابِعِ ؛ إِذْ لَا نَكَادُ نَلْتَقِي بِشَاعِرٍ فِي شَرْقِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ أَوْ غَرْبِهِ إِلَّا لَهُ فِيهَا مِشَارِكَةٌ ، وَطَالَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْقَصَائِدِ طَوْلًا مُفْرَطًا ، فَمِنْ ذَلِكَ أَرْجُوزَةٌ أَلْفُهَا الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى بْنِ الْمُنَاصِيفِ ، الْقُرْطُبِيُّ الْأَصْلُ (المتوفى في مَرَاكِشَ سَنَةِ ٦٢٠) ، بِعَنْوَانِ « الدَّرَّةُ السَّنِّيَّةُ فِي الْمَعَالِمِ السَّنِّيَّةِ » ، وَتَقَعُ فِي نَحْوِ سَبْعَةِ آلَافِ بَيْتٍ مِنَ الرَّجَزِ .^(٢) وَيُشِيرُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْحَيِّ الْكُتَّانِيُّ إِلَى قَصِيدَةٍ أُخْرَى لَمْ يَذْكُرْ مُؤَلِّفَهَا ، بِعَنْوَانِ « مِثْحَةِ وَاهِبِ الْهَيَاتِ الْبَهِيَّةِ وَالصَّلَاتِ الْفَاخِرَةِ فِي مِدْحَةِ صَاحِبِ الْآيَاتِ السَّنِّيَّةِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ » ، وَيَقُولُ إِنَّهَا

(١) ديوان ابن عربي ، طبعة بومباي الحجرية ، ص ٦٦-٦٧ .

(٢) التكملة لابن الأثير ، طبعة كوديرا ، مدريد ، ترجمة ٩٦٢ ، والترانيم الإدارية للشيخ عبد الحي الكتاني ،

ج ١ ، ص ٢٤ ، وقد أورد منها مقتطفات في ج ١ ، ص ١٥ .

« هَمْزِيَّةٌ جَيِّدَةٌ فِي نَحْوِ خَمْسَةِ آلَافِ بَيْتٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْغَرَابَةِ بِمَكَانٍ »^(١)

وَأَعْرَبُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَذْكُرُهُ عَنْ قَصِيدَةٍ بِعَنْوَانِ « الْمَقَالَاتِ السَّنِيَّةِ فِي مَدْحِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ » ، وَهِيَ سِيرَةٌ لِلرَّسُولِ ، نَظَّمَهَا أَحَدُ عُلَمَاءِ الْمَغْرِبِ ، وَهُوَ عَثْمَانُ بْنُ عَلِيٍّ ، مُعَارِضًا بِهَا بُرْدَةَ الْبوصِيرِيِّ . وَيَقُولُ الْكَتَّانِيُّ عَنْهَا إِنَّهَا تَقَعُ فِي تِسْعَةِ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ ، عَلَى بَحْرٍ وَاحِدٍ وَرَوِيٍّ وَاحِدٍ . وَلَسْنَا نَعْرِفُ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ قَصِيدَةً وَاحِدَةً بَلَّغَتْ هَذَا الطَّوْلَ ، وَيَقُولُ الْكَتَّانِيُّ مُعَلِّقًا عَلَيْهَا : « أَعْجَبُ مَا أَلَّفَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَبْدَعُ مَا نَظَّمَ ، نَفَاخَرُ بِهَا نَظْمَ الْإِلْيَازَةِ »^(٢) . غَيْرَ أَنَّ الْأَبْيَاتَ الَّتِي اقْتَطَفَهَا مِنْهَا فِي كِتَابِهِ لَا تُصَدِّقُ هَذَا الْحُكْمَ^(٣) ؛ إِذْ هِيَ كَمَا تَبَيَّنَ لَنَا لَا تَزِيدُ عَلَى كَوْنِهَا نَظْمًا مَغْسُولًا رَدِيءَ النَّسْجِ ، تَغْلِبُ عَلَيْهِ الرُّكَاكَةُ وَالتَّكْلُفُ الْبَالِغُ .

وَيُفْهَمُ مِنْ عِبَارَةِ الْمَقْرِيِّ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ أَنَّ عَالِمًا مَغْرِبِيًّا عَاشَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ ، وَيَدْعَى الْحَسَنَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ عَبْدِ عُدْرَةَ الْمَغْرِبِيِّ الْأَنْصَارِيِّ ، قَامَ بِجَمْعِ مَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ مِنْ مَدَائِحِ نَبَوِيَّةٍ فِي كِتَابٍ بِعَنْوَانِ « مُنْتَهَى السُّؤْلِ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ » ، وَهُوَ يَقَعُ فِي خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ مُجَلَّدًا عَلَى الْأَقْلُ^(٤) . وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ مَا اسْتَطَاعَ جَمْعُهُ ذَلِكَ الْعَالِمُ الْمَغْرِبِيُّ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ ؛ فَمَا الظَّنُّ بِالْمَدَائِحِ الَّتِي اسْتَمَرَّ نَظْمُهَا فِي الْقُرُونِ التَّالِيَةِ ؟

* * *

عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُنَبِّهَ إِلَى أَنَّ الْقِيَمَةَ الْفَنِّيَّةَ لكَثِيرٍ مِنْ هَذَا الشُّعْرِ مَحْدُودَةٌ ضَعِيفَةٌ ، بَلْ وَتَكَادُ تَنْعَلِمُ أحيانًا ، فَشَرَفُ الْمَمْدُوحِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْتَقَّ

(١) التَّرَاتِيبُ الْإِدَارِيَّةُ ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٢) نَفْسُ الْمَرْجِعِ وَالصَّفْحَةُ .

(٣) انْظُرْ أَمْثَلَةً مِنْهَا فِي التَّرَاتِيبِ الْإِدَارِيَّةِ ، ج ١ ، ص ٣١ ، ٣٦ ، ٣٥٣ ، ج ٢ ، ص ٨٨ ، ١١٠ .

(٤) نَفْحُ الطَّيِّبِ ، ج ٧ ، ص ٤٧٥ .

دائمًا لما دخل هذا الشعر من النظم الرديء ، الذي صنعه من لم يرزقهم الله حظًا من الموهبة الشعرية الحقيقية^(١). هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى أن الموضوعات التي تناولها كثير من المادحين تكاد تكون واحدة ، ويكثر فيها الإلحاح على معجزات تنسب للرّسول ﷺ مما شاع على ألسنة القصّاص ، ولم تُثبت ككتب السيرة الموثوق بصحتها ، فقد تضخّمت هذه المعجزات وأضيفت إليها تفاصيل خرافية كثيرة من نسج الخيال ، كذلك أسرف ناظمو هذه القصائد في طلب الشفاعة والتوسّل بقبر الرّسول ﷺ ، وبعض ما يذكر من مُخلّفات ، مثل ذلك الأدب الكثير الذي ألف شعرًا ونثرًا حول « النّعال النبوية »^(٢).

ولهذا فقد أنكر بعض العلماء تلك الاحتفالات بالمولد النبويّ ، وبما شاع بين العامة من الاحتفال بموالد الأولياء والصّالحين ، واعتبروا ذلك من البدع الضّارة ، وكان ممّن نادوا بذلك النّكير قديمًا ابن تيميّة ، ثم عاد إلى محاربة بدعة الموالد في العصر الحديث الإمام محمد بن عبد الوهّاب (ت ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م) صاحب الدّعوة السّلفيّة ، وقد أثارها حربًا على كلّ هذه المظاهر التي عدّها لونًا من ألوان الشّرك ، وأخذ برأيه بعض روّاد الإصلاح الدّينيّ المحدثين ، وإن كان ذلك على نحو أقلّ عنفًا ، مثل الإمام مُحمّد عبّده ، الذي كان يتمنّى أن يُنفق على تعليم الفقراء ما يصرف على احتفالات المولد النبويّ وموالد الأولياء^(٣). ومع ذلك فقد استقرّت هذه الاحتفالات وأصبحت لها تقاليد مرعية في معظم البلاد الإسلاميّة ، ولم يعد هناك سبيل

(١) لابن خلدون في مقدمته (ص ٥٧٨) - حُكّم على شعر المديح النبوي الذي كان شائعًا في عصره يقول فيه : « كان الشعر في الرّبابيّات والتّبويّات قليل الإجابة في الغالب ، ولا تحلّق فيه إلا الفحول ... لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتلّة لذلك . » وهو حكم نعتقد أنه صحيح تمامًا .

(٢) انظر على سبيل المثال أزهار الرياض للمقرّي ، ج ٣ ، ص ٢٢٤-٢٨٢ .

(٣) انظر زعماء الإصلاح لأحمد أمين ، ص ١٤ ، ٢٤ .

لِلْغَائِثِهَا ؛ لِمَا تَأَصَّلَ فِي نَفُوسِ جَمَاهِيرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حُبِّهَا وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ،
واعتبارها مظهرًا محببًا من مظاهر التدنُّين الخالص .

البَدِيعِيَّات :

ونأتي في النهاية إلى فنِّ متفرِّع من هذه الشَّجرة الوارفة : شجرة المدائح
النَّبَوِيَّة ، وهو فنُّ يُوظَّفُ المديح النَّبَوِيَّة لخدمة عِلْم من علوم العربيَّة ، هو علم
البديع .

وأوَّل من أَلَف في هذا الفنِّ هو علي بن عثمان الإربليّ (ت ٦٧٠) ،
وهو شاعر مصريّ نظَّم قصيدة لامية جعل في كلِّ بيت منها لونًا من ألوان
البديع ، غير أنها لا تُعدُّ مِمَّا نحن بصددِّه ؛ إذ إنها ليست في المديح النَّبَوِيَّة^(١).

فالبداية الحقيقيَّة لهذا الفنِّ هي قصيدة صَفِيِّ الدين الحليّ (ت ٧٥٠)
التي عارض بها البوصيري ، وتقع في ١٤٥ بيتاً ، في كلِّ منها مُحَسَّن أو
أكثر من مُحَسِّنَات البديع ، ومطلع هذه القصيدة :^(٢)

إِنْ جِئْتَ سَلَمًا فَسَلِّ عَنْ جِيرَةِ الْعَلَمِ وَاقْرَ السَّلَامَ عَلَى عَرَبٍ بِذِي سَلَمِ
وقد قدَّم لقصيدته بكلمة يقول فيها إنه رأى رسالة في منامه من النَّبِيِّ ﷺ
يتقاضاه المدحَ ويَعِدُّه الشِّفاءَ من مرض أَلَمَّ به ؛ فعزم على تأليف هذه القصيدة
جامعاً فيها أَشْتَاتَ البديع ، وسَمَّاها « الكافيَّة البديعيَّة في المدائح النَّبَوِيَّة » .
ويقول الحليّ في تقديم القصيدة مفتخرًا بعمله : « وَأَلَزَمْتُ نَفْسِي فِي نَظْمِهَا
عَدَمَ التَّكَلُّفِ وَتَرْكَ التَّعَسُّفِ ، وَالْجَرِي عَلَى مَا أَخَذْتُ بِهِ نَفْسِي مِنْ رِقَّةِ اللَّفْظِ
وسهولته وقوَّة المعنى وصحَّته ».^(٣)

على أننا حينما نتأمَّل القصيدة يتبيَّن لنا أن الصَّفِيَّ الحليّ كان مُسْرِقًا في

(١) انظر ترجمة له ومقطعات من قصيدته ، في قَوَاتِ الرِّقَايَات لابن شاکر الکُتَيْبِي ، ج ٣ ، ص ٣٩-٤٢ .

(٢) ديوان صفي الدين الحليّ ، ط النجف ١٩٥٦ ، ص ٤٧٤-٤٨٨ .

(٣) الديوان ، ص ٤٧٥ .

الإعجاب بنفسه ؛ فهي لا تخلو من التَّكَلُّفِ واعتساف القوافي ، وإن كانت بوجهٍ عامٍّ من المدائح الجيدة ، لا سيما إذا قَدَّرنا أن الشعر في هذا العصر كان يتَّسم بقدر غير قليل من الضَّعْف والركاكة والإغراق في الزَّخارف اللَّفْظِيَّة . وفي هذه القصيدة يقول الشاعر^(١) :

هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي آيَاتُهُ ظَهَرَتْ
مِنْ قَبْلِ مَظْهَرِهِ لِلنَّاسِ فِي الْقِدَمِ
مُحَمَّدُ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ مَنْ خُتِمَتْ
بِمَجْدِهِ مَرْسَلُو الرَّحْمَنِ لِلْأَمَمِ
بِهِ اسْتَغَاثَ خَلِيلُ اللَّهِ حِينَ دَعَا
رَبَّ الْعِبَادِ فَقَالَ الْبَرْدُ فِي الضَّرَمِ
كَذَاكَ يُوسُفُ نَاجَى رَبَّهُ فَتَجَا
مَنْ بَطَّنَ نُونٌ لَهُ فِي الْيَمِّ مُلْتَقِمِ
صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا طَلَعَتْ
شَمْسٌ وَمَا لَحَ نَجْمٌ فِي دُجَى الظُّلَمِ^(٢)

وقد ساق الصَّفِيُّ هذه الأبيات الخمسة شواهد على خمسة ألوان من البديع ، وهي على التوالي : التهذيب والتأديب ، والتقيد بحرف الميم (أي أن تكون الميم في كل كلمة من كلمات البيت) ، والتَّمَكِين ، والتَّسْهِيم ، والتَّفْصِيل .

وتتوالى البديعيات بعد ذلك خلال القرون التالية ، وهي قصائد ذات طابع تعليمي ، وإنما يأتي المديح النَّبَوِيُّ فيها عارضاً بهدف التَّبَرُّك ؛ ولهذا فلن نوليها اهتماماً كبيراً .^(٣) غير أننا سنتوقف قليلاً عند أشهر مؤلفي هذا اللون من

(١) الديوان ، ص ٤٨٥ . (٢) خليل الله إبراهيم ؛ والضَّرم : النَّار ، والتَّون : الحوت .

(٣) يمكن تتبع هذه البديعيات في الفصل الذي أفرده لها الدكتور شوقي ضيف في كتاب « البلاغة : تطور

القصائد ، لا من أجل هذا السبب فحسب ؛ بل لأنه ممّن أفردوا للمديح النبويّ ديواناً كاملاً .

الشاعر الذي نعينه هو شمس الدين محمد بن أحمد المعروف بابن جابر ، وهو أندلسيّ وُلد في مدينة المرية سنة ٦٩٨ ، وفقد بصره صغيراً ، غير أن ذلك لم يمنعه من الإكباب على الدّراسة والقراءة على شيوخ عصره ، ثم خرج مع صاحبه ورفيق عمره أبي جعفر الرُّعَيْنِيّ للحجّ في سنة ٧٣٨ ، وبعد الحجّ استقرّ الرُّجلان في بلاد الشّام ، واستوطن ابن جابر مدينة البيرة على نهر الفرات حتى وفاته سنة ٧٨٠^(١).

أما بديعته التي عُرِفَت في تاريخ البلاغة باسم « بديعة العميان » ، فهي التي سمّاها « الحلة السيّرا في مدح خير الوَرَى » ، وهي إحدى قصائد ديوان كامل أفرده للمديح النبويّ ، بعنوان « العقدين في مدح سيّد الكوّنين » ، الذي مازال مخطوطاً حتى اليوم^(٢).

ومطلّع هذه القصيدة :

بِطَيْبَةِ أَنْزِلَ وَيَمَّمُ سَيِّدَ الْأُمَمِ وَأَنْشُرَ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْثُرَ طَيْبَ الْكَلِمِ

وتقع في ١٧٧ بيتاً ، ويقول ابن جابر في تقديمها « إنها مشتملة على فنيّ البديع اللفظيّ والمعنويّ » ، وقد أحصى في هذه القصيدة ستين نوعاً من أنواع البديع ، وقام بشرحها صاحبه أبو جعفر الإلبيري ، في كتاب سمّاها « طراز الحلة وشفاء الغلّة » . وهي تبدو لنا أقلّ البديعيّات تكلفاً ؛ فهو لم يُسرف في تفرّيع أنواع البديع ، كما فعل صفيّ الدين الحلّي قبله وابن حجة الحمويّ

(١) في ترجمة ابن جابر انظر الوافي بالوقايات للصّغدي ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، ونفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٦٤-٦٥٧ ، ج ٧ ، ص ٣٠٢-٣٠٥ ، والدّرر الكامنة لابن حجر ، ج ٣ ، ص ٤٢٩ .

(٢) قام بتحقيق هذا الديوان المخطوط ودراسته الباحث المغربي الفشري عيسى في رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في جامعة القاهرة بإشراف كاتب هذه السطور .

وغيره بعده ؛ إذ كان هم هؤلاء استنباط أنواع جديدة من البديع ، والتفاحر بالاستكثار منها .

ومن الواضح أن الهدف المزدوج من هذه البديعيات ؛ وهو المديح النبوي في قالب تعليمي بلاغي قد جعلها أشبه بمنظومات العلوم بما فيها من تكلف ؛ ولهذا فإن القارئ لا يكاد يهتز لها ، ولا يكاد يرى فيها قيمة فنية .

وتبدأ القصيدة - مثل سائر قصائد الديوان - بمقدمة يصور الشاعر فيها شوقه لزيارة الأماكن المقدسة ، ويمضي الشاعر مباشرة إلى مديح الرسول ؛ فيتحدث عن شمائله ، ويذكر فضله على سائر الأنبياء ، ويتبع ما نُسب إليه من معجزات ويتحدث عن غزواته ، ثم يتحدث عن فضائل صحابته ، وينتهي القصيدة بطلب الشفاعة والتوسل بجاه النبي ﷺ لغفران ذنوبه .

ومن أجود أبيات القصيدة قوله مشيراً إلى خبر الإسراء والمعراج ، مستخدماً ألفاظ القرآن الكريم ، ومُضمناً ألفاظ بعض الأحاديث الشريفة :

دُو مِرَّةً فَاسْتَوَى حَتَّى دَنَا قَرَأَى وَقِيلَ : سَلْ تُعْطَ قَدْ خَيْرَتْ فَاحْتَكِمِ
وَكَانَ آدَمُ إِذْ كَانَتْ نَبُوَّتُهُ مَا بَيْنَ مَاءٍ وَطِينٍ غَيْرَ مُلْتَمِمِ
قَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ بِهِ فَقَالَ : وَالنَّجْمِ ، هَذَا أَوْفَرُ الْقَسَمِ
مَا بَيْنَ مَنِيرِهِ السَّامِيِّ وَحُجْرَتِهِ رَوْضَ مِنَ الْخُلْدِ ، نَقْلَ غَيْرِ مُتَّهَمِ

وأشهر البديعيات بعد قصيدة ابن جابر هي بديعة أبي بكر بن علي ، تقي الدين المعروف بابن حجة الحموي (ت ٨٣٧)^(١) . وهو أديب قضى حياته بين الشام ومصر ، وعمل كاتباً في ديوان الإنشاء ، ألف عديداً من الكتب ، أهمها بغير شك كتاب « خزانة الأدب » الذي شرح فيه بديعته التي أراد بها

(١) في ترجمة ابن حجة انظر السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، الجزء الرابع ، ج ٢ ، ص ٩٢٣ ، والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي ، ج ١١ ، ص ٥٣ .

أن يتفوق على من نظموا في هذا الفنَّ قبله ، كما أنه أراد أن يستدرك على من سبقوه أنواعاً من البديع لم يذكروها ، وقد التزم أن يُورِّيَ في كلِّ بيتٍ باسم النوع البديعيِّ الذي يأتي بالبيت شاهداً عليه ، ولا شكَّ في أن ذلك حمَّله على كثير من التكلُّف ، ومع ذلك فقد كان مَزْهُوا بعمله ، لا يكفُّ عن نقد من سبقوه وإبراز تفوقه عليهم .

والحقيقة أن القصيدة نفسها ليست في مستوى « بديعية العميان » ، من حيث كونها في المديح النبويِّ ، غير أن الذي منحها قيمة كبرى في تاريخ الأدب العربيِّ ، كان الشرح الذي صنعه لقصيدته وهو كتابُ الخزانة ، وفي هذا الشرح يبيِّن أنواع البديع التي يُعدِّدها ويكثر من الشواهد الشعرية والتعليقات النقدية عليها .

ومطلِّعٌ بديعيُّ ابن حِجَّة :

لي في ابتداء مدحكُم يا عَرَبَ ذي سَلَمٍ براعة تستهلُّ الدُّمْعَ في العَلَمِ

وهذا المطلع وحده يمثل لنا طريقة ابن حِجَّة في قصيدته ، فهو يتحدث عن براعة الاستهلال في المطالع ، ثم يعمل على شرح المقصود من هذا المصطلح في الشرح ، ويمثِّل له بأمثلة كثيرة ، إلا أنه يُصِرُّ على أن يُفحِّم في البيت نفسه المصطلح البلاغيَّ أو ألفاظاً مشتقة منه توحى به ، كما فعل هنا حينما قال « براعة تستهلُّ » ، غير أن البيت أتى في غاية من التكلُّف والضعف ، وهذا من جنابة الناحية التعليمية على الشعر ، والغريب أننا نستشفُّ من شرح ابن حِجَّة جودة ذوقه في اختيار الشواهد على ما يورده من ألوان البديع ؛ فالكتاب من هذه الناحية مُمتعٌ حقاً ، ولكن هذا اللُّوق خانهُ في نظمه هو ؛ إذ أتى هذا النظم مهلهلاً ركيكاً ، أقرب إلى السُّخف ، ومع ذلك فهو لا يكفُّ عن الإدلال بشعره والتمدح به ، وادِّعاء أنه فاق به كلَّ من تقدَّم .

الفصل الرابع المدائح النبوية في العصر الحديث

ليس من الغريب أن تظل شخصية الرسول ﷺ ملهمة للشعراء حتى اليوم ، وقد أشرنا إلى الكثرة الغامرة للمدائح النبوية حتى القرن التاسع ، ولم نتحدث إلا عن نماذج قليلة ممثلة لتطور هذا اللون وما تفرع منه ، وقد ازداد إقبال الشعراء على المدائح النبوية في العصور التالية طوال العصر العثماني ، وهو عصر تراجعت فيه العلوم ، واتجه الفكر خلاله إلى الجمود ، ونضب معين الابتكار ، فأصبح هم الأدباء هو تقليد من سبقهم ، أو معارضتهم ، أو التعليق على آثارهم ؛ ولذلك فقد كثرت خلال هذا العصر ، وحتى النهضة الأخيرة ، المعارضات والتشطيرات والتخميسات وما إليها ، وكلها محاولات تدل على افتقار الأصالة وجفاف القرائح ، وقد بقيت « برودة » البوصيري هي النموذج الأعلى للمديح النبوي ، وظل تألق هذه القصيدة مثيراً للشعراء ، حتى بعد الوتبة التي قُدرت للشعر العربي على يد رؤاد الإحياء ، وعلى رأسهم محمود سامي البارودي .

البارودي :

ولسنا في حاجة إلى الحديث عن شخصية البارودي ، وسيرة حياته إلا امتدت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (توفي سنة ١٩٠٤ م) . فقد كتبت حوله دراسات كثيرة هو جدير بها ؛ يحكم ما أجراه من دم جديدة في عروق الشعر العربي الحديث ، بعد أن أنعم النظر في الشعر القديم

في عصوره الزاهرة^(١).

وسوف نتوقف قليلاً عند معارضة جديدة قام بها البارودي لبردة البوصيري ، في القصيدة التي سماها - على طريقة القدماء - « كَشَفَ الغُمة في مَدَحِ سَيِّدِ الأُمَّة »^(٢) وهي مطوّلة تبلغ نحو أربعمئة وخمسين بيتاً من الشعر . وقد كان البارودي - في محاولته تخلصَ الشعرِ ممّا كان يُثقلُه من زخارف البديع اللفظي ، ويحفُّ به من الخواء المعنوي - يعمد إلى معارضة النماذج الجيدة للشعر القديم . وقد حفظ ديوانه لنا معارضاتٍ للنايعة الديباني ، وعنترة ، وأبي نواس ، والبحري ، والمتنبي ، وأبي فراس الحمداني ، والشريف الرضي . وكان يُحسن اختيار ما يعارضه من شعر ؛ إذ إن القصائد التي عارضها لهؤلاء الشعراء كانت من عيون شعرهم ، ويؤكد ذلك ما اتّسمت به « المختارات » التي انتخبها من الشعر العربي من جَوْدَةٍ لا شكَّ فيها ؛ فالبارودي كان ذوّاقاً للشعر بصيراً بنقده . ومعارضته لبردة البوصيري تدلُّ على اقتناعه بجودة هذه القصيدة ، هذا بالإضافة إلى تدنيهِ العميق ، ولا سيّما في سنواته الأخيرة ، التي قاسى فيها الكثير من آلام المنفى ، وفقدَ البصر وموتَ بعض أعزّائه الأحباء إليه .

ومطلعُ هذه القصيدة :

يا رائدَ البرقِ يَمِّمُ دَارَةَ العَلَمِ وأحذُ الغمامَ إلى حَيٍّ يَذِي سَلَمِ

ونحن نرى في هذا المطلع التقليديّ ما عهدناه في القصائد النبوية من ذِكرِ المواضع الحجازية ، وإهداءِ التّحية إليها مع الرّيح والبرق ، على نحو ما كنّا نرى في مطالع الشريف الرضي ومهيار الديلمي . ثم يمضي الشاعر في

(١) حوّل البارودي دراسات كثيرة ، يكفي أن نشير منها إلى كتاب الدكتور شوقي ضيف : البارودي رائد الشعر الحديث . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ .

(٢) لم تُنرَج هذه القصيدة في ديوان البارودي ، وطُبعت مستقلة في القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ . وهناك دراسة جيّدة لهذه القصيدة في كتاب الدكتور محمد حامد الحُصيري في كتابه « رسول الإنسانية محمد ﷺ في الأدب العربي الحديث » . القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٥٩-٢٧١ .

نَسِيبٍ لا يخرج فيه أيضاً عن تلك التقاليد الشعرية القديمة ، وهو يعترف بذلك في سُدَاجَةِ بريئة ؛ إذ يقول في آخر القصيدة :

صَدَّرْتُهَا بِنَسِيبٍ شَفَّ بَاطِنُهُ عن عِقَةٍ لَمْ يَشْنِهَا قَوْلُ مُتَّهِمٍ
لَمْ أَتَّخِذْهُ جِزَافًا بَلْ سَلَكْتُ بِهِ في القَوْلِ مَسْلَكَ أَقْوَامِ ذَوِي قَدَمٍ

فالشاعر يعتذر عن ذلك النسيب الذي لم يفرضه عليه إلا الالتزام بالتقاليد الشعرية الموروثة ، وهو يخشى أن يَتَّهِمَ بإساءة الأدب ، فيقول إنه كان غزلاً عفيفاً لا مَطْعَنَ فيه عليه . وهذا تَحَرُّجٌ قضى به تَزَمُّتُ مجتمعنا الحديث ؛ فكعب بن زهير وحسان بن ثابت قَدَمَا لمديحهما بغزل لم يحتاجا معه إلى مثل هذا الاعتذار .

ونمضي مع قصيدة البارودي فنجد أنه بعد أن تتبَّع فيها حياة الرسول منذ المولد ، كما وردت في كتب السيرة ، يُشير إلى بشائر هذا الميلاد ، على نحو ما فعل سائر المادحين النبويين ، فيقول مثلاً عن خبر الملكين اللذين شَقَّ صَدْرَ الرسول ﷺ في طفولته ، وأخرَجَا من قلبه العَلَقَةَ السوداء رمزاً لتطهير روحه من شوائب الهوى :

فَبَيْنَمَا هُوَ يَرَعَى الْبَهْمَ طَافَ بِهِ شَخْصَانِ مِنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ ذِي الْعِظَمِ
فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَّ صَدْرَهُ يَبْدِ رَفِيقَةٍ لَمْ يَسْتَ مِنْهَا عَلَى أَلَمٍ
وَبَعْدَمَا قَضَيَا مِنْ قَلْبِهِ وَطَرَا تَوَلَّيَا عَسَلَهُ بِالسُّلْسَلِ الشِّيمِ
مَا عَالَجَا قَلْبَهُ إِلَّا لِيَخْلَصَ مِنْ شَوْبِ الْهَوَى وَيَعِيَ قُدْسِيَّةُ الْحِكَمِ^(١)

ولا يختلف البارودي عن المادحين السابقين في تعداده لتلك المعجزات ؛ فهو يتحدث عن نبوءة بحيرا بما ينتظره من الرسالة ، بعدما رأى الغمامة تظللّه والشجرَ يحنو بأغصانه عليه :

(١) السُّلْسَلُ الشِّيمُ : الماء العذب البارد ، شَوْبُ الْهَوَى : مُخَالَطَتُهُ وَمُقَارَفَتُهُ .

وَقَالَ عَنْهُ بِحَيْرَا حِينَ أَبْصَرَهُ بِأَرْضِ بَصْرَى مَقَالاً غَيْرَ مُتَّهَمٍ
إِذْ ظَلَمَتْهُ الْغَمَامُ الْغُرَّ وَانْهَصَرَتْ عَطْفًا عَلَيْهِ قُرُوعُ الضَّالِّ وَالسَّلَمِ^(١)

ويتابع البارودي حياة الرسول متابعة تاريخية دقيقة ؛ فيتحدث عن خبر الإسراء والمعراج ثم الهجرة إلى المدينة ، ولا يفوته ذكرُ معجزة الغار والحمام المعشش على بابه ، ثم بلوغه يثرب في أمان وبنائه للمسجد الذي أصبح نواة للجماعة الإسلامية الجديدة ؛ بعد المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين . وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن غزوات الرسول وسراياه ، فيتبعها واحدة واحدة ، ملتزماً بترتيبها التاريخي ، وهو في كل ذلك لا يختلف عن المادحين السابقين ، غير أن وصفه لمشاهد القتال - وهو موضوعٌ مجبّب لدى البارودي الذي كان رجلاً سيفٍ وقلمٍ في الوقت نفسه - يتميز بالتوثيق والقوة :

فكَانَ يَوْمًا عَتِيدَ الْبَأْسِ نَالَ بِهِ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ جُهْدًا وَارِيَ الْحَدَمَ
قَامَ النَّبِيُّ بِهِ فِي مَازِقِ حَرْجٍ تَرَعَى الْمَنَاصِلُ فِيهِ مَنِبَتَ الْجُمَمِ
فَلَمْ يَزَلْ صَائِرًا فِي الْحَرْبِ يَفْقُوْهَا بِالْبَيْضِ حَتَّى اكْتَسَتْ ثَوْبًا مِنَ الْعَمَمِ^(٢)

ويتضح طابع السرد التاريخي في حديثه عن هذه الغزوات ، حينما يختم هذا الحديث بقوله :

فَهَذِهِ الْغَزَوَاتُ الْغُرَّ شَامِلَةٌ جَمَعَ الْبُعُوثِ كَدْرٌ لَاحَ فِي نَظْمٍ
نَظَّمْتُهَا رَاجِعًا نَيْلَ الشَّفَاعَةِ مِنْ خَيْرِ الْبَرَائِي وَمَوْلَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ

ويتحدث بعد ذلك عن فتح مكة وأنشغال الوفود على الرسول ﷺ من سائر أنحاء الجزيرة ، وكان بذلك انتصار الإسلام الأخير وتتمام الرسالة . ويختم

(١) انْهَصَرَتْ : عطفت ومالت ، والضال والسلم : نوعان من الشجر .

(٢) الْحَدَمُ : التهاب النار ، و الْمَنَاصِلُ : جمع متصل وهو السيف ، والجُمَمُ : جمع جُمَّة وهي مجتمعة الشعر ، ومنِبَتَ الْجُمَمِ يعني الرقاب ، والبيض : السيوف ، والعَمَمُ : صبغ أحمر يشبه به الدم .

البارودي القصيدة كما فعل المادحون السابقون ، معترفاً بذنوبه ، معبراً عن ندمه ورجائه في المغفرة بجاه رسول الله ﷺ وشفاعته .

وهكذا نرى قصيدة البارودي لا تكاد تختلف في شيء عن سائر المدائح النبوية في مضمونها ومحتواها ، إلا أنها تتميز عليها بطولها الذي سمح للشاعر باستقصاء الأحداث على نحو أكثر تفصيلاً ، ثم يبعدها عن التكلف أو الغرام بالزخارف البديعية ، مما رأيناه في معظم المدائح النبوية ، ولا سيما تلك التي حشأها أصحابها بألوان البديع ، وأخيراً لا تخلو قصيدة البارودي من استرسالات غنائية نحس فيها بحرارة الإيمان وصدق التعبير .

أحمد شوقي :

ونصل إلى أشهر معارضة للبردة في العصر الحديث ، وهي « نهج البردة » لأمير الشعراء أحمد شوقي (المتوفى سنة ١٩٣٢) .^(١) والحقيقة أن هذه القصيدة ليست هي الوحيدة التي نظمها شوقي في المديح النبوية ؛ إذ إن له إلى جوارها همزيتة النبوية المشهورة ، وقصيدتين في ذكرى المولد النبوي ؛ وأرجوزة في السيرة النبوية مدرجة في ديوانه « دول العرب وعظماء الإسلام » ، هذا فضلاً عما ورد عن الرسول ﷺ في عرض قصائده الأخرى ، وهي إشارات ليست قليلة . ولا يتسع المجال لدراسة ما أداره شوقي من شعر حول شخصية الرسول ﷺ^(٢) ؛ ولهذا سنكتفي بأشهر قصائده النبوية .

وتقف « نهج البردة » على رأس هذه القصائد ، وهي أطولها أيضاً ؛ إذ تبلغ مائة وتسعين بيتاً .

(١) الدراسات حول شوقي أكثر من أن تحصى ، ويكفي أن نشير إلى أهمها وأحدثها : وهي كتاب الدكتور شوقي ضيف « شوقي شاعر العصر الحديث » ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٣ ، ودراسة الدكتور طه وادي « شعر شوقي الغنائي والمسرحي » ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨١ ، ودراسة الأستاذ عرفان شهيد « العودة إلى شوقي ، أو بعد خمسين عاماً » ، بيروت ١٩٨٦ .

(٢) هناك دراسة للدكتور أحمد الحوفي حول « الإسلام في شعر شوقي » ، القاهرة ١٩٦٢ .

وتبدأ القصيدة بمقدمة غزلية ، من الواضح أن الشاعر لم يأت بها إلا تقليداً للشعراء السابقين ، وأعتقد أن هذه المدحة للرسول كانت في غنى عن هذه المقدمة ، التي بلغت أربعة وعشرين بيتاً ، منقطعة السبب بما بعدها ، حتى وإن قال في نهايتها إن عفته العذرية تقف حجاباً بينه وبين تلك المحبوبة الخيالية ، وهذا ضرب من الاعتذار يشبه ما قاله البارودي أيضاً عن النسب الذي افتتح به مدحته .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى مخاطبة نفسه واعظاً لإياها ، ومبدياً الندم على ما قرط من ذنوبه ، وهو يختم هذا الجزء بأبيات سارت مسار الأمثال حول التحكم في الشهوات ، وكبح جماحها ، ويبدو هنا متأثراً بأبيات البوصيري في ذلك ، وإن كانت أبيات شوقي لا تقل عنها جمالاً :

صَلاَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ فَقَوْمُ النَّفْسِ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِيمُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخِيمِ
تَطْفَى إِذَا مَكَّنَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهْوَى طَغَى الْجِيَادِ إِذَا عَصَّتْ عَلَى الشُّكْمِ^(١)

ويصل إلى موضوعه الرئيسي بعد اثنين وأربعين بيتاً ، ولكنه يقحم بعد ذلك بيتاً لا نحسبه موقفاً فيه ، يصف فيه نفسه بأنه أشعر من زهير بن أبي سلمى وأجود من هرم ممدوح زهير . ثم يشرع في وصف الرسول بما رأيناه من قبل في شعر المديح المتأثر بأفكار الصوفية ، حول الحقيقة المحمدية ؛ فالرسول ﷺ هو غايته الله من خلقه ، وهو صاحب الحوض يوم القيامة ، على حين يقف الرسل حائرين لا يعرفون متى يكون الورود ، وجبريل نفسه ظمآن ، ولا غرو فالأنبياء جميعاً إنما ينتسبون إليه ، وإن كانوا أسبق وجوداً مادياً منه ، ذلك لأنه النور الذي انبثقوا منه :

(١) مرتع : مرغى ، وخم : رديء وبيء ، الشكْم جمع شكيمة : الحيلة المعترضة في فم الفرس .

مُحَمَّدٌ صَفْوَةُ الْبَارِي وَرَحْمَتُهُ وَبُغْيَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِي وَمِنْ نَسَمِ
وَصَاحِبِ الْحَوْضِ يَوْمَ الرُّسُلِ سَائِلَةٌ مَتَى الْوُرُودُ ؟ وَجِبْرِيلُ الْأَمِينُ ظَلَمِي
نُمُوا إِلَيْهِ فَزَادُوا فِي الْوَرَى شَرْفًا وَرَبُّ أَصْلٍ لِفَرْعٍ فِي الْفَخَارِ نُمِي
حَوَاهُ فِي سُبْحَاتِ الطُّهْرِ قَبْلَهُمْ ثَوْرَانِ قَامَا مَقَامَ الصُّلْبِ وَالرَّحِمِ

وفي هذه الأبيات نفحة صوفية واضحة ومبالغات لا نظنُّ شاعراً قبل شوقي جرؤ على قولها . ويقصُّ علينا الشاعر بعد ذلك بعض ما يُذكر من معجزات الرُّسول ، منها خبرٌ بَحيرا المعروف ، وتفجُّر الماء من بين أصابعه ، وتظليل الغمامة له ، وله في هذه المعجزة تعبيرٌ رائع ، إذ يقول إن الغمامة التي ظلَّلتها إنما كانت تستظلُّ به :

وظلَّلتُهُ فَصَارَتْ تَسْتَظِلُّ بِهِ غَمَامَةٌ جَذَبَتْهَا خَيْرَةُ الدِّيمِ

ويعبِّر بعد ذلك عن نزول الوحي عليه ، وأوَّل آيةٍ نزلت من آي القرآن ، في بيتين من أروع ما في القصيدة :

وَنُودِيَ أَقْرَأْ تَعَالَى اللَّهُ قَاتِلُهَا لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمِ
هَنَّاكَ أَذُنٌ لِلرَّحْمَنِ فَاِمْتَلَأْ أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَةِ النَّعَمِ

ويصلُّ شوقي ذلك بالحديث عن معجزة القرآن الخالدة المتجددة ، على حين أن سائر معجزات الأنبياء قد انقضت بانصرام أيامهم :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَاِنصَرَمَتْ وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدَّدَ يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِتْوِ وَالْقِدَمِ

أما حديث شوقي عن بشائر المولد فهو يكتفي فيه بإشارة سريعة إلى تصدُّع إيوان كسرى ، ويستعِضُّ عن ذكر المعجزات بالحديث عمَّا أطبق على العالم من ظلم وطغیان في مملكتي الفرس والروم . ثم يُفرد بعد ذلك أبياتاً حول خبر

الإسراء والمعراج ، وهي من أجمل أبيات القصيدة ، إذ تُحسُّ فيها يتَسامُ رُوحِي
يُتَّفَقُ مع جلال الحدث :

أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكُهُ وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمٍ
لَمَّا خَطَرَتْ بِهِ التَّقْوَا بِسَيِّدِهِمْ كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالجَنْدِ بِالْعَلَمِ
صَلَّى وَرَأَاكَ مِنْهُمْ كُلُّ ذِي خَطَرٍ وَمَنْ يَفْزُ بِحَبِيبِ اللَّهِ يَأْتِمِمْ
جَبَّتِ السَّمَوَاتِ أَوْ مَا قَوْفَهُنَّ بِهِمْ عَلَى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللَّجْمِ
حَتَّى بَلَغَتْ سَمَاءً لَا يُطَارُّ لَهَا عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمٍ
وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَبِّتِهِ وَيَا مُحَمَّدُ هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ
خَطَطْتَ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا عُلُومَهُمَا يَا قَارِئَ اللُّوحِ بَلْ يَا لَامِسَ الْقَلَمِ
أَحْطَتْ بَيْنَهُمَا بِالسَّرِّ وَانْكَشَفَتْ لَكَ الْخَزَائِنُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمٍ^(١)

ويعودُ إلى ذكر بعض معجزات الرسول ولكن في إيجازٍ سريع ، ثم يُناجي
الرسول ﷺ مُثْنِيًا على بُرْدَةِ البوصيري ومتواضعًا أمامه ، إذ إنه يُقَرُّ بعجزه عن
معارضته ، ثم يعودُ للمديح فيُشيدُ بشمائل الرسول من حُسنٍ وشرفٍ وكرمٍ
ورفعةٍ وشجاعةٍ وزُهدٍ في الدنيا ، ويعقد مقارنةً طريفةً بينه وبين عيسى عليه
السَّلامُ ، فيقول :

أَخُوكَ عِيسَى دَعَا مَيِّتًا فَقَامَ لَهُ وَأَنْتَ أَحْيَيْتَ أَجْيَالًا مِنْ الرَّمَمِ
وَالْجَهْلُ مَوْتُ فَإِنْ أُوتِيتَ مُعْجَزَةً فَابْعَثْ مِنَ الْجَهْلِ أَوْ فَابْعَثْ مِنَ الرُّجَمِ^(٢)

ويُنتدبُ شوقي بعد ذلك للدِّفاع عن الإسلام إزاء من تهجَّموا عليه من
مُبْغِضِيهِ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ ، وما يتردَّد على ألسنتهم من أن الإسلام دينُ حربٍ ،

(١) الْمُنَوَّرَةُ الدُّرِّيَّةُ اللَّجْمُ : يقصد بها البُرَّاق ، خطَّطت علوم الدين والدنيا : يعني تعليمها للناس ، وقراءة اللوح
ولس القلم : كناية عن إطلاع الله تعالى له على علوم الغيب .

(٢) الرُّجَمُ : الحجارة تُنصب حول القبر ، ويقصد القبور نفسها .

وأن انتشاره إنما كان بالسيف ، فإردُّ هذه التُّهمَ بِجَجٍ ناصعة ؛ فالإسلام لم يستخدم السيف إلا بعد أن استنفد وسائل الدُّعوة بالكلمة ، وحينئذٍ لا يكون هناك مفرُّ من اللجوء إلى القوَّة ، وهو يُشير إلى ما لقيه المسيحيون الأوائل من الاضطهاد الذي لم يُحَسِّمَ إلا بالدِّفاع المشروع عن النفس ، ويدافع عن مبدأ الجهاد الإسلامي الذي التزم بقواعد خَلْقِيَّةٍ تُرعى فيها الذَّمُّ والمواثيق :

قَالُوا عَزَّوْتَ وَرَسَلُ اللّٰهِ مَا بُعِثُوا	لِقَتْلِ نَفْسٍ وَلَا جَاءُوا لِسَفْكِ دَمٍ
جَهْلٌ وَتَضْلِيلٌ أَحْلَامُ وَسَفْسَظَةٌ	فَتَحَّتْ بِالسَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّه بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ	ذَرْعًا ، وَإِنْ تَلَقَّه بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ
سَلِ الْمَسِيحِيَّةَ الْغَرَاءَ كَمْ شَرِبَتْ	بِالصَّبَابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْعَلِمِ
لَوْلَا حُمَاةُ لَهَا هَبُّوا لِنَصْرَتِهَا	بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرَّفْقِ وَالرَّحْمِ

.....

عَلِمْتَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ حَتَّى الْقِتَالِ وَمَا فِيهِ مِنَ الذَّمِّ (١)

وفي حديثٍ طويل يُشيد شوقي بشريعة الإسلام ، وما بنته من حضارة قائمة على العدل والعلم والتسامح ، ويقارن بين حضارة الإسلام وحضارات الأمم القديمة من قُرس ويونان ومصريين ورومان ؛ فيقول إنها فاقت كل تلك الحضارات بفضل مبادئ الإسلام ، وتعاليمه القائمة على التوحيد :

شريعة لك فَجَّرَتِ العقولَ بها	عن زاخِرٍ يصنُوفِ العِلْمِ مُلتَطِّمِ
يلوح حَوْلَ سَنَا التَّوْحِيدِ جَوْهَرُهَا	كالحَلِيِّ لِلسَّيْفِ أَوْ كَالْوَشْيِ لِلْعَلَمِ
نُورُ السَّبِيلِ يُسَاسُ الْعَالَمُونَ بها	تَكَفَّلْتُ بِشَبَابِ الدَّهْرِ وَالْهَرَمِ
لَمَّا اعْتَلَتْ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ وَاتَّسَعَتْ	مَشَتْ مَمَالِكُهُ فِي نُورِهَا التَّمِيمِ

(١) الصَّبَابُ : شجر شديد المرارة ، والعَلِمُ : الهائج الثائر ، والرَّحْمُ : الرِّفْقُ والمغفرة ، الذَّمُّ : العهود والمواثيق .

وَعَلِمَتْ أُمَّةٌ بِالْفَقْرِ نازِلَةٌ رَعِيَ الْقِيَاصِ بَعْدَ الشَّاءِ وَالنَّعَمِ
كَمْ شَيْدَ الْمُصْلِحُونَ الْعَامِلُونَ بِهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مُلْكًا بَاذِخَ الْعِظَمِ
لِلْعِلْمِ وَالْعَدْلِ وَالتَّمْدِينِ مَا عَزَمُوا مِنْ الْأُمُورِ وَمَا شَدُّوا مِنْ الْحَرَمِ

.....

دَارُ الشَّرَائِعِ رُومًا كُلَّمَا ذُكِرَتْ دَارُ السَّلَامِ لَهَا أَلَقَتْ يَدَ السَّلَامِ^(١)

ويفتخر الشاعرُ بخلفاء الإسلام فيذكر بعضهم بغير ترتيب ؛ يذكر هارون الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم ، ثم الخلفاء الراشدين وما أُنسِمَ به كلُّ منهم ، وينتهي القصيدة بالصلوة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحابه :

يَا رَبَّ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أَرَدْتَ عَلَى نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرَ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ
وَصَلِّ رَبِّ عَلَى آلِهِ لَهْ نُخْبٍ جَعَلْتَ فِيهِمْ لِيَوَاءَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ
وَأَهْدِ خَيْرَ صَلَاةٍ مِنْكَ أَرْبَعَةً فِي الصُّحُبِ صُحْبَتُهُمْ مَرْغِيَّةُ الْحَرَمِ

وفي خشوع يرفع الشاعر ابتهاجاً إلى الله لا يطلب فيه لنفسه شيئاً ، وإنما يطلب لأمته من المسلمين ، فيتحدث عن الواقع السيئ المتخلف الذي يعيش فيه مسلمو اليوم ، على حين تسير أمة أخرى كثيرة نحو التقدم ، وإذا كان هذا هو قضاء الله الذي يُداول الأيام بين الناس ؛ فلا مَقَرٍّ من الرضا به ، غير أنه يطلب اللطف في هذا القضاء ، وأن يرحم المسلمين بجاه نبيه الكريم :

يَا رَبِّ هَبْ شُعُوبَ مَنْيَّتِهَا	وَاسْتَيْقِظْ أُمَّةً مِنْ رَقْدَةِ الْعَدَمِ
سَعْدٌ وَنَحْسٌ وَمُلْكٌ أَنْتَ مَالِكُهُ	تُدِيلُ مِنْ نِعَمٍ فِيهِ وَمِنْ نِقَمِ
رَأَى قَضَاؤُكَ فِينَا رَأْيَ حِكْمَتِهِ	أَكْرَمَ بِوَجْهِكَ مَنْ قَاضٍ وَمُنْتَقِمِ

(١) التَّيْم : التَّامُّ الكامل ، شباب الدهر وهرمه ؛ أَوَّلُ الزَّمَانِ وَآخِرُهُ ، النَّعَم : الماشية ، الْحَرَم : جمع حِزَام ، أَلَقَتْ يَدَ السَّلَام : سلمت لها واعترفت بفضلها ، ودار السَّلَام : بغداد .

فَالطُّفُ لَأَجْلِ رَسُولِ الْعَالَمِينَ بِنَا وَلَا تَزِدْ قَوْمَهُ خَسْفًا وَلَا تَسْمُ
يَا رَبِّ أَحْسَنْتَ بَدْءَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ فَتَمِّمِ الْفَضْلَ وَأَمْنَحْ حَسَنَ مُحْتَتَمٍ

هذه هي « نهج البردة » التي نرى أن شوقي كان موفقاً فيها كل التوفيق ، فهي ليست معارضة تقليدية للبردة مما عهدناه من قبل ، إنما هي نظرة متأملة لشخصية الرسول ﷺ ومكانته من التاريخ ، باعتباره مبعوثاً مبلغاً لرسالة السماء ، وباعتباره قائداً وإنساناً ، ثم نرى فيها عرضاً لشرعية الإسلام وقيمته ، وتقويماً لحضارته ودفاعاً عنه إزاء مهاجميه ، وتصويراً لواقع الأمة الإسلامية ، هذا .. بينما يوجز الحديث عما اعتاد المادحون السابقون الإطناب فيه من ذكر المعجزات والخوارق ، فكأن الشاعر يواكب ما أصاب مجتمعنا الحديث من تغير ؛ إذ إنه يخاطب العقول المثقفة التي لم تعد تستهويها خوارق نواميس الطبيعة ، ولهذا فإنه يُفرد مساحة واسعة للحديث عن القرآن الكريم ؛ معجزة الإسلام الخالدة المتجددة . والقصيدة مع ذلك تتسم بروحانية متسامية ، تقترب بالشاعر من عالم الصوفية ، وإن لم يكن هو متصوفاً ، كما نحس في كثير من أبياتها بحرارة الإيمان وصدق الشاعر .

خاتمة

وبعد .. فهذه سياحة قمنا بها في عالم المدائح النبوية ، التي بدأت في حياة رسول الإسلام محمد ﷺ ، في أوائل القرن السابع الميلادي حتى أمير شعراء العربية في القرن العشرين أحمد شوقي (المتوفي سنة ١٩٣٢) ؛ أي على مدى ثلاثة عشر قرناً ، ولم تنقطع هذه المدائح بعد أحمد شوقي ، بل قد استمرت بعده وخصص لها بعض شعرائنا المعاصرين دواوين كاملة ، نذكر منهم أحمد محرم (١٨٧٧-١٩٤٥) الذي نظم السيرة النبوية في ديوان ضخيم هو « مجد الإسلام » أو « الإلياذة الإسلامية » ، وقد قسمه الشاعر إلى أربعة أقسام ، فأفرد الأقسام الثلاثة الأولى للحديث عن عصر الرسول ﷺ ، وما ساد من فساد ، ثم تتبّع حياته (عليه السلام) منذ مولده ، وتحدث عن مراحل دعوة الإسلام حتى انتصارها الأخير بفتح مكة ، أما القسم الرابع والأخير فقد اختصّ به سرايا الرسول ، وكلّ قسم من هذه الأقسام يضم مجموعة من القصائد التي نوع أوزانها وقوافيها ، غير أنها تمثل وحدة متماسكة تتبّع فيها سيرة الرسول حسبما وردت في كتب السيرة ، ولا سيما كتاب ابن هشام ، فهو يساير هذه السيرة في ترتيب الأحداث الزمني ، ومع أن ذلك طبّع عمل أحمد محرم بطابع تعليمي ، فإن شعره في جزالته وجودة تعبيره وصقل أسلوبه يسمو على ما رأيناه من قبل ، من ألوان النظم التعليمي الخالي من القيم الفنية ، بل نرى في بعض قصائده مزيجاً من الغنائية والقصصية ، ولا سيما حينما يصور المواقف البطولية للرسول .

والظاهرة التي تلفت النظر في مجتمعنا الحديث هي تزايد الاهتمام بشخصية الرسول ﷺ ، ولا سيما بين رواد نهضتنا الثقافية والأدبية ، التي سطعت

أنوارها منذ مطلع القرن العشرين ، حتى أولئك الذين تأثروا بالثقافة الأوروبية تأثراً واضحاً ، وكانوا من دعاة التجديد الشامل في ميادين الاجتماع والسياسة والثقافة ، إذا بهم يتجهون منذ ثلاثينيات هذا القرن إلى سيرة الرسول ، كلٌّ ينظر إليها من زاوية ثقافته وأتجاهه العلمي أو الفني ؛ فرى طه حسين يكتب « على هامش السيرة » يصوغ فيها مشاهد من حياة الرسول ، صياغةً نثرية جميلة ، ويكتب محمد حسين هيكل كتابه « في منزل الوحي » ثم « حياة محمد » ، ويتبع ذلك بكتابة سير كبار الصحابة ، ولكنه يتجه في كتاباته أتجاهاً علمياً تاريخياً ، ويهتم العقاد بإجلاء جوانب من شخصية الرسول ﷺ والملاح ذات الدلالة في حياته ، في « عبقرية محمد » ، حتى توفيق الحكيم الذي كان أتجاهه للكتابة المسرحية يحمل على الظن بأنه بعيد عن هذه الاهتمامات ، إذا به يدلي بدلوه أيضاً في هذا المجال ، فيعمل على « مسرحة » السيرة النبوية في عمله الفني « محمد » ، الذي لم ينل من الاهتمام ما هو جدير به .

أما الشعر فلا يزال اهتمامه بالرسول ﷺ على أشده ، فشخصية محمد (عليه السلام) معين لا ينضب ، واستلهاهم الشعراء من شتى جوانبها المضيئة لم ينقطع ، ويمكن أن نؤكد أنه لن ينقطع أبداً ، ومهما كثر الحديث عن سيرته فما زالت الكلمة الشعرية قادرة على أن تستكشف مساحات أخرى من شخصية الرسول ، تستحق أن تسلط عليها الأضواء من جديد .

ولسنا نستطيع متابعة الشعر الذي فاضت به قرائح شعرائنا خلال العقود الأخيرة ، فهو يحتاج إلى دراسة خاصة ، لا سيما بعد التطور الذي أصاب الشعر العربي منذ منتصف هذا القرن .

على أيّ أود أن أنوه في النهاية بديوان طريف ، أفرّد كله تقريباً للمديح النبوي ؛ هو « محمد رسول الله » وقد صدر منذ أربع سنوات^(١) . ووجه الطرافة

(١) نشر دار الشروق ، القاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

في هذا الديوان أن مؤلفه طبيب جراح ذو شهرة عالمية في مهنته وتخصصه ، ولكنه يكشف لنا في الوقت نفسه عن طاقة شعرية عظيمة ، ترتفع به إلى درجة من فرغوا للشعر وسمت مرتبتهم فيه . هذا الشاعر الطبيب الجراح هو الدكتور حسن إبراهيم ، الذي واصل في ميدان الجراحة - عمل والده العظيم عميد جراح مصر خلال النصف الأول من هذا القرن ، و واصل في الجمع بين الشعر والطب تقليدا عرفناه في ثقافتنا العربية منذ قديم ، وهو وجود أجيال من الأطباء الأدياء ؛ من أمثال أسرة بني زهر الإشبيليين في الأندلس وإبراهيم ناجي في أدبنا المعاصر . ويبدو أن بريق برودة البوصيري ما زال يهتر أنظار شعراء المديح النبوي حتى اليوم ، فنحن نرى الدكتور حسن إبراهيم يفتتح ديوانه بمعارضة للبردة في مائة وثلاثة وعشرين بيتا ، ويتبعها بتائية تبدو معارضة لتائية دغبل في رثاء آلي البيت ، قالها الشاعر وهو يقف على قبر الرسول ﷺ ، وهي قصيدة تفيض بالخشوع وهو في هذا المقام الجليل :

مَشَيْتُ فِي قَلْبِي وَجِيبَ وَرَهْبَةٍ	إِلَى خَيْرِ قَبْرِ ضَمَّ خَيْرَ رُقَاتِ
وَهَادِي حَيٍّ نَحْوَ مَثْوَى مُحَمَّدٍ	عَلَيْهِ لَعْمَرِي أَطِيبُ الصَّلَوَاتِ
وَحَوْلِي مِنَ الْأَقْوَامِ حَشْدٌ مِيمٌ	إِلَى حَيْثُ يَتَوَى مَتَبَعُ الْبَرَكَاتِ
وَفَاضَتْ عَيُونُ النَّاسِ دَمْعًا وَأَجْهَشَتْ	نَفُوسٌ لِمُنْجِيهَا مِنَ الْعَثَرَاتِ
وَفِي النَّفْسِ مَا فِيهَا مِنَ الْحُبِّ وَالتَّقَى	وَفِي النَّفْسِ مَا فِيهَا مِنَ الْحَسَرَاتِ
وَقَفْتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ	قُرُونٌ خَلَتْ لَا هَذِهِ الْخُطُواتِ
وَعَادَتْ بِي الذِّكْرَى دُهورًا سَحِيقَةً	إِلَى قَجَرِ دِينِ عَاطِرِ النَّفْحَاتِ

وهو يقف على مشاهد المدينة متحدثا عما تثيره في نفسه من ذكريات ، يستحضرها ليقدم من خلالها ما اشتملت عليه من غير في حرارة نابغة من إيمان صادق .

ولو مضينا نتبّع هذا الشّعْر النبويّ في مصر وحدها ، دون سائر بلاد الإسلام
لما انتهت بنا هذه الرحلة عند حدّ ، فلنقف سياحة القلم ، ولنذكر أن روح
محمد رسول الله ما زالت تُظِلُّ عالم الإسلام كلّهُ ، موحيةً بأطيب الكلام ،
ولا غرو فهي قِبَسٌ من نور الله ، ونور الله مثلُ كلماته لا ينفدُ ، وكلُّ كلمةٍ
شعريّة قيلت في مديح الرّسول إنّما هي شعاعٌ مستمدٌّ من كلماته تعالى : « قل
لو كان البحرُ مداداً لِكلماتِ ربّي لَنفدَ البحرُ قبلَ أن تنفدَ كلماتُ ربّي ، ولو
جِئنا بمثله مدداً » ...

المصادر والمراجع

أولا - المصادر

- ابن الأثير القضاعي البكّسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله
التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق فرانيسكو كوديرا Francisco Codera .
مدريد ، ١٨٨٧-١٨٨٩ .
- ابن إسحاق ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي
السيرة ، تحقيق محمد حميد الله . الرباط ، ١٩٧٦ .
- ابن بسّام الشنتريني ، علي
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٩ .
٨ مج .
- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي
١- الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ،
١٩٧٠-١٩٧٢ . ٨ مج .
- ٢- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٨ -
١٣٥٠ هـ / ١٩٢٩-١٩٣١ م . ٤ مج .
- ابن الخطيب القرناطي ، لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني
الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ،
١٩٧٣-١٩٧٧ . ٤ مج .

ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد
مقدمة التاريخ (العبر وديوان المبتدأ والخبر) . القاهرة ، المكتبة التجارية
الكبرى ، د.ت .

ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر
وقيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٦٨ -
١٩٧٢ . ٨ مج .

ابن خير الإشيلي ، أبو بكر محمد
فهرسة ما رواه عن شيوخه ، تحقيق فرانسيسكو كوديرا و خوليان ريبيرا .
سرقسطة ، ١٨٩٣ . ٢ مج .

ابن رشيقي القيرواني ، أبو علي الحسن
العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
القاهرة ، ١٩٣٤ . ٢ مج .

ابن الزيات التادلي ، يوسف بن يحيى
التشوف إلى رجال التصوف ، تحقيق أحمد التوفيق . الدار البيضاء ،
١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع
الطبقات الكبرى . بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م . ٩ مج .

ابن سلام ، محمد بن سلام الجمحي
طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر . القاهرة ، ١٣٩٤هـ /
١٩٧٤م .

ابن سهل ، إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشيلي
ديوانه ، تقديم إحسان عباس . بيروت ، ١٩٦٧ .

ابن شاكر الكنتي ، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد الدمشقي
قوات الوقايات ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٣ . ٤ مج .

ابن الشَّباط التُّوزري ، انظر : ابن الكردبوس

ابن عبد الملك المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، السفر السادس ، تحقيق إحسان
عباس . بيروت ، ١٩٧٣ .

ابن عربي ، محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي

- ١- الفتوحات المكية ، السفر الأول ، تحقيق عثمان يحيى . القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ٢- فصوص الحكم ، تحقيق أبو العلا عفيفي . القاهرة ، ١٩٤٦ . ٢ مج .
- ٣- ديوانه . طبعة بومباي الحجرية .

ابن الفارض ، أبو حفص عمر بن علي بن المرشد
ديوانه . القاهرة .

ابن الكردبوس ، أبو مروان عبد الملك التُّوزري

قطعة من كتاب « الاكتفا في أخبار الخلفاء » ، تحقيق أحمد مختار العبادي
بعنوان « تاريخ الأندلس » ، ومعها قطعة في وصف الأندلس وصيقلية من كتاب
« صلة السمط وسمة المرط » لابن الشباط المصري التُّوزري محمد بن محمد
ابن علي . مدريد ، ١٩٧١ .

ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام الحِميري

السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السَّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي .
ط ٢ . القاهرة ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م . ٢ مج .

أبو زيد القرشي ، محمد بن أبي الخطاب

جَمَهْرَةُ أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، تحقيق علي محمد البجاوي .
القاهرة ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

أحمد بن حنبل الشَّيباني

المسند ، تحقيق أحمد محمد شاكر . القاهرة ، ١٩٤٦ . ١٥ ج .

الإصْفَهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين القرشي
الأغانِي ، الأجزاء ١-١٦ طبعة دار الكتب المصرية ، والأجزاء ١٧-٢٤ طبعة
الهيئة العامة للتأليف والنشر . القاهرة ، ١٩٧٠-١٩٧٤ .

البُخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل
الصحيح . القاهرة ، ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م .

البُوصيري ، محمد بن سعيد بن حماد الصنْهَاجي
ديوانه ، تحقيق محمد سيد كيلاني . القاهرة ، ١٩٥٦ .

التَّسِي التَّلْسماني ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله
نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود بو عيَّاد . الجزائر ،
١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

الثَّعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النِّسابوري
يَتِيمة الدهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ،
١٣٧٥-١٣٧٧هـ / ١٩٥٦-١٩٥٨م . ٤ مج .

الجاحِظ ، أبو عثمان عمرو بن بَحْر الكِنَاني
١- البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ١٣٩٥هـ /
١٩٧٥م . ٤ مج .

٢- الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، ١٣٨٥-١٣٨٩هـ /
١٩٦٥-١٩٦٩م . ٨ مج .

حَسَّان بن ثابت الخزرجي
ديوانه ، تحقيق سيد حنفي . القاهرة .

دِغْبَل بن علي الخزاعي
ديوانه ، تحقيق عبد الكريم الأشر . دمشق ، ١٩٦٤ .

الرُّبَيْدِي الإشبيلي ، أبو بكر محمد بن الحسن الملاحِجي
طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ،
١٩٧٣ .

السَّخَاوِي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد

الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع . القاهرة ، ١٣٥٣-١٣٥٥ هـ / ١٩٣٤-١٩٣٦ م . ١٢ مج .

السَّيِّد الحِمِّيَرِي ، إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ

١- ديوانه ، جمع وتحقيق شاكر هادي شكر . بيروت ، ١٩٧١ .

٢- القصيدة المذهبة في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، بشرح الشَّريف المَرْتَضَى . بيروت ، ١٩٦٩ .

السَّيُّوطِي ، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد

١- بُغْيَةُ الوُعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة ، محمد أبو الفضل إبراهيم .

القاهرة ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤-١٩٦٥ م . ٢ مج .

٢- جامع الأحاديث : الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير . القاهرة ، ١٩٨٤ .

الشَّريف الرُّضَيِّ ، أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي

ديوانه . بيروت ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م . ٢ مج .

الشَّريف المَرْتَضَى ، أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي

١- ديوانه ، تحقيق محمد رشيد الصفار . القاهرة ، ١٩٥٨ . ٣ مج .

٢- الأمالي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م . ٢ مج .

٣- شرح القصيدة المذهبة ، انظر السيد الحِمِّيَرِي .

الصَّفَّادِي ، صلاح الدين خليل بن أبيك

الوافي بالوفيات ، المجلدات الأربعة الأولى ، بعناية هلموت ريتز . ط ٢ فيسبادن ، ١٩٦١ .

صَيِّي الدين الحَلِّي ، أبو الفضل عبد العزيز بن سرايا

ديوانه . النجف ، ١٩٥٦ .

الصُّولي ، أبو بكر محمد بن يحيى

١- الأوراق ، تحقيق هيوارت دن . القاهرة .

٢- أبو العتاهية : أشعاره وأخباره ، تحقيق شكري فيصل . دمشق ، ١٩٦٥ .

الطُّبري ، محمد بن جرير

تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف .
١٠ مج .

الغُبَريني ، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق عادل
نويهض . بيروت ، ١٩٦٩ .

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري

الجامع لأحكام القرآن . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٢ .

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي

صَبْحُ الْأَعَشَى فِي صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ . ط ٢ القاهرة ، ١٩٦٣ . ١٤ مج .

كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ بْنِ أَبِي سَلْمَى الْمَزْنِي

ديوانه . القاهرة ، دار الكتب المصرية .

الكلّاعي ، أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الحِميري البَلَنَسي

الاكتفا في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، المجلدان الأول والثاني ، تحقيق
مصطفى عبد الواحد . القاهرة ، ١٩٦٨-١٩٧٠ .

المرزباني ، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى

معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج . القاهرة ، ١٩٦٠ .

مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْقَشِيرِي

الجامع الصحيح . القاهرة ، ١٩١٥ .

المُقَرِّي ، أبو العباس أحمد بن محمد التَّلَمَسَانِي الْفَاسِي

١- أزهار الرياض في أخبار عياض ، المجلدات الثلاثة الأولى ، تحقيق
مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . القاهرة ،

١٩٣٩-١٩٤٢ . والمجلدان الرابع والخامس ، تحقيق سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت وعبد السلام الهراس . الرباط ، المحمدية ، ١٩٧٨-١٩٨٠ .

٢- نَفْحُ الطَّيِّبِ من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٦٨ . ٨ مج .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي

١- الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) . القاهرة ، ١٣٢٤-١٣٢٦ هـ / ١٩٠٦-١٩٠٨ م .

٢- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد أحمد . القاهرة ، ١٩٦٧-١٩٧٣ . ٣ مج .

٣- السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول في ثلاثة أقسام ، تحقيق محمد مصطفى زيادة . القاهرة ، ١٩٣٤-١٩٣٩ .

مهيّار الديلمي ، أبو الحسن مهيّار بن مرزويه

ديوانه . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠ . ٤ مج .

المؤيد في الدين الشيرازي ، هبة الله بن موسى داعي الدعاة

المجالس المؤيدية ، تلخيص حاتم بن إبراهيم ، تحقيق محمد عبد القادر عبد الناصر . القاهرة ، ١٩٧٥ .

النابغة الجعدي ، أبو ليلى قيس بن عبد الله بن عدس

ديوانه ، تحقيق عبد العزيز رباح . دمشق .

ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي

١- معجم البلدان . بيروت . ٥ مج .

٢- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، نشر أحمد فريد الرقاعي . القاهرة ، ١٩٣٦-١٩٣٨ . ٢٠ مج .

اليغموري

نور القَبَس المختصر من المُقْتَبَس ، تحقيق رودلف زلهام . النشرات الإسلامية ، ١٩٦٤ .

ثانيا - المراجع العربية والمترجمة

إحسان عباس

الشَّريف الرُّضَي

أحمد أمين

- ١- ضَحَى الإسلام . ط ١٠ بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت. مج ٣ .
- ٢- زعماء الإصلاح في العصر الحديث . ط ١٠ بيروت ، دار الكتاب العربي ، د.ت .

أحمد الحوفي

الإسلام في شعر شوقي . القاهرة ، ١٩٦٢ .

أحمد شوقي

الشُّوقيات . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٧٠ . مج ٢ .

أحمد مُحَرَّم

ديوان مجد الإسلام ، أو الإلياذة الإسلامية ، تصحيح محمد إبراهيم الجيوشي .
القاهرة ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

البارودي ، محمود سامي

كشف الغمّة في مدح سيد الأمة . القاهرة ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م .

بروكلمان ، كارل

تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩-١٩٧٧ . ٦ مج .

حسن إبراهيم

محمد رسول الله . القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

زكي مبارك

المدائح النبوية . القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧١ .

شوقي ضيف

١- مجموعة تاريخ الأدب العربي

- العصر الجاهلي . ط ٤ القاهرة ، ١٩٦٠ .
- العصر الإسلامي . ط ٤ القاهرة ، ١٩٦٣ .
- العصر العباسي الأول . ط ٣ القاهرة ، ١٩٦٦ .
- العصر العباسي الثاني . القاهرة ، ١٩٧٣ .
- عصر الدول والإمارات : الجزيرة العربية ، العراق ، إيران . القاهرة ، ١٩٨٠ .
- عصر الدول والإمارات : مصر والشام . القاهرة ، ١٩٨٤ .
- ٢- البلاغة : تطور وتاريخ . ط ٣ القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٣- المدارس النحوية . ط ٣ القاهرة ، ١٩٧٦ .
- ٤- البارودي رائد الشعر الحديث . القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٥- شوقي شاعر العصر الحديث . القاهرة ، ١٩٥٣ .

طه حسين

في الأدب الجاهلي (الكتاب الأول في مجموعة « من تاريخ الأدب العربي »)
إعداد وتقديم شكري فيصل ، المجلد الأول . بيروت ، ١٩٧٠ .

عبد الله عبد الرحمن الجعش

شعر الدعوة الإسلامية ، جمع وتحقيق . الرياض ، ١٩٧٤ . مج ٣ .

عبد الحسيب طه حميدة

أدب الشيعة . القاهرة ، ١٩٦٧ .

عبد الحميد حاجيات

أبو حَمَو موسى الزباني : حياته وآثاره . الجزائر ، ١٩٧٤ .

عبد الحلي الكتّاني

التراتب الإدارية (أو نظام الحكومة النبوية) . بيروت ، دار إحياء التراث
العربي ، د.ت. ٢ مج .

عرفان شهيد

العودة إلى شوقي (أو بعد خمسين عاماً) . بيروت ، ١٩٨٦ .

محمد حامد الحضييري

رسول الإنسانية محمد (صلوات الله عليه) في الأدب العربي الحديث .
القاهرة ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

محمد محمود الدّش

أبو العتاهية : حياته وشعره . القاهرة ، ١٩٦٨ .

محمود علي مكّي

السيرة النبوية في التراث الأندلسي . القاهرة ، مجلة الهلال ، أغسطس
١٩٧٨ .

Granja Santamaría, Fernando de la :

- Fiestas cristianas en al-Andalus, en Al-Andalus, vol. XXXIV,
1969, pp. 1-53

فرناندو دي لاجرانخا سانتا ماريا

الأعياد المسيحية في الأندلس ؛ بَحْثٌ بالإسبانية ، مجلة الأندلس ، المجلد
الرابع والثلاثون ، ١٩٦٩ ، ص ١-٥٣ .

أدبيات

١. الأدب المقارن
٢. أدب الرحلة
٣. المدائح النبوية
٤. أدب السيرة الذاتية

ترمي سلسلة «أدبيات»، في كل كتاب يصدر فيها، إلى معالجة موضوع أو قضية أدبية معالجة عامة شاملة يفيد منها القارئ العام والقارئ المتخصص. والسلسلة في مجموعها تمثل موسوعة أدبية متكاملة، ولا تقتصر في تناولها للموضوعات على الأدب العربي فحسب، بل تتجاوزه إلى الآداب غير العربية. والسلسلة وصفية، تعنى أساساً بتعريف القارئ بالموضوع، وتناهى عن الأحكام القاطعة في القضايا الأدبية الجدلية أو الحافلة بالخلافات.

يطلب من: شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة